لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

دكتور صباح عبيد دراز

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

الأساليب الإنشائية

وأسرارها البلاغية

في

القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

دكتور صباح عبيد دراز

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

الأساليب الإنشائية

وأسرارها البلاغية

في

القرآن الكريم

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله ، وشكرا يوافى نعمه وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى • وبعد :

فان الاستشراف الى كتاب الله تعالى ، ومحاولة استشفاف أسرار من أسراره البلاغية أمر جد خطير ، لولا عون من الله تعالى • ثم ان استيفاء الحديث الجاد عن لون بلاغى والتعرف على أساليبه وكشف سماته ، قد يستغرق جهدا وعمرا مديدا لمن هيأ الله له وسائل البحث الموفق •

ولذا فمن الغريب أن تجد باحثا يتناول فى كتاب بلاغى أدوات القرآن أو حروفه ، أو ألفاظه ودلالاتها ، أو تراكيبه وأسرارها ، أو الوجوه البلاغية فيه ، وقد وجدنا من ذلك نماذج فيها خواطر طيبة ، وشذرات بارقة من العلم والحكمة ، لكن لن تجد هذا البحث الموضوعى الذى ينقع غلة أو يضيف لبنة الى صرح البلاغة القرآنية ، وأعنى بذلك هذا التعمق الجاد ، والاستقصاء الحذر للأساليب — قدر الوسع — ومراجعة هذا الحشد من آراء العلماء ، وهى آراء لم تطاق من فراغ بل حكمت بسنن من العقل والشرع واللغة ، ثم ان طبيعة الجملة القرآنية فى تركيبها وصياغتها ، وايجازها ، وطريقة نظمها ، وقوة نظمها ، ووفرة تأويلها ، ومديد اشعاعها منحت العلماء سعة فى تعداد الوجهات والآراء •

كما كان لطريقة البحث عند علمائنا الأجلاء أثرها فى المعـــالجة أعنى ما ورثناه عن السلف فى توالفيهم فى أسرار اللغة وفلســـفتها ودقائقها فى نحوها ومعاجمها ، وما عالجت فيها من آيات القـــرآن استشهادا وتأصيلا لقوانينها ، وفى علوم القرآن والتفســير والبلاغة قرآنية أو عامة ، ولا شك أن العكوف على هذه الكنوز ـــ فيما يخص موضوعا قرآنيا ما ـــ على ضوء الموازنات الأسلوبية القرآنية ذاتهـا سيعين على ظهور كثير مما خفى من أسرار القرآن ، وهى أسرار تسع عمر الحياة والأحياء أبدا .

والواقع أن هذا المنهج لا يصـــير على لأوائه الا أولو العـــزم ، وقد عاصرنا منهم نماذج سامقة مشرقة ، ونرجو الله أن يوفقنا للسير على نهجهم القاصد وبلائهم المصابر الناجح .

ودع عنك هذا التلفيق العابث والترقيع الهاذر مما تخـــرجه المطابع وبخاصة فى دائرة البلاغة القرآنية عناوين مثيرة لافتـــة ، وسرابات لامعة ، ثم خواء وهواء كلمة من هنا ، ورأى من هنـــاك لا يرجعون رأيا الى مصدره ولا يتبعون فكرة الى قرارها ، ولا يعنيهم مما عنى العلماء فى كشف الأستار عن دلالة الأدوات أو الكلمـات أو الأساليب ، ولا ما تسليطه الموازنات الأسلوبية من باهر الضوء عـلى قانون بلاغى أو سمة فنية أو منحى تركيبى ، وبخاصة أن التـــلاؤم القرآنى معجز فى دقته الخارقة ، ولكل ذلك شأن خطير .

ولعل مما يحزن أن تجد شباب الباحثين وقد تحصرموا قبـــل ينع ، وفطموا قبل حول ، تذوى بين أيديهم ما يعالجون من موضوعات قرآنية ولا تورق ، وتموت من جفاف ولا تحيا من عطاء ، وقد يكون هذا سببا كافيا لهذا السيل المنهمر الذى تقذفه المطابع .

وقد نجد كتبا تتجاوز أصابع اليدين عدا لمؤلف شاب لم تعنه قضية بلاغية بين الزمخشرى وأبى حيان مثلا ، ولا فكرة دلالية بين النحاة والبلاغيين • وما أكثر ما ظلم النحاة على العموم وأكثرهم أئمة كبار عند ابن الأثير ان جادل بعضهم فى عصره ممن لم يذكره التاريخ فقسا فى حكمه المطلق ، وزاده الغرور والصلف امعانا فى القسوة والخطأ •

أريد أن أقول ان البحث العلمى يجب أن ينضج على مهل وأن يقدم فى ريث وروية ودع عنك أيضا نوعا من الباحثين تعرفهم فى كتبهم بسيماهم يقرأون فى سرعة قافزة فقرات من كتب التراث قد تنتمى لمنهج خاص أو رأى معين بله كتبا كاملة أو مدارس بآثارها ثم يرتدون ثوب القاضى الوقور ، ويصدرون أحكاما ضخمة تدين عبد القاهر أو النحاة أو التراث كله ، انهم يمثلون ملهاة مضحكة مبكية معا ، وانهم لبلاء هذا الزمان يلوون ألسنتهم ليظن بهم العلم وبينهم وبينه بعد المشرقين •

والبحث الذى بين يديك لا يدعى كمالا بل فيه ما فى النشاط البشرى من قصور وأن هو الا محاولة اجتهدت أن تترسم خطا العلماء، وابتهلت الى الله أن يهبها ، من لدنه قبولا وتوفيقا ورشدا وأن يخلص بها القصد وينفع بها من يشاء •

والبحث دار حول أساليب الأمر والنهى والاستفهام والنداء والتمنى فى القرآن على نحو ينطلق من المنهج البلاغى •

وهنا أمر يحسن التنبيه اليه يتعلق بذكر المراجع ، ذلك أننى كنت أحيانا أجد رأيا قد نسب خطأ الى عالم كالزمخشرى واشتهر ذلك بينما سبقه اليه عالم آخر كالطبرى أو فكرة نسبت الى السكاكى

وهى للزمخشرى فكنت حريصا على تتبع الرأى الى مصدره الأصيل وكيف تطور على أيدى اللاحقين وهذا ـ فيما وقع لى علم به ـ اذ لم يكن المنهج التاريخى مما يشغل البحث أما فيما اتفقت فيه كلمة العلماء فغالبا أذكر ما اكتملت عنده الفكرة احاطة وصياغةعندالزمخشرى أو السكاكى أو السبكى أو الشهاب أو أبى السعود • وقد يحدث أن يختلف الرأى وتتقابل النظرة وهنا لا بد من ذكر المصادر اتماما للفائدة

والحمد لله رب العالمين •

مكة المكرمة : ٣٠ من رجب ١٤٠٦ هـ •

الأساليب الانشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم

الانشـــــاء :

الانشاء لغة : الايجاد والاحـــداث والابداع وهو فى التصنيف البلاغى يقابل الخبر : وهو العلم بالأشياء المعلومه من جهـة الخبر ، والانشاء : ايجاد معنى بلفظ يقارنه فى الوجود وقد قالوا ان الخبر : ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، وقولهم لذاته : يخـــرج ما تدل القرائن والدلائل على تعين صدقه كالقرآن الكريم وحديث النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

وهذا التعريف البلاغى مأخـــوذ عن أهل المنطـــق وبعض الأصوليين (٢) - وقد رده الامام الرازى : اذ لا يمكن تعـــريف الصدق والكذب الا بالخبر ، فلو عرف بهما لزم الدور ، عـلى أن الحد ليس شاملا لخبر الله تعالى وأنبيائه وما تواتر صدقه (٣) .

والواقع أن لنا تحفظا فى اطلاق الخبر بهذا المفهوم ــ وعـــلى اطلاقه ــ على القرآن الكريم والحديث النبوى ذلك أن الخبـــر حين يكون محقق الوقوع ذا فائدة جليلة يحصل به علم أو غلبـة ظن يطلق عليه بهذه القيود نبأ ، فحق الخبر الذى يقال له نبأ ــ كمـا ذكـــر الراغب ــ أن يتعرى عن الكذب كخبر الله تعالى وخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والتواتر (٤) ولذا سمى الله القرآن وما فيه نبـــأ « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » (٥) « قل هو نبأ عظيم » (٦) ومنـــه النبوة والنبى لانبائه عن الله صدقا ما تسكن اليه العقول .

---

(١) راجع الايضاح ٨٦ وحاشية الدسوقى ١/١٦٤ .
(٢) راجع الابهاج فى شرح المنهاج لعلى السبكى ١/٢١٨ .
(٣) راجع المحصول فى علم الأصول للرازى قسم ١ جزء ٢/ص ٣١٠
(٤) ص ٦٧ وراجع مفردات الراغب ٤٤١
(٥) عم ١ (٦)

ومن عجيب أن مادة النبأ فعلا ومصدرا جاءت فى ١٢٠ أسلوبا قرآنيا، والنبى معرفا ومنكرا جاء فى ٨٠ أسلوبا ، ولتضمن النبأ معنى العلم قيل أنبأته كذا تقولك : أعلمته كذا ، والفعل جاء على صورتين ، نبا بالتضعيف وأنبأ (٧) وذلك فى مقام الاحتشاد والصدق والتحقيق لقوله تعالى « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير » (٨) وكان من الممكن الاكتفاء بهذا التعريف للخبر دون التكلف والاسراف فى نقل ما هو دخيل على البلاغة من محاولة تحديد الخبر ، ونقل ما رآه النظام والجاحظ والرد عليها ، وتعجب للسكاكى ينقد التعريف « ما يحتمل الصدق والكذب لذاته » لتوقف العلم بالصادق والكاذب على الخبر ففيه دور ، ثم يومىء الى ما ذكر الراغب سابقا من أن الخبر هو القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم الى معلوم بالنفى أو بالاثبات ثم يندفع فى ايراد اشكالات منطقية والرد عليها ، وسند لخص الرازى فى المحصول اعتراضه وزاد عليه بأن تصور ماهية الخبر غنى عن التعريف وهذا من لمحاته الفريدة (٩) ثم ان مادة الخبر بفتحتين لم ترد مفردة أو جمعا الا فى خمسة مواطن سبقت أو تليت بما يؤكد صدقها كقوله تعالى « قد نبأنا الله من أخباركم » (١٠) « ونبلو أخباركم » (١١) أى نمحص والفاعل فيهما الله تعالى ظاهرا أو مضمرا ، وعن الأرض يوم القيامة « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » (١٢) فهو وحى والهام وخبر خاص ، وعلى لسان موسى عليه السلام يخاطب أهله حين رأى نارا فى الوادى المقدس طوى

---

(٧) راجع فى مادة النبأ : الراغب ٤٨٢ ، ٤٩٤ ، ١٤١ والمعجم المفهرس ٢٢٦ .
(٨) التحريم ٣ .
(٩) راجع المفتاح ١٦٤ والمحصول ح ٢ ق ١/ ٣١٠ .
(١٠) التوبة ٩٤ .
(١١) محمد ٣١ .
(١٢) الزلزلة ٤ .

« امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » (١٣) وفى النمل سآتيكم منها بخبر (١٤) ، كما جاء فى المادة خبر بضم فسكون بمعنى الاحاطة التامة بظاهر الأشياء وباطنها ، ومنها «خبير» من أسماء الله الحسنى وجاء مرة بمعنى مطلع على أسرار الأمور « ولا ينبئك مثل خبير » (١٥) وعلى هذا فقولهم : الخبر احتمال الصدق والكذب لذاته أى مجردا عن دلائل مرجحه قول لا يثبت فيما يتعلق بالقرآن والحديث وقد أخذنا من القرآن وأطلنا فى التحليل لأن هذا القول شائع جدا فيما ألف من كتب حديثة ومن الممكن مع بعض التجاوز ابقاء هذا القول خاصا بالبلاغة البشرية لأن لفكرة الصدق الفنى بجانب الصدق العقلى شأنا فى فن القول أما بلاغة القرآن فلا شك أن هناك عديدا من الاصطلاحات البلاغية لا يمكن أن تقترب من حماه.

والفرق البلاغى بين الخبر والانشاء مصبوغ بالدقة والاغراق فى العمق ويمكن استخلاصه من مجاذبات العلماء ، ذلك أن للكلام ثلاث نسب ، والنسبة هى تعلق أحد جزأى الكلام بالآخر بحيث يصح السكوت عليه (١٦) .

١ ــ نسبة كلامية : وهى ما يفهم من الكلام لغة نحو : محمد رسول الله ، ونحو « فاصبر لحكم ربك » ففيه اثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم والأمر له بالصبر على قضاء الله وحكمه من ظاهر الأسلوب .

نسبة ذهنية : وهى الصورة المعنوية للكلام ضرورة أن الكلام نظم مرتب حسب ترتيب المعانى فى النفس فأنت تدير المعانى فى

---

(١٣) طه ٧ (١٤) (١٥) فاطر ١٤ .
وراجع المعجم المفهرس ٢٢٦ .
(١٦) راجع الأطول ١/٤٣ .

نفسك وترتيبها على قانون العقل ثم تلفظ بها منسقة منظومة على قانون النحو ، وهذا التحليل من النفس والذهن أو العقل والنطق به تتبع للعملية الفنية عند البشر نتبعا زمنيا مفترضا ، بعيدا عما يتصل بالله تعالى من كلامه المقدس وصفات كماله فهى من المتشابه الذى تنازعته الفرق الاسلامية توقفا ، وتأويلا دفعا للقول المفترى بخلق القرآن .

٣ ـ نسبة خارجية : وهى تحقق معنى الكلام أو عدم تحققه فى الخارج ، بمعنى تحقيق نسبته الكلامية والذهنية ـ ويسميها بعضهم الواقعية بمعنى الواقع النفسى ـ فى الواقع المعاش .

وهذه النسب الثلاث موجودة فى الخبر والانشاء على السواء ، كما حقق الدسوقى رادا على القزوينى والعصام ، والفرق أن فى الخبر تقصد الحكاية ومطابقة النسب أو يقصد عدمها بمعنى حكاية المعنى الحاصل فى الخارج ، بينما الانشاء لا يقصد فيه الى المطابقة ، بل احداث مدلول الانشاء وايجاده بذلك اللفظ ، فنسب الانشاء ليست حاكية بل محضرة ليترتب عليها وجود أو ترك أو ثمن أو تعجب ونحو ذلك (١٧) .

وثم شى آخر هو أن وجود هذه النسب كاملة أغلبى فهناك بعض الأخبار ليس لها وجود خارجى بل وجود نفسى فقط توصف بالصدق حين تطابق النسبة الكلامية أو الكذب حين لاتطابقها والفيصل فى ذلك القرائن ، وقد جاء كثيرا فى شأن المنافقين حين يكذبون فيفضح الله أعماقهم كقوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم

---

(١٧) راجع الأطول ٤٤/١ وحاشية الدسوقى ١٦٤/١ .

الآخر وما هم بمؤمنين » (١٨) « واذا لقوكم قالوا آمنـا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » (١٩) « يحلفون بالله أنهم لمنـكم وما هم منكم » (٢٠) .

وقد كثر مجيء مادة الحلف فيما يكذب فيه المنافقون (٢١) ، وقد قدم القرآن وبخاصة فى سور التوبة والمنافقون والبقرة صورا عديدة مثيرة لافتراءاتهم وكذباتهم والتواء سرائرهم .

ومع أن الانشاء لا يقصد فيه مطابقة النسب لـكن ان وافقت النسبة الكلامية ما فى النفس وعالمها المائج بالشعور كان المتكلم صادقا فى التعبير عن ذاته وخلجاته والا كان مستترا وراء قناع من الـكذب وان هى الا رمية لسان أو قذفة بهتان ، أو تبرير أو تعريض أو ختال. كما فى أيمان المنافقين السابقة وثم آية توقف عنـدها العلماء قول الله تعالى « ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنـا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفـون من قبل ولو ردوا لعادوا لمـا نهوا عنه وانهم لكاذبون » فالتمنى انشاء لايداخله صدق أو كذب فكيف جاء « وانهم لكاذبون » (٢٢) .

قال فى الكشاف « ان هذا التمنى قد تضمن معنى الخبر والعـدة فاذا كانت سجية الانسان شيئا ثم تمنى ما يخالف سجيته صح وصفه بالكذب على تجوز فى تمنى المستقبلات واقتصر على هـذا الوجه أبو السعود والبهاء السبكى لقوته ، وزاد أبو حيان : بجواز أن يكون

---

(١٨) البقرة ٨ .
(١٩) آل عمران ١١٩ .
(٢٠) التوبة ٥٦ .
(٢١) راجع الاعجاز البيانى وبنت الشاطىء ٢٠٤ وما بعدها .
(٢٢) الأنعام ٢٧ ، ٢٨ .

قوله « وانهم لكاذبون » اخبار من الله أن سجية هؤلاء الكذب حكاية عن حالهم فى الدنيا ولا تعلق له بمتعلق التمنى ، وفيه بعد ، وقرىء برفع الفعل على الاستئناف : ولا نكذب أى وقالوا نحن لا نكذب بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين ، فيصح على هذا تكذيبهم فى هذا الاخبار ، ورجح سيبويه هذا الوجه وشبهه بقوله « دعنى ولا أعود » بمعنى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى (٢٣) .

والواقع أن فكرة الصدق والكذب مهما كان الدافع اليها من الشئون العقدية والجدلية أو من الشئون البلاغية المتأثرة بالمنطق والأصول هى لا تبعد كثيرا عن مقولة الصدق الفنى بمعنى أن يكون المبدع صادقا مع نفسه فى التعبير بفنه عن أحاسيسه تلك المقولة التى ارتبطت بكثير من المدارس النقدية الحديثة وشاع استعمالها فى كتب النقد الحديث التى ترجعها أحيانا الى الغرب ومذاهبه الفنية وهى كما قلت ليست بعيدة الدلالة عن الفكرة فى التراث العربى .

ثم أن أساليب الانشاء اذا قصد حكايتها أى حكاية النسبة النفسية بقولك استفهم ، وأقسم بالله وتمنى كانت أخبارا كقوله تعالى: « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن » (٢٤) وقال « يسألونك عن الأنفال » (٢٥) و « ويستنبئونك أحق هو » (٢٦) . فهى اخبار عن أحداث وقعت ومطلوبات فى الخارج تحكى وليس انشاء .

كما أن الأخبار اذا كانت حادثة فى الواقع وتوجه اليها الانشاء أريد بها معنى آخر مما سوف نفصله فى أبواب الانشاء ـ كطلب

---

(٢٣) راجع فى الآية الكشاف ١٣/٢ والبحر ١٠٣/٤ وأبا السعود ١٢٣/٣ وشروح التلخيص ٢٤٦/٢ .

(٢٤) النور ٥٣ (٢٥) الأنفال ١

(٢٦) يونس ٥٣ . وراجع المطول ٢٢٤ وتقرير الامبابى ٩٧/٣ .

الدوام والثبات فى الأمر والنهى كقوله تعالى « يأيهـــا النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » (٢٧) وقال تعالى « يأيها الذين آمنـوا امنوا بالله ورسوله » (٢٨) والمعنى : داوم واثبت عـلى تقـوى الله تعالى وداوم على عدم الطاعة للكافرين والمنـــافقين ، وداوموا على الايمان بالله ورسوله وفيه حث والهاب على متابعة الحدث والاستمرار فيه نهجا واصلا .

وليست الصورة اللفظية أو الشكية فيصلا بين الخبر والانشاء والمهم المعنى فاذا كان الأسلوب خبرا فى اللفظ انشاء فى المعنى فهـو انشاء كالدعاء بصيغة الاستعاذة فى قول الله تعالى « رب أعوذ بك من همزات الشيطان وأعوذ بك رب أن يحضرون » (٢٩)

وقول الله : « قاتلهم الله أنى يؤفكون » (٣٠) وقال عن الوليد بن المغيرة «فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر» (٣١) والقتل اما بمعنى اللعن والطرد ، واما أنه تعبير جاء على النهج العـــربى عنـــد التعجيب والاستعظام يقولون « قتله الله ما أشجعه ، وقاتله ما أشعره » .

وليس تعجبا كما قال النيسابورى بل تعجيب من تقديره ، أو ثناء عليه بطريق الاستهزاء أو حكاية لما كرروه من قولهم قتل كيف قـدر والأولى أنه تعجيب من جراءته وتطاوله على البهتان وفيـــه شىء من السخرية والدلالة العربية لقولهم : قتله الله ما أشـجعه أنه بلـغ من الشجاعة مبلغا يدعو عليه حاسده (٣٢) .

---

(٢٧) الأحزاب ١ (٢٨) النساء ١٣٦
(٢٩) المؤمنون ٩٧ (٣٠) التوبة ٣٠
(٣١) المدثر ١٨ ــ ٢٤ .
(٣٢) راجع الغرائب للنيسابورى على الطبرى ٨٦/٢٨ وأبا السعود ٥٧/٩ ونظم الدرر ٢١/٢٩ .

وفى قولك غفر الله لك ، وأكرم فلانا ، وصلى الله على محمد ورضى عن صحابته دعاء صيغ على الخبر وكأنه أجيب وأنت تخبر عن وقوع الاجابة أمل نفسى ومطمع قلبى فى تحقيقه فكأن رغبتك تسبق دعـوتك وله فى القرآن نظائر كذكر القرآن لقوم نوح وتفصيل انتقامه فى سوره نوح سابقا ولاحقا لدعاء نوح عليه السلام على قومه « مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ... الآيات » (٣٣) فالاجابة سبقت الدعاء لأنها أقدار ماضية ، وأسباب ظاهرة ، وبخاصة بعد أن قدمت مظاهر اعراضهم وكفرهم وصدهم عن الدعوة قرونا متطـاولة مما يجعل الجزاء استحقاقا عادلا لا يتخلف . وقد قسم الانشـاء الى طلبى وهو ما يستدعى مطلوبا غير حادث وقت الطلب كالأمـر والنهى والتمنى والدعاء والنداء والاستفهام والى غير طلبى وهو ما لا يستدعى مطلوبا بل هو تصوير لذات المتكلم وما يدور فى أعماقه مما له عـلاقة بالموقف وبنظم الكلام كالقسم والمدح والذم والتعجب وصـيغ الرجاء والعقود .

---

(٣٣) نوح ٢٥ ـ ٢٨ .

أسـلوب الأمر

الأمر فى اللغة واحد الأوامر وهو فى عمومه بمعنى التقدم بالشىء سواء كان بصيغه المعروفة أم بالخبر كقوله تعالى : والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء — أم بالاشارة أم بغير ذلك — فقد سمى اسماعيل ما رآه أبوه ابراهيم عليهما السلام فى الرؤيا أمرا « يا أبت افعل ما تؤمر » وزاد الراغب أنه يقال للابداع أمر ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق كقوله تعالى « ألا له الخلق والأمر وقد حمل عليه « واوحى فى كل سماء أمرها » وقد يراد بالأمر المأمور به ايجادا وعدما من اطلاق المصدر على المفعول كقوله تعالى «وقضى الأمر» أى المأموربه وذكر أبو السعود فى تفسير الأمر هنا ما وعد الله تعالى نوحا من اهلاك قومه وانجائه بأهله فالأمر عنده بمعنى الشأن وقد غلبت الدلالة ان للأمر بمعنى الشأن واحد الأمور والأمر ضد النهى واحد الأوامر وزاد ابن فارس ثلاثة أصول أخرى عادة أمر : الأمر بمعنى المعلم من العلامة الامر بكسر الهمزة العجب ، والأمر بفتحتين البركة والنماء والواقع أن هذه الدلالة قليلة فى الاستعمال القرآنى والغالب الأوليان (١) .

وعند البلاغيين : طلب فعل طلبا جازما غير كف على جهة الاستعلاء ومعنى الاستعلاء عد الآمر نفسه عاليا سواء كان عاليا فى نفسه أم لا ويرى الرازى عدم التقييد بالاستعلاء واستدل بقول فرعون للملئه يشأن موسى عليه السلام « ماذا تأمرون » وأجيب بأن الأمر بمعنى المشورة والفعل هنا على أن فرعون كان مستعليا لهم .

---

(١) البقرة

(٢) راجع فى تحرير الدلالة مفردات الراغب ٢٥ ومعجم ألفاظ القرآن ٥١/١ ومقاييس اللغة ١٣٧/١ وأبى السعود ٢١١/٤ .

أما افادته الوجوب أو الفور أو التراخى أو التكرار أو الاستمرار فبمعونة القرائن • وقد كان هذا موضع خلاف بين الأصوليين (٣) •

وله أربع صيغ :

١ ــ فعل الأمر كقوله تعالى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة » (٤)

٢ ــ المضارع المجزوم بلام الأمر كقوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته » (٥)

٣ ــ اسم فعل الأمر ويسمى أمرا عند البلاغيين لا النحاة كقوله تعالى « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » (٦) •

٤ ــ المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى : « فضرب الرقاب » (٧)

المعانى البلاغية لصيغة الأمر

وصيغة الأمر قد تستعمل فى غير الطلب فتفيد معانى أخرى عديده تفاد من السياق وقرائن الكلام وفى القرآن الكريم تجد النظم كله بكلماته وايقاعاته يسهم فى تجلية المعنى وبعث الحياة فيه • وهذه المعانى قد أوصلها السبكى خمسة وعشرين (٨) ويمكن تداخل هذه الأقسام وننبه هنا أن النص على معنى بلاغى واحد فى الأسلوب ــ

---

(٣) راجع فى الاستعلاء وما بعدها عروس الأفراح ٢/٣١٠ والمحصول ق ٢ ج ١ ص ٤٥ ، ١٨٩ والابهاج فى شرح المنهاج ٢/٦ ، ٤٢ ، ٥١ ، والمغنى فى أصول الفقه ٣٨ والامبابى ٣/١٦٣ •

(٤) مريم ١٢ (٥) الطلاق ٧ (٦) المائدة ١٠٥

(٧) محمد عليه السلام ٤ •

(٨) عروس الأفراح ٢/٣١٢ ــ ٣٢٢ •

عند العلماء ــ لا يعنى أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته والا فان أى أسلوب انشائى سواء كان أمرا أم غيره يفيد مجموعة من المعانى المتقاربة المتداخلة يثيرها الأسلوب فى النفس المتلقية وهى معان تصورية أو نفسيه وعقلية ولهذا فقد نجد اختلافا فى تسمية هـــذا المعنى أو تعيينه بين العلماء لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة والآن الى ألوان من هذه المعانى :

١ ــ اثارة التأمل والاعتبار

كقوله تعالى : « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » (٩) والواقع أن للفعل نظر شأنا فى القرآن .

الفعل نظر : دلالة وموازنة .

والفعل جاء فى القرآن معدى بنفسه نحو : يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »(١٠) ومعدى بفى والى نحو قوله تعالى « واذا ما أنزلت سوره نظر بعضهم الى بعض » (١١) . وعن ابراهيم عليه السلام « فنظـــر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم » (١٢) قالوا نظر فى علم النجوم أو فى كتابها لشهرتهم فى ذلك وأوهمهم بأنه استدل بأمارة فيها على انه مشارف للسقم المعدى فهربوا منه وتركوه فى بيت الاصـــنام الى عيدهم (١٣) . كما جاء مضمنا معنى اللازم اقتصـــارا على الوصف والحدث كقوله تعالى فى الوليد « ثم نظر ثم عبس وبسر » (١٤)

---

(٩) الأنعام ٩٩ (١٠) النبأ ٤٠ (١١) التوبة ١٢٧.
(١٢) الصافات ٨٨ (١٣) وراجع البحر ٣٦٦/٧ .
(١٤) المدثر ٢١

أما دلالته :

فقد جاء بمعنى اثبات الباصرة فى الشىء وتامله معاينة تحقيقا لغرض ما كقوله تعالى : عن موسى عليه السلام « رب أرنى أنظر اليك » (١٥) وهو أصل المعنى لانه حسى وجاء قليلا فى القرآن الكريم وحتى فى هذا القليل قارنته معان عديدة : تأمل قول موسى : لم يجرؤ أن يطلب الرؤية الجليلة دفعة واحدة بل جاء بفعلين دلالتهما متقاربة فقال : أرنى ولم يقل ذاتك خوفا ورهبة فجعلها مطلقة ثم تدرج : انظر اليك فهو نظر يبتدىء من الأدنى الى الجليل الأعلى كما تدل الصياغة على هذا التوجس والقلق والخوف فلم يفصح بمطلوبه دفعة واحدة وهذه المعانى وغيرها ينشرها الفعل أرنى ــ أنظر وتوحى بها الصياغة.

كما جاء بمعنى العلم ومنه النظر المسند الى الله تعالى وهو معنى كنائى كقوله تعالى : « ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » (١٦)

كما جاء بمعنى الترقب والتوقع قال أحمد بن فارس فى تفسير هذه الدلالة فى نحو قوله تعالى : « غير ناظرين اناه » ونظرتك : كأنه ينظر الى الوقت الذى تأتى فيه . (١٧)

أما النظر بمعنى التدبر والتأمل والاعتبار فهو أكثرها ورودا فى القرآن وقد يكون مبنيا على تصويب المقلتين ورفع البصر . (١٨) وقد يخلص للاعتبار اذا منع من المعنى الحسى الأول مانع .

---

(١٥) الأعراف ١٤٣ .

(١٦) يونس ١٤ (١٧) المقاييس ٥/٤٤٤ .

(١٨) راجع المفردات للراغب ٤٩٧ .

ثم ان الأمر بالتدبر والتأمل قد يكـــون فى آيات الله المبثـوثة فى الكون من مشاهد الطبيعة وآيات الخالق والقدرة ما عظم منها وما دق اثارة لمعانى الجمال والجلال والانفعال بالآيات فى النفس البشرية لأن الله خلق للجمال حاسة وملكة فى النفس تنجذب للجميل فطرة ، وصمم الحواس على نحو تدرك به مظاهر الحسن وروح الجمال فى الجميل لا لأن الجمال تلاؤم وحسن تنسيق أو حرية الحركة كما يرى العقاد بل لأن للجميل روحا تهش اليها النفس ويميل اليها القلب على نحو ما فصل فلاسفة المسلمين كالغزالى وبعض الأدباء النقدة ذوى الحس المرهف كابن الأثير ثم توظيف هـــذا الانفعال بالجمـــال والجـــلال والابداع والتلاؤم المعجز مع ترقية الحس والملكات النفسية توصـــلا الى المؤثر المبدع الخالق ذى الجلال والاكرام وهذا يعد عند كثير من العلماء من دلائل توحيد الله حثا على تأمل حكمته وابداعه فى خلقها .

قال الله تعالى : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » (١٩) والخطاب للكافرين بعثا لهم على اعمال فكرهم المتعطل أن يفكروا فيما يحيط بهم وقيل ان الخطاب عام .

وقال تعالى : « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صـــبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخـــلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا » ٢١ ــ ٣٤ عبس .

والطعام بمعنى المطعوم والآيات تأمر الانسان أن ينظـــر ببصره وبصيرته فى صنائع الله له فى طعامه ويعدد النعم المتعلقة ببقائه والخيال يتابع هذه المشاهد الحركية والأحداث المتعاقبة من صب الماء وشـــق الأرض وانبات ما اختلف لونا وطعما ونفعا ومكـــانا وزمانا ونوعـــا

---

(١٩) يونس ١٠١ .

وفاكهة وغذاء ، أثار رحمته ومنته وقدرته لا يقدر عليها سواه ولـذا كثرت (نا) الدالة على العظمة والتفرد العالى بالابداع والانشاء (٢٠)

ومن سياق آيات فى سورة الروم « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هـم يستبشرون » ثم يقول القرآن « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » (٢١)

والآية الأولى تثير الانتباه وتشغل العقل عن هذه العملية الخارقة التى تتم فى طبقات الجو بعيدا عن متناول الانسان : مخلوقات مسخرة موجهة متفاعلة واعدة بيد القدرة ارسـال الرياح واثارة السـحاب وبسطه ثم تراكمه وتجاذبه وتلاقحه ثم يتحول ودقا غائثـا مبشرا والافعال مضارعة حالية مصورة اعانة على اطالة الصورة ودوران العقل والخيال حولها وبخاصة العقل العلمى الذى فى هذه التصويرات عونا على بحثه فى ظواهر الجو المثيرة .

ثم تكتفى الآية بالقول « فانظر الى آثار رحمة الله » ما ان ينزل الغيث حتى تنفض الأرض غطاءها الترابى ليتحـول زرعا وخضرة وأشجارا مما لعطائها نفاد والفعل أنظر فيه هذا الادلال بالنعمة والمـن بالعطاء والتنبيه على دوام الشـكر والتوجيه الى سعة رحمته وجليل قدرته ودائم نعمته . (٢٢)

وقريب من ذلك آية الأنعام وحولها يدنون العلماء ، قال تعـالى « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فاخرجنـا

---

(٢٠) راجع فى الآية البحر ٤٢٩/٨ ونظم الدرر للبقاعى ٢٦٤/٢١ .
(٢١) الآيات ٤٨ ـ ٥١ . (٢٢) راجع أبا اسعود ٦٥/٧ .

منه خضرا نخرج به حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيـــة وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٢٣) •

وهذه الآيات جاءت خاتمة خمس آيات شريفات تبصر بآثار القدرة والعلم والرحمة والاحسان للصانع المبدع سبحانه فى لوحات تطـوف بعالم الحب والنوى وتوالد الأحياء والاصباح والامساء والشـــمس والقمر والنجوم هاديات فى ظلمات البر والبحر وأحوال الانسان بين الصلب والترائب والمستقر والمستودع الأخير آيات ٩٥ ــ ٩٩ ثم آية الماء النازل من السماء تخرج به نبات كل شىء ألوانا وأفنانا متنـوعة الأنواع والألوان والطعوم والفوائد والآثار ، وقدم الزرع غذاء ، ثم تتسع الصورة للنخل سامقا برطبه غذاء وفاكهة ثم هاتيك الجنـــات المختلفات الألوان والعطاء المشبعة للعيون النهمة الى الجمال والأذان التى تشنفها فاتن الألحان ، ثم هذا الدائم الخضرة المتنوع الفـائدة الزيتون والرمان بعض أولئك متشابه هيئة ولونا وطعما ومقدارا وبعض غير متشابه وقد الح أبو حيـان الى شىء من أسرار الترتيب فى الآية وحسن مساقه فقد بدأ بالزرع حبا متراكبا قبل ذكر النخل تلاؤما مـع ابدء صدر الآيات « ان الله فالق الحب والنوى ثم رتب الانواع حسب الغذاء من زرع ونخل لأنه غذاء عند العرب ثم رتب بين الفاكهة حسب الأهمية •

والمهم أن هذه الأنواع متنقلة كمـا قال فى الكشـاف فى الألوان والمذاق والقبول من حال الى حال • وليس هذا دالا فحسـب عـلى وجود الصانع القادر الرحيم المنعم ــ كما قال الرازى ــ مما هو داخل

---

(٢٣) الآية ٩٩ •

تحت الاعتبار والاستبصار كما عبر فى البحر بل اشباعا كما قلت لما ركب الله فى الانسان من حاسة تميل الى الجميل فيما سخر له من الأكوان ولفتا الى تأمل هذه الظواهر الكونية والبحث عن أسرارها والاهتداء باشارات القرآن فى اقتبالها ومعرفة أسرارها اعانة على تحقيق الخلافه فى الأرض •

وفى قوله : « أنظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه » عند بدء الاثمار ثم عند تمامه وكماله ترقية ــ كما سبق ــ للاحاسيس العليا واعلاء لعاطفة الجمال والخير (٢٤) •

ولذا لم يقل « كلوا » كما قال فى الآية التالية التى نعقد بينهما هذه الموازنة • قال الله تعالى « وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » الانعام ١٤١ وتلحظ معى من الموازنة ما يلى :

١ ــ فى الآية الأولى أمر بالنظر فى الأحوال والاعتبار بالمتغيرات والاستدلال على وجود الصانع وما تحصل به من معرفة الخالق والسعادة الروحانية الأبدية وهذا مقدم على فكرة الانتفاع المادى فى الآية الثانية التى أخرها لذلك ــ ولذا قدم الزرع ــ والله أعلم ــ فى الآية الأولى لأنه سريع التغير والتحول تناسبا مع غرض الآية وقدم النخل فى الثانية لأنه جل اهتمام العرب فقد كان للنخلة أثر فى حياتهم وفى لغتهم أيضا وذكر الزرع مرتبة تالية للنخل وهو مناسب للانتفاع وصرف جزء للفقراء •

---

(٢٤) راجع فى الآية الكشاف ٢/ج٤ والرازى ١٣/١٠٥ ــ ١١١ والبحر ٤/١٩١ وأبا السعود ٣/١٦٧ والآلوسى ٨/٢٤٠ •

٢ ــ لما كان الاعتبار والتأمل مقصد الآية الأولى ذكر فعل النظر وعلقه بالثمر بدء الاثمار ونهايته لما يتوالى على الثمر من تغير فى اللون والرائحة والهيئة وكلمة : « ينعه » لها وقع نفسى جمالى خاص مناسب للفعل « أنظر » مرادا به عميق التأمل والتأثر أما الآية الثانية فجاءت فى سياق يبين ما أحل الله وما حرم من خير الأرض والأنعام وما هو مباح للانتفاع ووقته وحق الله تعالى للفقراء .

ولذلك : أتى بالفعل « كلوا » افادة لترجيح جانب الفعل وقيده ببدء الاثمار اباحة للمضطر وغيره أن ينتفع ــ بالمعروف ــ قبل اخراج الحق ، لأن رعاية النفس كما قالوا ــ مقدمة على رعاية الغير ثم ان الأصل فى الأشياء الاباحة ومن هنا قدم الفعل جاريا مجرى قوله « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (٢٥) وفيه الامتنان وطلب الشكر .

٣ ــ ثم ان اطالة الآية الأولى ملائمة لفكرة الاعتبار فقد اتسعت اللوحات أو المشاهد زمنا وأحداثا أو كثرة جزئيات وهى مشاهد متوالدة متداخلة يخرج من المنظر منظر آخر ، ومن هنا تكرر الفعل أخرج ، ونخرج : ثلاثا ، فالخضر يخرج من النبات والحب المتراكب يخرج من الزرع والخضر ، ومعنى التبديل والأخراج قائم فى القنوان الدانية فى النخل ، وهنا جنات على الاطلاق فهو مشهد عام واذا كان التعبير مشتبها أدل على التداخل وقرب الشبه بين الثمار وفى الآية الثانية : ذكر الجنات المعروشات وغير المعروشات دلالة على تدخل اليد الانسانية عناية واهتماما بالانتفاع وجاءت مادة الأكل مرتين : (مختلفا أكله ــ كلوا) والمشاهد قصيرة لهذه الغاية ، ثم انه لم يذكر : اليبنع أى

---

(٢٥) راجع فى الآيتين : الكشاف ٢/٤١ ، ٢/٥٦ ، والرازى ١٣/١٠٥ ، ١١٢ ، ١٣/٢١١ والبحر ٤/١٩١ وأبا السعود ٣/١٦٧ والآلوس ٨/٣٨ ، ٢٤٠ .

نهاية الانمار لأن اباحة الأكل وقت الأثمار منسحبة على ما بعده من أوقات ومنها حال النضج التام فهنا أمر تشريعى : الاباحة ــ واخراج الحق لذويه والنهى عن الاسراف والتحذير منه لأنها نعم يجب ان توضع موضعها •

بينما الآية الأولى : عقبت بما يدل على أثرها فى القلوب الصافية « ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » باسم الاشارة المفخم ، والجمع والتنكير المغنى عن الوصف أى آيات جليلات مؤثرات مع تكرار تأكيد هذه الحقيقة وهى آيات ينتفع بها المؤمنون •

وكلمة المؤمن بما فيها من رقة وشفافية وصفاء مناسبة لهذه المشاهد الجليلة الجميلة •

وعموما فالواضح من هذه الآيات الكونية وهى قل من كثر من آيات القرآن التى تعالج هذا الموضوع تمام التلاؤم ودقة التصوير والترتيب واختيار الكلمات الدالة وسلاسة الايقاع وبطؤه مع التقابلات العديدة وجمال التناسب المسمى بمراعاة النظير أو وحدة الرسم كما سماه سيد قطب رحمه الله وحسن توزيع الأجزاء فى اللوحة أو الرقعة مع التوجيه الى الأسرار والدقائق والأسباب وراء التغيرات مع هذا الروح الذى يسرى فى الأسلوب مما يحس ولا يوصف ويرسم كونا أعمق فى داخل الانسان بما يثير من تداعيات فكرية ووجدانية ويهز طاقات النفس من تذكر وتخيل وحس وعقل فليس هنا ترداد أو نقل لكتاب الكون المنظور بل أشمل من ذلك وأعمق وأكثر تأثيرا •

كما ننبه الى أن النظر جاء فى معرض الاستفهام كقوله تعالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن

---

(٢٦) راجع التصوير الفنى ٦٧ •

عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حـــديث بعده يؤمنـــون » ١٨٥ الاعراف .

وقال تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من الســماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باســـقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتة كذلك الخروج » ٦ — ١١ ق

وقال تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت » ١٧ — ٢٠ الغاشية .

وتلاحظ : توجيه الآيات الى الكافرين مع صرف الخطاب عنهـم اهانة ، والآيات مع ما فيها من الحث على التأمل والاعتبار فيها هـذا الانكار والتوبيخ والتعجيب على ترك التأمل فى الآيات التكوينيـة فى الآفاق والأنفس ، فاساليب الاستفهام تزيد هذه الأثارة وهذا الغضب المنكر ، والايقاع أشد من آيات الأمر وهو متفاوت فى شدته حسـب السياقات وأشدها آيات ق ، وقد جاءت « نا » التى للعظمة والجـلال ثمانى مرات مع الابداعات وصور الخلق بدءا بالســـماء الى مظـاهر الحياة بالماء على الأرض جلالا يسرى فى نسج العبارات وتأمل آيات الغاشية ففيها ما قدمناه من ظواهر بلاغية ومظاهر حسن وتزيد هـذا الشد الأسلوبى فى مقامات أشد قوة وأثر الاســـتفهام الانكارى فى الايقاع والصياغة .

---

(٢٧) راجع فى الآيات أبا السعود ٣/٢٩٩ ، والكشـاف ٤/٢٤٧ والبحر ٨/٤٦٣ وأبا الســعود ٩/١٥١ والتصـوير الفنى ١١٤ ، ١٢٣ .

ثانيا : كثرت الآيات الموجهة الى النظر فى آثار الماضين والاعتبار بما حل منهم بالمكذبين •

ولعل من أشد المشاهد أثرا فى النفس والحس تلك الرسوم الدوارس والربوع الخوالى وما تخيله للحس من صور الحياة الغابرة ومن أشباح الحياة الداثرة فهى مشاهد للعين ظاهرا وللنفس فى الضمير (٢٨) وأكثر ما يرتبط فعل النظر بفعل السير لترتبه عليه بل هو وحده الوسيلة الى النظر والاكتشاف لمجاهل التاريخ أو لما أعلمنا به القرآن اعتبارا بسنن الله فى الأولين وهو نوع من دلائل التوحيد ــ كما يقول الرازى ــ ممزوج بنوع من التخويف (٢٩) •

كما جاءت الصياغة بفعل الأمر أو بالاستفهام أو بهما معا متوالين حسب السياقات قال تعالى : ١٣٧ من سورة آل عمران وهى آية مجملة فصلتها آيات العقاب الأخرى « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وقال تعالى سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (٣٠) وقال تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » (٣١)

وقال تعالى : أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » (٣٣) وقد جاءت أساليب الاستفهام •

---

(٢٨) راجع التصوير الفنى ٧٠ •
(٢٩) تفسيره ١٣/٢٢ •
(٣٠) الأنعام ١١ (٣١) النمل ٦٩ •
(٣٢) محمد ١٠ (٣٣) غافر ٨٢ •

يتوالى الفعلين السير والنظر فى ست آيات وجاءت آية واحدة مدخول الاستفهام السير وحدة فى آية الحج ٤٦ « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » بعد الحديث عن أهلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين والكافرين بموسى « ثم أخذتهم فكيف كان نكير » ٤٢ ــ ٤٤ .

كما جاءت أساليب الأمر بتوالى الفعلين فى ست آيات أيضا وهذا من عجيب التلاؤم الاحصائى فى القرآن وعقبت الاثنتا عشر آية بالاستفهام بكيف عن عاقبتهم الا فى آية العنكبوت « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الأخره » ٢٠

وفى هذه الأساليب نجد الدعوة الى الضرب فى الأرض والنظر والاعتبار بأحوال الماضين والتفكر فى أسباب هلاكهم أو التأمل فيما صاروا اليه وصولا الى من بيده الخلق والأمر والاحياء والافناء ، وتضيف أساليب الاستفهام التوبيخ والتقرير والانكار لعدم السير والنظر وتعطيل العقول والقلوب لتعطل منافذ الادراك .

ثم التعجب المثير الذى تختم به الآيات بكيف .

كما أن العاقبة قد تكون عامة خصصت فى آيات أخرى ، أو خاصة تعود على ما فى النسق .

وقد جاءت آية واحدة بثم آية الانعام لبيان ما بينهما (السير والنظر) من التفاوت فى مراتب الوجود لبيان خطر النظر والتأمل وهو الهدف من السير فى الأرض ــ كما وضح أبو السعود (٣٤) .

---

(٣٤) تفسيره : ٣/١١٤ .

وثم آيات انفرد بها النظر على صيغة الأمر جاء بعده الاستفهام بكيف وهذا فى العقاب الخاص المثير تعجبيا من هول الانتقـام وعظم الذنب كقوله تعالى « وامطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبـة المجرمين : (٣٥) فى قوم لوط : والتنوين فى « مطرا » للتنويع أى نوعا من المطر عجيبا بين بالآية الأخرى « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل »

والمراد بالعاقبة هو انزال الحجارة ، وذكر الوصف « المجرمين » لما فيه من علة الحكم فهو جرم مخصوص وجزاء وزجر مخصوص .

وقال تعالى فى شأن ثمود وتآمرهم على قتل صالح عليه السلام « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبـة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » (٣٦)

فالفعل هنا مراد به التأمل والتعجيب من عاقبة مهولة لكفر فاجر ثم ان الخطاب عام لكل من يتأتى منه النظر وفكرة عموم الخطاب فى البلاغة العربية نابعة ودالة على خطورة الحدث وعمومه واشتهاره واثارته وغرابته سواء كانت أحداثا دنيوية فى الأسلوب القرآنى أم شـئونا أخروية . وقال تعالى بعد أن فصل أجزاء من قصة موسى مولدا ونشأة وزواجا فى مدين وبعثا ثم عنادا من فرعون وملئه ثم اغراقهم عقـابا «فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» (٣٧)

والآية مهولة بتراكيبها العنيفة وألفاظها الغاضبة المصـورة من الأخذ والنبذ فى اليم دلالة الاقتدار الظاهر ثم هوانهم عليه تعالى ثم اللازمة التى تكررت فى مقامات متشابهة وكانت بمعنى خاص وعاقبـة خاصة وقوم معينين بعيدا عن التكرار وانظر الفـارق فى الوصف بين

---

(٣٥) الأعراف ٨٤ وراجع الرازى ١٤/١٧٢ وأبا السعود ٣/٢٤٦ .
(٣٦) النمل ٥١ (٣٧) القصص ٤٠

اجرام قوم لوط وظلم فرعون وطغيانه تجد الدقة الملائمة لنوع الكفر واسلوب الجرم • (٣٨)

ثالثا : جاء الخطاب فى الفعل : انظر خاصا بالنبى صلى الله عليه وسلم تعجيبا له عيه السلام واثارة لتأمله من افعال المشركين المريبة واقوالهم الغريبة ثم تعجيب أكبر من اعجاز القرآن وتصريفه البيان الباهر والآيات المنزلة القاهرة الاعجاز •

ومع أن مادة التصريف فى القرآن من المثل والوعيد والقول «ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل » فى عشرة أساليب جاء اثنان منهما بفعل الأمر فى سورة الانعام ٤٦ ، ٦٥ من سياق قوى « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » •

وقد بدأت الآية بالاستفهام الالزامى تبكيتا ، وتهديدا والزاما بالحجة فان أخذ الله ما أعطاهم من حاسة السمع والبصر وطمس قلوبهم فهل ثم اله غير الله يرد عليهم ما أخذ منهم والاستفهام الثانى للنفى ولتعظيم شأن الله تعالى واثبات الوحدانية له ونفيها عما سواه • وهى حجة ملزمة مزلزلة فيها تهديد صعده الالتفات بالخطاب المهين المرعد ثم اتجه الخطاب نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه من تصريف البيان وقهر الحجة بالقرآن لهم التى تصدع الصخر ولكنهم عنها معرضون غير متأثرين وفى الآية الثانية : ٦٥ يزداد الاسلوب والتهديد هولا فبعد آيات يقول القرآن « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا

---

(٣٨) راجع فى حصر آيات المعجم المفهرس ٧٠٦ ومعجم الفاظ القرآن ٥٣٨/٢ وراجع ان شئت أبا السعود مثلا : ١١٤/٣ ، ١٣٤/٣ ، ٦٨/٣ ، ٢٠٤/٦ ، ١١٢/٥ ، ٥٢/٧ ، ٦٥ •

(٣٩) الأنعام ٤٦ ، ٦٥ •

من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » •

بهذا الأسلوب الخبرى الذى يجعل العذاب معلقا بالقدرة والارادة متوقفا على الاذن رصدا ينصب عليهم من فوقهم عذابا أو ينهد من تحت أقدامهم من حيث لا يحتسبون أو يوقع العذاب بينهم دمارا وقتالا ذلك لأن الكون بيده والقلوب بين اصابعه ، انهم عرب تنزل عليهم الآيات تستغرق النفوس هولا ، والتعجيب هنا كما فى الآية السابقة من تصريف الآيات التى جاءت على طريق الالتفات بيانا لجلالها واقتدارها ثم يختم الآية ذاما لهم بعدم الفقه مرجوا منهم ذلك أو ليفقهوا ذلك • ولذا فان هذا التصريف للآيات سبب حامل على التدبر والفقه أو لمن عنده استعداد لذلك قال الرازى أما من أعرض فلا يصرف الله لهم هذه الآيات (٤٠) ولعله يعنى أن الصادف المعرض لا يفيد منها وان كان التصريف له ولغيره كما فى قوله تعالى « انما أنت منذر من يخشاها » لأنه المنتفع وحده مع أن انذاره عام •

ولما كان الحديث مع كفار العرب وهم أعرف البشر بمواقع الألفاظ وأنواع المعانى وباهر النظم القرآنى واعجازه الفذ كان التعبير بالفعل « نصرف » من تنويع الاساليب والافتنان فى التراكيب وايراد ألوان من المعانى القدسية قادرة قاهرة وهذا معنى تصريف الآيات والقول • لكن لما جاء الحديث عن عيسى وأمه عليهما السلام وأتى بأدلة دامغة على بشريته ختمها بقوله : « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقه كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » (٤١) •

---

(٤٠) التفسير الكبير ٢٣/١٣ وراجع أبا السعود ١٣٤/٣ •
(٤١) المائدة ٧٥ •

وهذا الحديث مع أهل الكتاب من سياقات عنيفة تبطل الزعم بأن الله ثالث ثلاثة .

وقد نصب الأدلة على بشريته بالولادة أو التوالد دلالة العجز والحدوث ثم الموت دلالة أنه بشر مقهور جاء من عدم وانتهى الى غناء ثم أكل الطعام كناية رائعة عن الحاجة والنقص والعوز والضعف مدة الحياة والارتزاق واحتراسا حتى لا يتوهم أبله أن يعنى الذم وصفة بالرسالة ووصف أمه البتول بأنها صديقه أقول لما كانت هذه الأدلة العقلية النفسية التى لا ترد مع أهل الكتاب وكانت حقا واقعا والجدال معهم باق الى يوم الدين بالحجة والبرهان الدامغ لم يأت بالفعل : « يصرف » اذا ليس لهم فطرة العربى فى مكة بل أتى بالفعل يبين »

اذ هو الملائم لايضاح الحجة ؛ ولأنها مفحمة ملزمة تأخذ بالخناق والانفاس أبدا كرر الفعل « انظر تعجيبا من تبيين الآيات أولا ثم تعجيبا من اعراضهم المهزوم مع الاستفهام « أنى » مبالغة فى التعجيب مع عدم الموانع ، والتعجيب الأول من بيان الحجة لا من حال الذين يدعون الربوبية كما قال أبو السعود وان كان الأسلوب يشير اليه وثم لبيان التفاوت بين الأمرين . (٤٢)

---

(٤٢) تفسيره : ٣/٦٨ .

قضية التأمل والاعتبار فى القرآن

والواقع أن فكرة الاعتبار واثارة التأمل أصيلة أساسية فى الاسلوب القرآنى أداء ومنهجا واذا جاءت على مناهج عديدة من القرآن وغلبت فى مواد قرآنية •

ونكتفى هنا بازجاء شواهد دون استقصاء من ذلك (٤٣) :

العبرة كقوله تعالى : « وان لكم فى الأنعام لعبرة » بالأسلوب الخبرى •

الفعل : اعتبر : كقوله عن اليهود : « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار » والفعل هنا أمر اتحدت دلالته ومعناه البلاغى تركيزا فى الدعوة الى الاعتبار والاتعاظ من موقف أعداء الله ورسوله من اليهود وانقلاب كيدهم عليهم •

ـ الفعل تدبر مدخولا للاستفهام خاصا بالقرآن نحو أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ـ والفعل : تفكر : خبرا واستفهاما : نحو • « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » « قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » •

ـ لفظ آية وآيات افرادا وجمعا تعقيبا على آيات كونية فى الطبيعة ومظاهرها والكون ومشاهده وما خلق الله من أجناس وأنواع وما أبدعه من آيات أثرا لصفات القدرة والخلق والعلم والحكمة وهى

---

(٤٣) ان أردت الاستقصاء فراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومفردات الراغب وتحفه الأريب لأبى حيان الأندلسى •

مبثوثة فى الكون محيطة بالانسان كما أنها مبثوثة فى القرآن تصافح عينيك دائما ، كقوله تعالى « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » « وجعلنا آية النهار مبصرة » .

كما جاءت الآيات خاصة بالآيات المنزلة من القرآن موجهة اليها الانظار والعقول كقوله تعالى من آيات الانعام « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » أو موجهة الى الاعتبار من غضب الله وانتقامه لهذه الأية المعقبة على جزاءات المكذبين لرسلهم فى سورة الشعراء : « ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » .

كما جاء لفظة موعظة فى بعض أساليبها تفيد ذلك كقوله تعالى « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » .

كما جاءت الأساليب بين الخبر والاستفهام والأمر على أنحاء مختلفة وكل أولئك شحذ للعقول والهاب للقلوب لتصل من الدليل الى المؤثر الواحد فهى دلائل توحيد ومنابع علم وكنوز عطاء للخير والجمال .

ومرتاض حسن للحس والخيال وسدة نور الصفاء والجلال تقرب من ذى الجلال والاكرام .

٢ ــ الاباحة ويرتبط بها غالبا : الامتنان والحث على الشكر قولا وعلا للمنعم الوهاب . وقد سبق فى آية الانعام « كلوا من ثمره اذا أثمر » .

والواقع أن لهذا الفعل فى صيغة الأمر أكثر من معنى بلاغى اساسى ، حسب المقام والخطاب والزمان والمكان .

١ ـ للاباحة والرضاء والمن كخطاب الله لآدم وحواء فى الجنة « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة » (٢) .. وحيث للمكان المبهم أى من أى مكان فى الجنة الواسعة ، فمع الاباحة التكريم والرضا ، ومع أن الاباحة والحظر متقابلين ؛ كما يقول الأصوليون (٣) تسبق الاباحة بالحظر غالبا أو تقابله . وعلماء المعانى لا يعنون بذلك .

والفعل « كلوا » جاء لبنى اسرائيل : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم » (٤) وخطابا للرسل « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٥) .

وهذه الأية مظهر من ظاهرة الايجاز القرآنى المثير حين يجمع المنادى فى صياغة واحدة مع اختلاف أفراده زمانا ومكانا وذاتا وصفة وذلك لوحدة الفاعل والقول أو المفعول ووحدة الصفة فى المخاطبين أعنى الرسل » ومن هذه الظاهرة :

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » (٦) وقوله تعالى :

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى » (٧)

وخطاب يهود المدينة « فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » (٨)

والمهم أن هذا جدير بالتأمل والبحث .

وآية الرسل : جاءت اثر قصة ايواء عيسى عليه السلام وأمه الى « ربوة ذات قرار ومعين » ايذانا بأن اباحة الطيبات شرع قديم ،

---

(٢) البقرة ٣٥
(٣) راجع الرازى ٣/٥
(٤) البقرة ٥٧
(٥) المؤمنون ٥١
(٦) البقرة ١٣٥
(٧) البقرة ١١١
(٨) البقرة ٩١ .

وتعريضا ببطلان ما عليه الرهابنية من رفض الطيبات وقد روى الطبرى أن ذلك الخطاب لعيسى عليه السلام تكريما وهو (كلوا) .

وروى عن الحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم أنه خطاب للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بخطاب الجمع ابانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم فالأمر (كلوا) للترقية .

كما يقول أبو السعود والرأى الأول قريب ، يدعمه حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « ان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يأيها الرسل كلوا من الطيبات .. الحديث (٩) . وقال تعالى مخاطبا المؤمنين « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١٠) بيانا للحلال المباح وحثا على الانتفاع به وشكرا لأنعم الله وانطلاقا للعبادة وتحقيق الخلافة ونبه بالأكل على الانتفاع لأنه أعظمها اذ تقوم به البنية على الانتفاع » (١١) .

ثم قد جاء الأمر بالفعل موجها للأمة المحمدية خاصا بحال معينة توهم فيها المؤمنون تحريم الأكل بذاته أو مطلق الانتفاع كما فى الصيام والحج والزكاة وغنيمة القتال أو ما بين الزوجين كقوله تعالى :

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (١٢) روى أنهم كانوا اذا صلوا العشاء الأخيرة أو رقدوا حرم عليهم الطعام .

وقال تعالى : « كلوا مما غنمتم حلالا طيبا » روى أنهم أمسكوا عن الغنائم فنزلت . (١٣)

---

(٩) راجع الطبرى ٢٢/١٨ والرازى ١٠٤/٢٣ وأبا السعود ١٣٨/٦

(١٠) البقرة ١٧٢ .

(١١) راجع البحر المحيط ٤٨٤/١ .

(١٢) البقرة ١٨٧

(١٣) راجع أبا السعود ٢٠١/١ .

وقال تعالى . كلوا واشربوا ولا تسرفوا • قال « فكلوا منهـــا وأطعموا البائس الفقير » (١٤) فقد كان أهل الجاهلية اذا حجوا يأكلون قوتا لا دسما فهم المسلمون بمثله فنزلت كما كان العرب يتحرجون من الأكل من الهدى فأباح الله للمسلمين ذلك • (١٥)

وقال تعالى « فكلوا مما ذكـــر اسم الله عليـــه ان كنتم بآياته مؤمنين » (١٦) وهو تشريع الزكاة ورد على المشركين حين يأكلون الميتة قائلين انها أحق بالأكل لأن ما قتل الله أحق مما قتلتموه » ١٠

وفى ذلك وما يشابهه نجد مع الاباحة : التيسير والمن والتكـريم والرحمة والحث على اخلاص العمل شكرا للمنعم • (١٧)

٢ ــ جاء الأمر الهاما وتسخيرا ورحمة سارية وخلقا جليلا مدبرا فى قول الله تعالى للنحل « ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا » (١٨) •

ومن نسمات الرأفة وحفيف الاحسان قوله تعالى لمريم البتول فى موقف رهيب حزين حاد الاثارة وهى تلد المعجزة «فكلى واشربى وقرى عينا » (١٩) وهى على عين الرحمن حفظا ورعاية وعناية وهذه السورة المباركة من السور التى كثر فيها ذكر الاسم الجليـــل الرحمـــن

٢ ــ جاء الخطاب للمؤمنين المنعمين فى الجنة تكريما ورضـــا واحسانا وفضلا وهو تكريم قولى ومجازاة رحيمة كقوله تعالى :

---

(١٤) الحج ٢٨
(١٥) راجع الرازى ٢٣/٢٩ ، ٣٦ أبا السعود ٦/١٠٤ •
(١٦) الأنعام ١١٨ •
(١٧) ا.. أبا السعود ٣/١٧٩ والاتقان ٢/٨٢ •
(١٨) النحل ٦٩ (١٩) مريم ٢٦ •

« كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخاليـــة » الحـاقة ٢٤
« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » (٢٠) •

وليس الأمر اباحة (٢١) كما يرى بعضهم لأن الجنة دار تكريم لا تكليف ولذا لم يذكر : الاسراف فى الدنيا • وذكر : « هنيئا » كلمة وردية يسرى فيها الود الحبيب لمن عانوا الحيـــاة شـوقا طائرا الى الحسنى والرضـوان •

٤ ــ جاء فى القرآن خطاب تهـكم واهانة وتوبيخ وزجر قـوله تعالى للكافرين « كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون » (٢٢) والغريب أن الخطاب فى الدنيا يصفهم بما اتصفوا به لزوما ، والجملة التعليلية : انكم مجرمون : سبب للأمر والحدث فيهم لا دين لهم ولا آخـرة ولا عقيدة فهم يقبلون على الطعام متعة وتلذذا وانطلاقا لمتعة طريفـــة ولذة جديدة فهم فى دائرة دائمة من الأكل والمتعة والتـــوله البهيمى كناية عن شغف وفناء فى الشهوة والدنيا كما عبـــرت الآية « والذين كفـروا يتمتعـون ويأكلـون كمـا تأمل الأنعام والنـار مثوى لهم » وقوله : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » (٢٣) وهو هـذا : الأمل اللاهى يسرق منهم الحياة وهم فى اغماءة الشهوة الجديدة •

قال الرازى فى الآية الأولى « وهذا وان كان فى اللفظ أمرا الا أنه فى المعنى نهى بليغ وزجر عظيم ومنع فى غاية المبالغة » (٢٤) ولا محل ــ فى الآية ــ لما أحسه • اذ الآية على الأمر تهديدا رهيبـــا واهانة

---

(٢٠) الطور ١٩ •
(٢١) راجع الرازى ٣٠/١١٢ (٢٢) المرسلات ٤٦
(٢٣) الحجر ٣ (٢٤) التفسير الكبير ٣٠/٢٨٣ •

مبكته وهى قريبة المعنى من الآية « قل تمتعـــوا فان مصيركم الى النار » (٢٥) وقوله تعالى « قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصـحاب النار » (٢٦) والمثير فى دلالة التمتع على صيغة الأمر انهـــا جاءت فى سبع آيات فى خطابات شديدة متوعدة فى اهانة وتبكيت « على السـنة الرسل « وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » (٢٧) وعن ثمـود أيضا « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » (٢٨) وعن مشركى العرب « كلوا وتمتعوا قليلا » (٢٩) كمـــا جاءت آية ثامنـة : بدأت بالفعل : ذر : بمعنى دع واترك : وهذا الفعل فى الدلالة القرآنيـــة كأنه خاص بالعقاب والتهديد كقوله : «ذرنى ومن خلقت وحيدا» (٣٠) « لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (٣١) للخفـة فى نطقـــه وانزلاق اللسان بحروفه والسرعة المناسبة للانتقام الهائل •

أما الفعل تمتع فى صيغة المـاضى الخبرى أو المضـــارع فهـو وسيع الدلالة أعنى منوع الدلالة • تشريعا وترغيبا وترهيبا (٣٢) •

ـــ التعجيز : حين يقتضى الأمر فعل ما ليس فى طاقة المخـاطب ليظهر عجزه ، فالعلاقة بين الأمر والتعجيز شبه التضاد لأن الأول كما يقول اليعقوبى فى الممكنات والثانى فى المستحيلات (٣٣) •

---

(٢٥) ابراهيم ٣٠ (٢٦) الزمر ٨
(٢٧) الذاريات ٤٣ (٢٨) هود ٦٥
(٢٩) المرسلات ٤٦ •
راجع المعجم المفهرس ٦٥٨ •
راجع مواهب الفتاح ٢/٣١٥ •
(٣٠) المدثر ١١ (٣١) نوح ٢٦
(٣٢) راجع المعجم المفهرس ٦٥٨
(٣٣) مواهب الفتاح ٢/٣١٥

ومن أشهر أساليب التعجيز آيات التعجيز أو المعاجزة والتحدى العرب ــ وهم أولو البلاغة والبيان أن يأتوا بمثل القرآن فى بيانه و بمثل عشر سور أو سورة واحدة (٣٤) •

والارجح أن التحدى والأعجاز معا قائمان للعرب ومن سواهم بالتعلم الى يوم الدين (٣٥) •

قال تعالى : من سورة الاسراء : قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٣٦) وقال تعالى : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما » (٣٧) وهذا تحد بالقرآن جملة وقال تعالى « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (٣٨) وهى الآية الوحيدة التى ذكر فيها الوصف (مفتريات) لأنهم تعللوا بأنهم كيف يأتون بمعان مثل معانى القرآن، فأعفاهم من ذلك وقرب لهم الغاية بأن يأتوا بمثل نظمه وسبكه وألفاظه ، كما جاءت آخر آية من آيات التحدى فى سورة البقرة المدنية تحديا لكافرى المدينة ومن سواهم وكأنه اشارة الى قيام التحدى والاعجاز ما كان انسان وهو تحد بأن يأتوا بمثل سورة واحدة والآية الكريمة « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣٩) •

وتلحظ من هذه الآيات ما يلى :

---

(٣٤) راجع الاعجاز البيانى ٥٢ وما بعدها •

(٣٥) راجع النبأ العظيم ٨٥ • (٣٦) الاسراء ٨٨

(٣٧) القصص ٤٩ (٣٨) هود ١٣ (٣٩) ٢٣ ، ٢٤

١ ــ قضى عنيهم بالعجز المطلق أول آية وآخر آية وصفا لحقيقة ظاهرة حتى لو فرض أن ظاهرهم الثقلان أو تظاهروا وتعاضدوا على المعارضة فمآلهم الاخفاق ، والحكم مؤكدا بالقسم وفى آخر آية نفى قاطع « لن تفعلوا » •

٢ ــ آية الطور فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين جاءت فى سياق غاضب توالت فيه أساليب الانشاء مع شدة الايجاز اكتفاء بباقى آيات التحدى المبسوطة قليلا تدعوهم الى الاستعانة بمن شاءوا من الخلق واللازمة الفاذة « وادعوا من استطعتم من دون الله ــ شهداءكم من دون الله ــ ومع ذلك كان التحدى آخرا بسورة واحدة وهو نهاية فى الاعذار والتحدى والتبكيت والتخجيل (٤٠) ومن مثله أى فى حسن النظم وغرابة الأسلوب والمعانى •

٣ ــ الخطاب لهم جميعا أن يستظهروا بجموع أخرى دعوة الى الاستظهار واستثارة لجموعهم أو جمعيتهم وهذا أدعى للاحتشاد •

٤ ــ فعل التعجيز جاء بالأمر (ائتوا) بمعنى جيئوا وهو اشارة الى تنزل القرآن من عند الله وأنه فى تنزيله يسير كما أنه يشير الى خاصية بشرية مقابلة وهو أن بليغ الكلام البشرى يأتى به الفطرة سهوا رهوا ثم لما نفى أتى بفعل آخر غير الاتيان « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا » فأتى بان دون اذا قالوا لسوق الكلام معهم حسب حسبانهم فهم ما كانوا يعتقدون عجزهم عن المعارضة لاقتدارهم البلاغى ، والأولى أنه تهكم بهم كما يقول الواثق من نفسه بالغلبة لمن يقاوله : ان غلبتك وهو يعلم أنه غالبه تهكما به كما رأى

---

(٤٠) راجع الأمالى الشجرية ١/ ٢٧٠ والرازى ٢/ ١١٧ والبحر ٤/ ١٠٤.

الرازى (٤١) وقد نحس فيها مع التهكم الاستدراج والمد لهم ليكون النفى القاطع صدمة محقرة ولطمة قاسية •

ولم لا نذكر مع هذه اللفته المعنوية هذا الايقاع التجانسى السهل بين الجملة الأولى والثانية وان لادغام النون مع اللام وارتفاع اللسان بهما مرة تناسبا صوتيا مع باقى الجملة أما اذا ففيها أولا نشـــاز ايقاعى يطول فى غير مكانه وصوت الذال غير ملائم أيضـــا ، وقال : لن تفعلوا ولم يقل فان لم تأتوا قال فى الكشاف لأنه أوجز وهو كناية عنه ورده أبو حيان لأن « تأتوا » أوجز وليس «تفعلوا» وتفرد أبو السعود بسر اختيار تفعلوا وهو الايذان المقصـــود هو ايقاع نفس الفعـــل المـــأمور به لاظهار عجزهم لا بتحصيل المفعول لاستحالته اذ مدلول الفعل هو نفس الفعل «من غير اعتبار تعلقاتها بمفعولاتها الخاصة» (٤٢) وأبو السعود رحمه الله قلب فكرة الفعل العام والفعل الخاص كثيرا وأدارها أو حل بها مشكلات أسلوبية عدة ويمكن أن نعيـــد صـــياغة ما قال هنا وأن نضيف اليه فنفى الفعل على عمومه واطلاقه انما هـــو نفى لأسبابه ومقدماته ووسائله وغاياته على سبيل الكناية الدالة ، اذ نفى العام دليل على نفى الخاص من باب أولى • بينما نفى الاتيـــان خاص لا يلزم منه نفى المقدمات النفسية والعقلية وغيرها كالوســـائل والاستعداد وهو لم يحدث •

فقد حكم عليهم بالعجز بلن للتوكيد والتشديد امعانا فى التحـــدى والتجهيل وتوعدهم بالنار : تهويلا وايجازا أى دعوا العناد والكفـــر المؤدى الى النار ثم هى نار مخصـــوصة التى « وقودها النـــاس

---

(٤١) تفسيره ١٢١/٢ •

(٤٢) راجع الكشـــاف ٢٥٢/١ والرازى ١٢٢/٢ والبحر ١٠٧/١ وأبا السعود ٦٧/١ •

والحجارة » وهذه الحجارة قال بعضهم انها الأصنام التى نحتوها من الحجارة وقرنوا بها فى الدنيا كقوله تعالى « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » •

وهو ترجيح الكشاف وسار عليه المفسرون ورد القول الذى فسر الحجارة بأنها من كبريت وقال انها تخصيص من غير مخصص وهـذا الذى رده أسنده الطبرى (٤٣) الى ابن مسعود بأكثر من طـريق وابن عباس وناس من الصحابة رضى الله عنهم واقتصر عليه ابن جرير الطبرى وانك لتحس مدى الاهانة والتحقير والوعيـد اللاهب أولا لقرنهم بالحجارة وكيفما ذكرت الحجارة فى القرآن • وقد ذكرت عشر مرات • فالظاهر التبكيت وفى كثير منها التهديد (٤٤) وفى الآية هنا : الناس هم الكافرون حقا فهم الوقود والموقد عليه فهو تعـذيب ذاتى بشع لا يتحمله الخيال تصورا ونعوذ بالله تعالى من العذاب •

ومن هذا التعجيز الذى ينبض به الأسلوب مع التكذيب والتعجيب قوله تعالى عن المنافقين « الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعـونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ، ان كنتم صـادقين » (٤٥) فالمنافقون يتخلفون عن الجهاد ، ويبثون الوهن فى الصـفوف ، بأن الخروج الى الجهاد باب من أبواب القتل وقصف الأعمـار ، دون أن يدركوا الحقيقة الكبرى وهى ان للأعمار آجالا مكتوبة ، فيتحـداهم القرآن أن يدفعوا الموت حين تحين ساعته وللفعل «درأ» دلالة خاصة

---

(٤٣) راجع الطبرى ١٣١/١ •
(٤٤) المعجم المفرس ١٩٤ •
(٤٥) آل عمران ١٦٨ •

مقصودة لا يغنى عنها العقل دفع ذلك بأن الدرء فيـــه تطلب حيلة ودهاء لدفع الحدث ثم استعمال القوة حين وقوعه يقـــال فـــلان ذو تدرىء أى قوى على دفع أعدائه (٤٦) • والمهم ان اصطناع الحيـــلة أو عدمها فى دفع أسباب الموت سواء (٤٧) •

التـــكذيب :

وقد كان التكذيب والتحدى من الدلالات التى صورها فعل الأمر للواحد والاثنين والجمع من «أتى» •

قال تعالى « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حـــــرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها أن كنتم صادقين » (٤٨) وقد ادعى اليهود أن الطعام كان كله حلالا فحرم يعقوب بعضه ــ على نفسه ــ زهدا دون أمر الله ، فتحـــداهم بالتوراة بين أيديهم تكذيبا لهم واضحا ، وتوبيخا ملموسا اذ فيهـــا ما حرم الله عليهم دون يعقوب (٤٩) •

ومن هذا التكذيب المنبىء عن سخط عظيم وانكار فظيع واستبعاد شديد ما جاء فى سورة الصافات فى تبكيت قريش على زائغ اعتقادهم أن الملائكة بنات الله تقليدا لبعض القبائل كخزاعة وجهينه وبنى ســـلمة وبنى مليح ومن السياق الراعد « أأصطفى البنات على البنين ما لـــكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين » (٥٠) •

---

(٤٦) راجع الراغب ١٦٩ (٤٧) أبو السعود ١١١/٢
(٤٨) آل عمران ٩٣
(٤٩) راجع روح المعانى للألوسى ١٩٣/١ •
(٥٠) الصافات ١٥٣ ــ ١٥٨ •

يتوالى الاستفهامات الغائظة الغاضبة وفى قوله « أم لكم سلطان مبين » انتقال تبكيتى الى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلا يعنى ، بل ألكم حجة واضحة نازلة من السماء ، ضرورة أن الحكم بأن الملائكة بنات لا بد له من سند حسى أو عقلى واذا انتفى فلا بد من سند نقلى تمثل ذلك فى قوله « فأتوا بكتابكم » وليس لهم كتـــاب يأتون به فهو تجهيل لهم وتسفيه لآرائهم وتعجيب من جهلهم استهزاء بهم مع تعجيز أن يأتوا بسند لا يملكونه (٥١) .

كما جاء هذا الفعل صيحة حمقاء على ألسنة المكذبين تحديا أخرق لرسلهم وتعجيزا واهما نسجته خيالاتهم الآفنه ووساوسهم الهاجسة كقولهم لنبى الرحمة ــ صلى الله عليه وسلم ــ » وقال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقـاء نفسى ان أتبع إلا ما يوحى الى » (٥٢) وهو قول هاذر اذ يوهمـــون أن مصدر القرآن بشرى كيدا ومخرقة ، ويريدون قـرآنا آخـر ، له مقاييس ملائمة لعقولهم .

كما استعجلوا العذاب استهزاء « ان كان هذا هو الحـــق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٥٣) .

كما جاء على لسان فرعون يتحـدى موسى « ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين » (٥٤) وقال المكذبون لنوح ائتنا بمـا تعدنا ان كنت من الصادقين » (٥٥) .

وتكرر هذا التعبير على ألسنتهم لهود وصالح : اســـتعجالا

---

(٥١) راجع الكشاف ٣/٣٥٥ .
(٥٢) يونس ١٥ (٥٣) الأنفال ٣٢
(٥٤) الأعراف ١٠٦ (٥٥) الأعراف ٧٠

للعـــذاب : وقال قـــوم لوط « ائتنـــا بعـــــذاب الله ان كنت من الصادقين » (٥٦) وغير ذلك من هذا التحدى الساخر والتعجيز الواهم والاستعلاء الكاذب ، والانكار المستريب •

ولعلك لاحظت أن ما جاء من الأساليب تعجيزا أو تحديا وتكذيبا على ألسنة الرسل كانت أقوى تركيبا وأشد وقعا وأكثر تأثيرا وتركيزا وتلهيا وغضبا كما تلحظ أن نهاياتها جاءت بغاء الفضـــيحة « فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (٥٧) « فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين » (٥٨) وهذا من أساليب الاحتباك التى توالى فيها أسلوبا شرط مكررين وحذف فعل الشرط من الأول وجواب ه من الثانى شدة سبك وتركيز واشعاع بالمعانى وزادت أساليب التعجيز بمعارضة القرآن ذكر الشرط وأداته فى الجملة الأولى مع الجواب وحذف الشرط الثانى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بســورة من مثه وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » اظهارا واثقـــا وبسطا مقتدرا لاعجاز القرآن الكريم وعجزهم •

وقريب من معنى الفعل «هلم» وقد جاءت دالة على التـــكذيب والتحدى للمشركين فى تحريهم على أنفسهم أنواعا من الذبائح مدعين أن الله حرمها فى قول الله تعالى « قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم » (٥٩) فهو ابطال لاحتجاجهم كأنه قال : احضروا كبراءكم ومن يشهد لكم توبيخا وتفضيحا •

---

(٥٦) العنكبوت ٢٩ (٥٧) آل عمران ٩٣

(٥٨) آل عمران ١٦٨

(٥٩) الأنعام ١٥٠ وراجع الألوس ٨/٥٢ •

الاهـــــانة :

ومنه الاهانة حين لا يعتد بشـــأن المـأمور وهو كثير متنـوع الأساليب فى القرآن ، والاهانة يلزمها غالبا : التهكم والسخرية وقـد تكون لونا من ألوان التعذيب يوم القيامة كقول الله تعـــالى فى الأثيم « خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم • ثم صبوا فوق رأسه من عـذاب الحميم ذق انك العزيز الكريم » (٦٠) والفعل ذق وذوقوا عـــذاب الحريق جاء فى أساليب نارية متوهجة ــ ان صح تعبيرنا ــ وتأمل ايحاءات الألفاظ الرهيبة : خذوه ــ اعتلوه ــ والعتل : الأخذ بمجامع الثـوب سحبا مهينا (٦١) ، وايقافه وسط الجحيم أو بؤرتها ، وصب العـذاب على رأسه تعميما لجسمه وتعذيبه بالتهكم ذق : والذوق لا يكـون الا لمطعوم يساغ ثم : انك أنت العزيز الكريم بأسلوب القصر وضـــمير الفصل وهو قصر صورى يقال لمن هو فى دركات العذاب لتكمل السخرية والتحقير وتصل قمتها وتلحظ أن هـذا أسلوب جاء على ألسنة الزبانية المخلوقين ، أما الأوامر السابقة : خذوه ••• فيها من القوة والسطوة والغضب ما لا يوصف والجمل تصدع الحس بما لا يحتمله الخيال •

ومنه قول الجبار : « انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليـل ولا يغنى من اللهب » (٦٢) •

والجسم المثلث لا يكون له ظل بل فيه وقدة النـار واجتمـــاع الهول وهم منطلقون هربا من النار الى وطيسها والظل ثابت تهـــكما

---

(٦٠) الدخان ٤٧ ــ ٥٠ •

(٦١) راجع الكشاف ٣/٥٠٦ •

(٦٢) ولما كان نفى لكثرة أو غزارة الظل لا ينفى القلة أتى بالجملة « ولا يغنى من اللهب » نفيا عاما لكل غنـــاء وراجع نظم الدرر ٢١/١٧٨ •

ومنفى واقعا وكيف يغنى من اللهب وهو بشعبه الثلاث ألسنة عـذاب رعيب وتوالى اللامات وعمق الايقاع وجزالة الأسلوب صورت هـول العذاب • ورهبة الوعيد وسطوة لقهر وجلال الأنتقام (٦٣) •

ومن أساليب الاهانة عند الامام القزوينى رحمه الله قوله تعالى: « قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » (٦٤) •

فقوله : كونوا حجارة اهانة لهم اذ يسلبهم كل ما للانسـان من خصائص وتابعه العلوى وقد خالف بهذا الفهم جمعا من المفسرين الذين تبعوا الامام الطبرى فى أن الأمر هنا للتقدير أى قدروا أنتكونوا ما شئتم حجارة أو حديدا أو ما يكبر فى صدوركم وهو الموت ذاته فالله قادر على بعثكم : وتأويل ما يكبر بالموت مروى عن ابن عبـاس رضى الله عنهمـا •

قال بعض العلماء وهو تفسير يحتاج الى تفسير ولذا قال الرازى وتبعه أبو السعود : افرضوا شيئا آخر أبعد عن قبول الحجر والحديد تستبعد عقولكم كونه قابلا للحياة (٦٥) •

لكن نحس كما أحس القزوينى أن قرنهم بالحجارة أو تحـولهم اليها تقديرا لون من الاهانة قد أومأنا اليه فى هذه التعبيرات القرآنية•

---

(٦٣) المرسلات ٣٠ ـ ٣٣ •

(٦٤) الاسراء ٥٠ •

(٦٥)راجع فى الآية : الطبرى ٦٨/١٥ والكشـاف ٤٥٢/٢ والبحر ٤٦/٦ والرازى ٢٢٦/٢٠ والطراز ٢٨٣/٣ وأبا السـعود ١٧٧/٥ وبنية الايضاح ٤/٢ ٠٥

التســـخير والتـــكال :

وهو أخص من الاهانة اذ فيه يحدث المـــأمور به كتحويل بعض اليهود قردة فى قول الله تعالى « ولقد علمتم الذين اعتـــدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (٦٦) •

وجمهور المفسرين على أن المسخ حقيقى ، ويضاف الى التسخير سرعة التكوين أو كما قالوا سرعة الكون على هـــذا الوصف نكالا لهم وموعظة للمتقين (٦٧) •

التـــكوين :

وهو أعم من التسخير ويسمى الفعل التكوينى أو الايجـــادى بمعنى ابداع الأشياء وتكوينها •

قال الله تعالى « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » (٦٨) « انما قولنـــا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (٦٩) اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون (٧٠) « ثم اســـتوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا ائتينا طائعـــين » (٧١) وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » (٧٢) وهذه الأساليب القرآنية ونظائرها كانت مثار خلاف فى تأويلها بين العلماء وهو داخل فيما نسميه بالبـــلاغة

---

(٦٦) البقرة ٦٥ ٠٠

(٦٧) راجع فى الآية البحر ٢٤٦/١ وأبا السعود ١١٠/١ والاتقان ٢٧٧/٣ الطراز ٢١٣/٣ والألوس ٢٨٣/١ ٠

(٦٨) البقرة ٢٤٣ (٦٩) النحل ٤٠

(٧٠) يس ٨٣ (٧١) فصلت ١١ (٧٢) هود ٤٤

المذهبية أعنى الأساليب القرآنية والنبوية التى تنوعت الآراء تجاهها وليس هذا خاصا بأسلوب المجاز فحسب بل امتد الى ألوان من علم المعانى كالقصر بالتقديم بعد النفى واللام بين العاقبة أو أنها للعلة وغير ذلك كثير مما يقابلنا فى الكشاف والانتصاف والبحر والتفسير الكبير وانكار هذا انكار لمتعالم فى الفكر البلاغى نلقاه دائما فى كتب العلم وحسبنا أن نقول انه خاص وليس عاما وأن المسيرة البلاغية تجاوزت ذلك من قديم •

وبدءا فالمخاطب بالقول الالهى قد يكون موجودا فى الآيات كالقوم الذين قال لهم الله موتوا ، والأرض والسماء فى قوله : يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى ، وقد يكون معدوما كما فى قوله : انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون وقوله تعالى « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض •• الآية •

وفى مثل هذه الأساليب نقل الامام الطبرى آراء ثلاثة دارت آراء العلماء وحتى اليوم بينها انحيازا لرأى أو ابطالا لآخر بشىء من التوسعة والتفصيل •

الرأى الأول : أن القول حقيقى فى الموجود ويحمل عليه خطاب المعدوم تخصيصا ثم قال انه تخصيص من غير مخصص •

الثانى : أنه لا قول هناك بل جاء على الأسلوب العربى كقول الراجز :

امتلأ الحوض وقال قطنى سلا رويدا قد ملأت بطنى

ثم ذكر له شواهد ترددت بعد فى كتب العلماء •

الثالث : كأنه رد على الأول أو اكمال له وهو أنه لا ضير فى خطاب

المعدوم لأنه فى علم الله موجود • وقد رجح هذا الرأى (٧٣) •

وقد تبع الزمخشرى الرأى الثانى فقال ان قوله تعالى : فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم تمثيل عن قابليتهم للموت فى ساعة واحدة والمعنى فأماتهم لكن أخرج مخرج الشخص المأمور بشىء المسرع للامتثال من غير توقف ولا امتناع وهذا سر التعبير بالأمر ومثل هذا عرف مشهور فى اللغة كما أن هذا أرجح — عند الرازى — على أمر رسولهم أن يقول لهم موتوا (٧٤) •

ثم ان الشىء قبل أن يوجد كان معدوما حال توجه الأمر « ائتيا طوعا » انما قولنا لشى ، اذ لو كانت موجودة — كما يقول الرازى — لكان المعنى يا موجودا كن موجودا وذلك لا يجوز ثم ان كونها عدما يمنعها من الفهم والخطاب وهذا ألجأ الى القول بالتمثيل وقد تبع الزمخشرى حشد من العلماء كالرازى وأبى السعود والبيضاوى والشهاب والعلوى وسيد قطب ومع أن ابن المنير نقد الزمخشرى فى اطلاقه لفظة التخييل على كلام الله وقال مع صحة المعنى وارادة التصوير فالاطلاقه سوء أدب وتبعه بعضهم اشتهر هذا الوصف عند الشهاب والعلوى الذى وضع له عنوانا وبحثا والآلوسى وسيد قطب ، ثم قال الامام الشجرى : ان القول قد يطلق على حديث النفس ومنه فى التنزيل : ويقولون فى أنفسهم ، وعلى الفعل بمعنى الحركة والايماء بالشىء نحو قال برأسه كذا فنطحنى ، وقال بيده كذا فطرف عينه وقالت

---

(٧٣) راجع الطبرى ١/٤٠٤ــ ٤٠٦ •

(٧٤) راجع الكشاف والانتصاف ١/٣٧٧ و ٣/٤٤٥ والرازى ٦/١٦٤ وأبا السعود ١/١٥١ ، ٤/٢١١ ١/١١٠ والشهاب على البيضاوى ٢/٢٣٠ ٢/٣٢٧ ، ٧/٣٩٢ ، والألوس ٢٨٣ والطراز ٣/٢٨٣ والاتقان ٣/٢٧٧ والنيسابورى ١/٣٩٨ •

النملة كذا تمايلت فعبروا بالقـــول عن الفعل الذى هـو حركة كما أسندوا القول الى ما لا يصلح منه كالجمادات والأعضاء كقول الآخر:

فقالت له العينان سمعا وطاعة وحدرتا كالدر لمـا يثقب

ففى الآية عنده ــ تعبير عن الارادة بالقول وهـو يلتقى مـع الزمخشرى فى ذلك وكان معاصرا له توفى ٥٤٢ هـ بالكرخ .

كما أن هذا الرأى ردده البلاغيون كالسكاكى والقزوينى ومن دار فى فلكهم ولف لفهم (٧٥) .

الرأى الثانى : للطبرى والمهدوى وابن عطية ومكى فيما نقـــل أبو حيان وأيده ، وانتصر له ابن تيمية وابن القيم من أن المعدوم فى علم الله بمنزلة الموجود بل هو موجود فى علمه .

قال الامام ابن تيمية : المخلوق قبل أن يخلق كان معلوما مخبـرا عنه مكتوبا فالذى يقال له كن هو الذى يراد وله ثبوت وغيره فى العلم والتقدير وليس بممتنع خطاب المعلوم المذكور المكتوب اذا كان توجيه خطاب التكوين اليه قبل توجيه الارادة اليه » .

قالوا : ولا يجوز أن يحمل القول على المجاز لتأكيد الفعل بمصدره أو المصدر بالمصدر اذ أن هذا أمارة الحقيقة وهى حقيقة خاصة تليق بجلال الله وصـفاته المقدسة .

ويؤيد هذا قراءة كن فيكون بالنصب على أنه جـــواب الأمر الحقيقى وقول النيسابورى ينزل الأمر المجازى منزلة الحقيقى ابعـاد

---

(٧٥) راجع الأمالى ١/٣١٣ ، ٣١٤ .

(٧٦) راجع المفتاح ٤١٧ والايضـــاح ٤٧٠ والطراز ٣/٣ ــ ١٠ .

وتكلف لا طائل تحته لغة ، والامام أبو حيان يستشف من هذه الأساليب قوة الكناية الدالة على المقدرة وانفعال المأمور فى لحظة خارقة (٧٦) .

وقد شن الامام محمد بن المرتضى اليمانى فى كتابه « ترجيح أساليب القرآن على أساليب يونان » هجوما على الزمخشرى ونقد منهجه قائلا : انه كان له ولع بالمجاز فى أساس البلاغة والكشاف حتى فى مشاهد القيامة كقوله « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » هو مجاز عن احداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث والعجيب أنه فى الكشاف يذكر رأيا مقابلا هو نطقها حقيقة ويستشهد له بحديث ثم يضعف الرأى بلفظ قيل وهل بعد النص الصريح تأويل (٧٧) .

كما يتصل بهذا أيضا اثبات النطق لما لا ينطق عرفا كالجبال ، والطير وتسبيح كل شىء وكلام الهدهد والنملة ونطق الأعضاء يوم القيامة وقد تأولها فى الكشاف الا كلام الهدهد والنملة فلم يستطع ولزمه الحق فى ذلك اذ الأسلوب يدل على عقل الهدهد وأنه تكلم مختار مفرط ويستحق العقوبة ولو كان ذلك معجزة لسليمان ما كان لتهديده معنى وكذلك بتبسمه من النملة دال على أن ذلك حقيقة .

وسمعت من الشيخ محمد متولى الشعراوى أيده الله فى قوله تعالى : « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »

---

(٧٦) راجع الطبرى ٤٠٦/١ ودقائق التفسير لابن تيمية ٥١٣/٣ والرسالة التدمرية له ٧٠ والبحر ٢٤٦/١ ، ٢٥٠/٢ .
٢٧١/٢ ، ٣٣٢/٣ ، ٤٤٥/٣ ، ٢٧٦/٤ ثم راجع ترجيح أساليب القرآن

(٧٧) راجع رأى الزمخشرى فى هذه المواطن من الكشاف ٣٠٧/١ ، ١٥١ وما بعدها والرازى ١٠٨/٢٧ ، ٢٣٤/١٧ ، ٢٣/٢٠ .

ان تأويل التسبيح بمعنى الدلالة نوع من فقه المعنى وهو خطأ لأن الله يقول ولكن « لا تفقهون تسبيحهم » وفيه رد على القائلين بالمجاز وهى لمحة ذكية لكن ثبت فى الأحاديث الصحيحة تسليم الحجر والشجر على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وتسبيح الحصـــا فى كفه حتى سمعه الصحابة فاما أن يكون الخطاب فى «تفقهون» مطلق يقيده ماجاء بشأن الأنبياء الذين يفقهون الدلالة وتظهر لمن حولهم : معجزة وتأييدا لهم وهى معجزات تظهر أمورا كامنة واقعة ولا تخلقها خلقا من عـدم واما أن يكون النطق والتسبيح حقائق خاصة وعلى وجه معين مناسب لهذه المخلوقات حسب قوانينها التى أودعها الله فيها كقوله « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » (٧٨) وهذا خارج عن الفقه المعروف والعقل البشرى •

ثم ان حقائق العلم وذبذبات الصوت وموجات الضـــوء وخلق السمع الانسانى مناسبا لأصوات ذات ترددات خاصة دون سواها يؤيد ذلك صفوة القول أنها حقائق مودعه فى هذا الـكون المليء بالأسرار ، حقائق معينة لا يدركها الانسان الا عندما يسلط عليها شعاع من القهر الالهى فتظهر فى صورة معجزة (٧٩) أما أحـــداث يوم القيامة فهى حقائق مكيفة بقوانين اليوم الآخر يؤمن بها كل مؤمن •

والقرآن الكريم حين يثبت النطـق أو الاجابة أو الشـهادة أو التسبيح أو غيرها لمخلوقات غير بشرية يعـــاملها معاملة العقـلاء فى الصياغة من جمع العاقل واثبات ضمائر العقلاء بل أشرف الضـمائر والجموع وهى المذكورة • تأمل : قالتا أتينا طائعين : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله » « يأيها النمل ادخلوا مساكنكم »

---

(٧٨) الأنعام ٣٨ •

(٧٩) رجح ذلك ابن عطية فيانقله الزركشى ٢٤٦/٢ وأبو حيـــان ٣٦٤/١ البحر •

وهذا غير فكرة التغليب التى قال بها الزركشى من أن المراد فى الآية الأولى (٨٠) من فيهما من المخلوقين تغليبا ، وغريب أن يكون فيهما خلائق قبل خلقهما .

وطائعين من طعنا أى انقدنا ، يقال : طاعت الناقة تطوع طوعا : اذا انقادت . ثم ان هذا أيضا غير فكرة اعتقاد الكافرين الخاطىء فى أصنامهم من منحها النفع والضر والاغاثة والادراك ثم مخاطبة القرآن لهم حسبما يعتقدون اذ هو استدراج أسلوبى يعقبه كر وابطال لزعمهم ، بالحجج الصادعة الدامغة .

والجمع واضح فى الجلود والنمل معنى ، أما السماء والأرض فيبدو والله أعلم أنه اظهار تام للخضوع والعبودية وكأن كل جزء من أجزائهما قال ذلك القول فلفظ طائعين يصور الاذعان المطلق جرسا ولفظا ودلالة وجمعا وظلالا ، دلالة الاهتمام البالغ بالمبادرة الى الانقياد ، ولعلك فهمت بعد هذه الجولة سر تعبير الامام أبى حيان فى الأوامر : فقال لهم الله موتوا ، كن فيكون يا جبال أوبى معه والطير، ائتيا طوعا أو كرها وغيرها حين جعلها للكناية المصورة لجلال القدرة وبالغ العظمة لأن الكناية — على الأرجح — لا تمنع ارادة المعنى الحقيقى المناسب لما يليق بالله تعالى وكمالاته .[1]

التسوية :

وذلك فى مقام توهم فيه المخاطب رجحان أحد الطرفين : ومنه خطاب الله لنبيه الكريم وقد عزم — لقلبه الكبير — أن يستغفر لعبد الله ابن أبى رأس النفاق حين مات وكان ابنه صحابيا جليلا فقال القرآن

---

(٨٠) البرهان ٣/٣٠٦ .

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » (٨١)

وقال الله تعالى فى شأن المنافقين « قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين » (٨٢) • والاسلوب فى الآيتين مهيب رهيب • وقال سبحانه عن الكافرين فى النار « أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون » (٨٣) •

وقد أفاد الأمر والنهى معا فيما سبق مع الأسلوب التسوية وشديد الاهمال •

ومن المعروف : أن التسوية كمعنى بلاغى اقتضاه مقام خاص جاء فى أساليب مختلفة من الخبر والاستفهام والأمر والنهى تعديلا الفكر أو السلوك أو اظهارا لحقيقة ينبغى ألا تغرب عن المخاطب وهى لاتبعد عن فكرة الترغيب والترهيب بمعناها الوسيع فى دعوة القرآن الكريم•

التهديد :

وهو أخص من الانذار ، لأن الانذار تخويف مع ابلاغ ، بينما التهديد يبرق بالغضب والوعيد • والعلاقة بين أسلوب الأمر ومعنى التهديد المضادة (٨٤) قال الله تعالى « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » (٨٥) •

وهو نمط عجيب من البلاغة القرآنية تجمعت فيها الأزمنة وتداخلت

---

(٨١) التوبة ٨٠ •
(٨٢) التوبة ٥٣ وراجع الكشاف ١٩٥/٢ ، ٢٠٤/٢ •
(٨٣) الطور ١٦ وانظر المفتاح ٣٢٦ ط زرزور •
(٨٤) راجع شروح التلخيص ٣١٤/٢ •
(٨٥) فصلت ٤٠ •

الحاضر والمستقبل يوم القيامة والحاضر الدنيـوى والمتحدث عنهم كافرون أولا ، وموازنة بين الكافرين والمؤمنين فى الجزاء ثم التفات بليغ بالأسلوب قمة التهديد فى خطاب مزلزل للكافرين « أعملوا ماشئتم» وليس ثم فاصل أسلوبى بين الدنيا والآخرة فالجملـة الأولى بدأت بالتهديد ثم فى لمحة نجد الآخرة مقاما سوقها ، والاستفهام يجمـع فى موازنة واحدة بين لقطتين فهناك من يؤخذ أخذا فى قهر وامتهان وذلة ويلقى كشىء رذل نتن فى النار •

وفى المقابل هنا من يسير الهوينى اكتسى أمنا وسـلاما ودعـة اننا نراه باسم الثغر مشرق الجبين ، وهى موازنة غير متكافئة تعقدها سطوة القدرة • ولذا فقد حذفت النتيجة لاشراقها بل ان ذكر الخيرية هنا فيها مسحة من السخرية بالمكذبين فأى خير فى جزائهم الرهيب وفى لمحة بمثل الحاضر يملؤنا الوعيد المرعد ينصب تلقائيا على النوع الخاسر من البشر بدون ذكر صفاتهم ، أو سبق نداء لهم فهم هم الملحدون وهم هم الملقون فى النار ، انه التفات فى ثلاث كلمات ملتهبة الحروف اعملوا ما شئتم : بالاطلاق فى الفعل والمفعول فليس فيه اباحـة للشر بل انه الوعيد الشديد وماذا يصنع الكافر أمام الله خالقه الجبار وهو مقيـد الخطو بسنن راغمة ، وان ربك لبالمرصاد •

التعجب

كقوله تعالى « انظر كيف ضربوا لك الأمثال » وقد سبق عديد من الآيات دل فيها فعل الأمر : انظر على التعجيب وصعد بعده الاستفهام هذا المعنى •

وقد ذكر السكاكى من استعمال الانشاء بمعنى الخـبر قـوله تعالى : « اسمع بهم وأبصر » كما ذكر السيوطى الآية على افادة الأمر للتعجب (٨٦) والواقع أن المعنى انشائى وهو التعجب واللفظ خبرى لأنه

---

(٨٦) راجع الاتقان ٣/٢٧٨ •

ما جنى على صورة الأمر اذ الضمير فى « بهم » فاعل والصيغة هنا تعجب قياس •

التمنى :

وقد أدى التمنى بأساليب الأمر والنهى والاستفهام والخبر كما سيأتى ومن الأمر مرادا به التمنى قول المعذبين « ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون » (٨٧) وليس دعاء ، لأن وقت الدعاء حيث انتكليف والبلاء فى الدنيا •

وقولهم لمالك خازن النار « يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون » (٨٨)

الدوام :

وذلك اذا طلب وقوع فعل واقع كقول الله تعالى على لسان المؤمنين « اهدنا الصراط المستقيم » (٨٩) وقد يتعاون الأسلوب على افادة معنى الالهاب والتهيج فوق الدوام والاستمرار كما فى خطابات الله للمؤمنين من نحو قوله تعالى « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » (٩٠) « وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (٩١) وأساوب الشرط هذا « ان كنتم مؤمنين » تكرر كثيرا عقب توجيهات وأوامر الهية حفزا للهمم وحثا على التسابق للخير والهابا وترغيبا أى ان كان لديكم قدر من الايمان فداوموا باخلاص على المأمور به من توكل أو طاعة ونحوهما •

ومن طلب الدوام قوله تعالى « يأيها النبى اتق الله ولا تطع

---

(٨٧) المؤمنون ١٠٧ (٨٨) الزخرف ٧٧
(٨٩) الفاتحة ٦ (٩٠) المائدة ٢٣
(٩١) الأنفال ١ (٩٢) الأحزاب ١ ، ٢

الكافرين والمنافقين ان الله كان عليما حكيما واتبع ما يوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » (٩٢) وهذا كما يقول الزركشى من خطاب العين أى الشخص المعين والمراد الغير ، فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم — والمراد أمته لأنه كان أول المتقين وأتقى الناس لله وحاشاه — صلى الله عليه وسلم — من طاعة الكفار (٩٣)

ومنه « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك »(٩٤) .

وحاشاه صلى الله عليه وسلم من الشك وانما المراد بالخطاب التعريض بالكفار وعن أبن عباس لم يشك صلى الله عليه وسلم — ولم يسأل ، ومثله « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا » (٩٥) .

وفى المقامات العنيفة الخطاب توقفت طويلا حين يفهم من ظاهرها خطاب النبى الرحيم ففى الآية الكريمة « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين » (٩٦) .

كان الأسلوب للغائب حتى لا يواجه النبى الكريم بما يسوء كقوله: « عبس وتولى » .

والكلام على سبيل الفرض والتمثيل للمحال بيانا بأن القرآن حق وأنه من عند الله وحده وأن الرسول صادق فى التبليغ مع ابراز جلال الالوهية وقوة الحفظ لهذا الذكر الحكيم .

أما الآية الشريفة « ولقد أوحى اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من

---

(٩٣) البرهان ٢/٢٤١ (٩٤) يونس ٩٤

(٩٥) الزخرف ٤٥ وراجع الاتقان ٣/١١٢ .

(٩٦) الحاقة ٤٤ — ٤٧ .

انشاكرين » (٩٧) وقوله سبحانه « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (٩٨) ٠

أما الآية الأولى فقد تبع كثير من المفسرين الزمخشرى كالرازى وابن الأثير وأبى السعود والبيضاوى والشهاب والألوسى والعلوى أنه على سبيل الغرض للالهاب والتهييج لامعصوم صلى الله عليه وسلم اقناطا للكفرة وايذانا بشناعة الاشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه ، وأحس الرازى بهذا الموقع المنيف متسائلا : كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم وأجاب أن قوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا » وهذا يئول الى كلام الكشاف من أنه فرض وتقدير لا واقع له وبسط بعض العلماء المعاصرين القول بأن فيه اشارة الى بسطة سلطان الربوبية وغلبتها وأن النبوة فى أسمى صورها تؤمر وتنهى فهو تعميق للفرق بين الألوهية والنبوة مع بيان أن هذا الاسلوب فى هيمنته وتعاليه لا يصدر عن بشر : (٩٩)

لكنى كنت أرتجف فرقا وحياء فكيف يصف الكافرين — قبل بالخسران — « والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » على

---

(٩٧) الزمر ٦٥ ، ٦٦ ٠
(٩٨) الأنعام ٣٥ ٠
(٩٩) راجع الكشاف ٤٠٧/٣ والرازى ١٣/٢٧ وأبا السعود ٢٦٢/٧ والألوسى ٢٤/٢٤ والشهاب ٣٥٠/٧ والآلات التراكيب ٢٧٠ ٠

سبيل القصر ثم يهدد النبى ـ ولو فرضا ـ بثلاثة أقسام مؤكدة وأسلوب شديد الهول ـ على احباط عمله وخسرانه ان أشرك .

ثم كيف يؤمر النبى فى الآية قبلها أن ينكر عليهم الدعوة الى الشرك مع التوبيخ والتهكم والتعيير بالجهل « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » ؟ أيأمر بالتوحيد فى استعلاء ظاهر ثم يهدد بالطرد ان أشرك أن الجبار لا يسأل عما يفعل ولكن المقام هنا يرفض ما أوله الكثيرون . ولقد جاء فى القرآن آيات أشد هولا اقتضاها المقام .

ومن هنا رأينا الامام أبا حيان يقول : لما كان الاشراك مستحيلا على من عصم الله وجب تأويل « لئن أشركت » على ضمير السامع ، ومضى الخطاب عليه ، ويدل على ذلك أفراد الخطاب اذ لو كان للمخاطب فى الآية لكان التركيب لئن أشركتم ليشمل ضميره وضمير من قبله(١٠٠)

وقريب من هذا الرأى ما أشار اليه الزركشى ـ رضى الله عنه ـ فقد جعل هذا الخطاب من باب خطاب العام من غير قصد لشخص معين والمعنى : اتفاق جميع الشرائع على ذلك .

وهو يقصد بخطاب العام ما يكون فيه المخاطب غير شخص لجلال الحدث كما نجد فى القرآن من التعبير « ولو ترى اذ وقفوا على النار » أو أنظر ونحوها .

أو أن فى هذه الأساليب حذفا : بمعنى أنه مقول لقول محذوف وقد نسبه الامام أبو عمر الزاهد ـ غلام ثعلب ـ فى كتابه (الياقوت) الى الامامين ثعلب والمبرد على تأويل : قل : لئن اشركت ، وقل يا محمد ان كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود ونظائر ذلك مما تقدم (١٠١) .

---

(١٠٠) البحر ٤٣٨/٧ ، ٤٣٩ .

(١٠١) البرهان ٢٤٢/٢ .

ولنعمد الى الآية « ولقـــد أوحى اليك والى الذين من قبلك » نستشف منها ما يلى :

١ ــ أكد الوحى باللام الموطئة القسم وقد وهو ليس وحيـــا جديدا بل وحى ماض يبدأ مع بدء النبوات على الأرض ، فكل نبى أوحى اليه ، ولم يلتزم الترتيب الزمنى بل قدم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تكريما وتشريفا ودرجة كما قال « انا أوحينا اليك كما أوحينـا الى نوح والنبيين من بعده .. الآية وغير ذلك كثير .

٢ ــ اذا كان الوحى عاما فلم خص النبى وحده بهذا الخطاب العنيف ، وحذف ما ووجه به كل نبى . مع ان المقام ليس مقام تعنيف للأنبياء .

٣ ــ الخسران ذكر وصفا فى الآية قبلهما للكافر ، وهنا تقدير الخسران لمن أشرك كما جاء فى القرآن حبط العمـــل فى الكافر كقوله « حبطت أعمالهم » (١٠٢) « ولـــو أشركوا لحبـــط عنهـــم ما كانوا يعملون (١٠٣) وسيحبط أعمالهم » (١٠٤) وجاءت المادة فى المـــرتد «ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم»(١٠٥) واغرب ما جاء فى مادة الحبط عدم التأدب مع النبى ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ بالجهر له بالقول « ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » (١٠٦) .

---

(١٠٢) المائدة ٥٣
(١٠٣) الأنعام ٨٨ (١٠٤) محمد ٣٢
(١٠٥) البقرة ٢١٧ .
(١٠٦) الحجرات ٢ وراجع المعجم المفهرس ١٩٣ .

ـ كل هذا يؤيد رأى المبرد وثعلب من تقدير القول أى أوحى اليك والى كل نبى أن قل لكل انسان لأنه مفطور مخلوق على التوحيد . وقد جاء حذف القول فى أكثر من ألف موطن وقال أبو على الفارسى فيما يروى ابن جنى « حذف القول حديث البحر ولا حرج »

ومن معانى الأمر : التشريف ومنه كل ما جاء فى القرآن العزيز من فعل « قل » كالفلاق أى السور التى تبدأ بقل كالمعوذتين والاخلاص والكافرون ومن الآيات : « قل آمنا بالله » (١٠٧)

ومنه المشورة كقول ابراهيم الخليل لولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام « فانظر ماذا ترى »(١٠٨) . مشورة له فى أمر جلل لعلمه قوة يقينه وكمال عقله .

وقال ملك مصر « يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون » (١٠٩) وقالت بلقيس « يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » (١١٠)

والأسلوب ينبىء ـ مع المشورة عن الحيرة والفزع ومحاولتهما كأنثى التخفف من أعباء ثقال وخوفها من اتخاذ القرار بل ان الجملة الثانية لتكشف القناع عن ضعف بشرى زاده ضعف الأنثى ارتعاشا وقلقا .

الدعاء والتضرع

ومنه : التضرع والدعاء وقد قيل ان استعمال الأمر فى الدعاء والالتماس حقيقة ونقدم هذه الدراسة فى الدعاء القرآنى :

---

(١٠٧) آل عمران ٧٤ وراجع البرهان ٢/٢٥١

(١٠٨) الصافات ١٠٢ (١٠٩) يوسف ٤٣

(١١٠) النمل ٣٢

١ ــ جاء الدعاء بأسلوب الأمر والنهى والاستفهام والخبر خروجا عن المعنى اللغوى والاصطلاحى الى معنى الدعاء وهو التضرع من الانسان لربه وخالقه والتضرع أحد المعانى التى يدل عليها الفعل دعا قال تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » (١١١) .

كما جاء فى صورة المصدر النائب عن فعله « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » (١١٢) ومن الاستفهام قول موسى « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » (١١٣) أى لا تهلكنا على رأى بعضهم .

كما جاء بأسلوب الخبر والتعريض فى مقام يمنع من : التصريح

كقول آدم وحواء بعد أن تلقى آدم من ربه كلمات التوبة هذه « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١١٤) وهو تعريض كله حياء وانكسار بعد أن أكلا من الشجرة ، وقول موسى لما هرب من مصر بعد قتله المصرى « ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » (١١٥) وقوله عليه السلام بعد أن سقى للمرأتين « رب انى لما أنزلت الى من خير فقير » (١١٦) والأول أسلوب شرط والثانى رجاء والثالث خبر أدى ذلك كله معنى الدعاء .

ومن التعريض على لسان أيوب الصابر المبتلى لم يدع الله صراحة أدبا ورضا بالبلاء المقدور انه لم يدع صراحة حتى لا يتهم نفسه

---

(١١١) البقرة ٢٦٨
(١١٢) البقرة ٢٨٥
(١١٣) الأعراف : ١٥٥
(١١٤) الأعراف ٢٣
(١١٥) القصص ٢٢
(١١٦) القصص ٢٤

بشيء من الجزع انه مقام عال لنبى مقرب اكتفى بالتعريض المهذب « انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » (١١٧) « واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب » (١١٨) .

وقد أغنى تلميحه فوق التصريح وأعطاه الله رحمة من عنده فالقرآن يعقب على عطاء الله للانبياء فى سورة الانبياء بقوله « رحمة منا » الا أيوب فقال : « رحمة من عندنا » (١١٩) دلالة على خصوصية الرحمة . وفى سورة (ص) ذكرت عطايا الأنبياء وخص أيوب وحده بالرحمة « رحمة منا وذكرى لأولى الألباب » وهى الرحمة الخاصة بمعافاته من البلاء والشفاء التام برفع الألم والسقم أدل على الرحمة .

ـ كما جاء الدعاء بصيغة الاستعاذة لجأ الى الله وهربا اليه «رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون» (١٢٠)

وقد جاء من دعاء نوح عليه السلام ـ من سورة هود . اثناء الانتقام المحيط بالطوفان وفى موقف الغضب الجبار لم يجرؤ العبد الصالح وهو فى سفينته اللاعب بها هوج الأمواج باسم الله مجراها ومرساها لم يجرؤ على الدعاء لابنه العاصى صراحة بل كنى « رب أن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » (١٢١) نعم المقام للحكمة والارادة النافذة دون الرحمة فالكون كله فى غضب فبين له ربه ان عاطفة الابوة يجب الا تنسيه أمر النبوه فابنه كان عملا غاسدا كغيره طهر الطوفان منه الأرض ثم عاتبه فى شده « انى أعظك أن تكون

---

(١١٧) الأنبياء ٨٣.
(١١٨) ص ٤١ .
(١١٩) آية ٨٤ .
(١٢٠) المؤمنون ٩٧
(١٢١) هود ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

من الجاهلين » فانطلق فى ضراعة وحياء فى دعاء رامز « رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفـــر لى وترحمنى أكن من الخـــاسرين » •

وكثرة الضمائر والظروف وحروف الجر توحى بالوجل والخوف والاضطراب •

ـ كثر الدعاء الجماعى عن الدعاء الفردى الذى يتـاول أكثره أحداثا خاصة بالداعى كدعاء موسى فى سورة طه قبل توجهه الى فرعون بمصر « رب اشرح لى صدرى •••• » (١٢٢) •

ودعاء ابراهيم فى سورة الشعراء « رب هب لى حكمـا والحقنى بالصـــالحين ••• » (١٢٣) •

ودعاء نوح « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ••» (١٢٤)

ودعاء زكريا ويونس وأيوب لشئونهم الخاصة •

ـ كل دعاء يتناسب مع الداعى وقدرة ومطلبه فدعاء الأنبيـــاء يختلف أسلوبا ومقاما عن دعاء عباد الرحمن فى سورة الفرقان •

ـ التزم فى الدعاء اسم رب وربنا دون اسم آخر من أسمائه الحسنى لأن صفة الربوبية ـ بما فيها من معانى التربية والانعـــام والتفضل وهى آثار لا تنقطع دنيا وأخرى ـ أنسب وفيهـا اعتراف بالربوبية ولجوء الى مصدر الخير أملا فى الاجابة •

ولم يذكر وصف آخر الا فى موطن واحد فى سورة يوسـف من

---

(١٢٢) آية ٢٥ (١٢٣) آية ٨٣

(١٢٤) آية ٢٦

دعائه ختاما لأحداث قصته المثيرة التى خطتها يد القدر فى حكمة وسطوة وعناية .

« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » (١٢٥) .

فقد بدأ الاسم «رب» ثم «فاطر» أى يا فاطر السموات والأرض وهذا مناسب لعظيم العطاء والاقتدار على النعم الخاصة فى أحداث القصة المحكمة من اخراجه من السجن وايتائه الملك وتعليمه التأويل كما أنه مناسب لحكمة يوسف فى جوامع دعائه .

— وقد يسبق الدعاء ثناء على الله كثناء ابراهيم فى سورة الشعراء ويوسف أو الاعتراف بالايمان وكأنه سبب للدعاء أو مبرر لاجابته . « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا .. الآيات (١٢٦) .

وقد يعقب الدعاء بتذييل يؤكد مضمونه ويقوى الأمل فى الاجابة: « رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين » (١٢٧) « رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » (١٢٨) « رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » (١٢٩) .

كما التزم حذف أداة النداء من رب لكثرة الاستعمال والاحساس بالقرب الدانى والايناس بهذا القرب .

---

(١٢٥) آية ١٠١
(١٢٦) آل عمران ١٩٣
(١٢٧) الأنبياء ٨٩
(١٢٨) المؤمنون ٢٩
(١٢٩) المؤمنون ١١٨

ـ قدم ضمير الداعى على المفعول وهو ذات الدعاء أمـــلا فى الاجابة وطمعا فى الرحمة وتصويرا لأشواق النفس حين تضع آمالها على باب الكريم المنان « رب هب لى من لدنك وليا » فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » « ربنـــا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا » « ربنا أتمم لنـــا نورنا واغفـــر لنـــا » .

وفى الفعل : اغفر قد يضمن معنى اللازم بمعنى هب لنا الغفران فلا يذكر الذنوب نحو : رب اغفر لى ولوالدى .. الآية وقد يحـذف ضمير الداعى وقد جاء فى آية واحدة فى مقابلة من يدعو من الله الهـا آخر « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خـير الراحمين » وهذه المقابلة جعلت الدعاء عاما لكل المؤمنين كما التزم ذكر الذنوب مع الغفران والسيئات مع التكفير واذا اجتمعا فالذنوب فى الكبائر والسيئات فى الصغائر واذا افترقا شملت اللفظه مدلول الأخرى كقوله « غـافر الذنب » « لأكفرن عنهم سيئاتهم » والله أعلم .

النهى

وهو طلب الكف عن فعل ، وصيغته : لا تفعل وهى حقيقـــة فى التحريم (١) .

وقد خرج النهى الى معان بلاغية منها :

الدعاء نحو : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا » (٢)

الكراهة : كقوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبـــال طولا » (٣) وقوله « فى الأرض » لزيادة التقرير ، والإشعار بأن المشي عليها مما لا يليق به المرح ، والجملـــة الخبرية : انك .. تعليل للنهى (٤) وتهكم بالمختـــال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الأرض والجبال فليس أكثر قوة ولا أكبر ولا أشد منهمـــا تعريضا بهذا المنتفش الصدر الرافع الأنف الماشي على صدور قدميـــه والفناء يدب فيه . وقد ذكر السيوطى هنا الكراهة . والواقع أن النهى عن الرذائل مطلقا حسية أو نفسية انما هو نهى وحظر عـــلى الحقيقة وقد استفاض النهى عن ذلك فى القرآن كوصايا لقمان ، وآيات الحكمة والوصايا فى سورة الأنعام وغير ذلك .

الارشاد : كقوله : « لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم »(٥)

التيئيس : وقد تأدى كغيره بعديد من الأساليب كقوله تعـــالى

---

(١) راجع بغية الايضاح ٥٦/٢ والاتقان ٢٧٨/٣ .
(٢) آل عمران ٨ (٣) الاسراء ٣٧
(٤) راجع أبا السعود ١٧٢/٥ . (٥) المائدة ١٠١

« لا تعتذروا اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون » « ولا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم » (٦) .

التهكم والتيئيس كقوله تعالى « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » (٧) .

ومن معانى النهى كما قال السيوطى :

بيان العاقبة كما فى قوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٨) أى عاقبة الجهاد الحياة لا الموت . وفى هذا تسامح لانه معنى من المعانى التى دلت عليه الآية كلها ولا يؤخذ من النهى وحده . (٩)

وظاهرة النهى عن الحسبان لها شأنها فى القرآن الكريم تغييرا للمفاهيم أو تعديلا لها بما يتفق والقرآن سواء أفاد الأسلوب مدحا وتكريما أم ذما وتوبيخا وقد جاء النهى عن الحسبان فى تسع آيات تقريرا أو بمعنى أدق نفى المفعول الثانى عن الأول واثبات مقابله فى مقام مسيطر يبدأ بالنفى وينتهى بالاثبات والحسبان بمعنى الظن فى بعض المعاجم (١٠) وفرق الراغب بينهما بأن الظن أن يخطر الانسان النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر ، والحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه ويعقد عليه الاصابع ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك (١١)

---

(٦) التوبة ٦٦ (٧) الفرقان ١٤

(٨) آل عمران ١٧٠ .

(٩) راجع الاتقان ٨٢/٢ .

(١٠) راجع مقاييس اللغة ٥٩/٢ وتفسير الرازى ٩٤/٩ والمعجم الوسيط ١٧١/١ ومعجم ألفاظ القرآن ٢٥٣/١ .

(١١) المفردات ١١٧ .

وفى الآية التى سيقت : موضع الفائدة أى الاخبار عن الشهداء أنهم فى الجنة يرزقون وفيه رد كما قال الرازى ــ على من قالوا ان الجهاد يفضى الى القتل فهو خطأ لأن الآجال بيد الله ثم ان القتل فى سبيل الله أجل من الحياة لأنه مفض الى نوع جليل من الحياة والقربة والكرامة وأفضل أنواع الرزق • (١٢)

وقال تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » (١٣) وقال سبحانه « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » (١٤) .

« لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض » (١٥) وأكثر ما جاء فى مواطن التهديد والترهيب على سبيل التعريض وأقله فى التكريم والترغيب ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ارشادا وتعليما وأمرا بالتبليغ ، وقرىء فى آية الشهداء « ولا يحسبن » أى لا يحسبن حاسب أو أحد على التعميم فى الفاعل تأكيدا للحدث واشهارا لأنه حقيقة أخروية (١٦) ويقرب من النهى عن الحسبان الاستفهام الانكارى بمعنى النفى لدخوله كقوله تعالى « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه » (١٧) « أيحسب الانسان أن يترك سدى » (١٨) وان كان النهى أشد وقعا ايقاعا فى مقامات حاسمة قوية لا يقصد فيها هز النفوس وسياستها اثارة كوامنها كما فى الاستفهام •

وعلى كل فالأحداث المثبته بعد النهى عن الحسبان قد تكون موضع غفلة من البشر وبخاصة أن أكثرها غيبى يتعلق بالجزاءات

---

(١٢) التفسير الكبير ٩/٨٨ •
(١٣) آل عمران ٨٨
(١٤) ابراهيم ٤٢
(١٥) النور ٥٧
(١٦) وراجع البحر ٣/١١٣
(١٧) القيامة ٣
(١٨) القيامة ٣٦

الخاصة تكريما أو نكالا ، والبعث أو قوة الكفر فى نظر المسلمين وقد اهتمت بها السياقات لتكون على ذكر من المؤمن أبدا وهذا من أسباب تكرار « لا تحسبن » فى سياق واحد وفى أكثر من مقام مع ما يبدو الى ما يظن أنه طول فى السياق فاصل بين المفعول الاول وبين المفعول الثانى موطن الفائدة • ونظن أنه أشمل من ذلك فائدة صياغة ومدارا وترسيخا وايقاعا •

موازنة :

وقد جاء فى آية سورة البقرة « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتا بل أحياء ولكن لا تشعرون » (١٩) وبالموازنة بينها وبين آية آل عمران نلحظ ما يلى :

١ ــ جاء الفعل تقولوا هنا لأن المشركين كانوا يقولون ان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ــ يقتلون أنفسهم ، ويخسرون حياتهم ، فقال الله : ولا تقولوا كما قال المشركون انهم يذهبون الى الفناء ولا ينشرون ولكن اعملوا أنهم أحياء وقال الأصم يعنى لا تسموهم بالموتى وقولوا لهم الشهداء الاحياء •

٢ ــ لما كانت آية البقرة تنهاهم عن التشبه بالكفار فى القول ودلالته كان الاسلوب قويا تصحيحا للعقيدة ، ووزنا للألفاظ بميزان دقيق ، قبل النطق بها ، ثم جاء التذييل مقررا عاتبا «ولكن لاتشعرون» دل على العتاب صياغة الفعل « يقتل » تصويرا حاليا استحضارا للمشهد فهذا الذى يسفك دمه وتزهق روحه فى سبيل الحق لا يكون الا حيا أما آية آل عمران فجاءت فى شهداء أحد وان كانت عامة ، ولذا رقق الأسلوب وفاح رحمة وحنانا : فليس النهى عما يدور فى الأفواه بل عن

---

(١٩) البقرة ١٥٤

الحسبان والخاطر يطوف بالقلب نهيا عن الظن ، والقول من باب أولى والفعل « قتلوا » حقق الاستشهاد وأكد النهى وهذا ناسب التكريم الخاص للشهداء وتعديد ألوان رائعة منه تثبت الحياة مضاعفة « عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » الآيات ..

ترغيبا فى الجهاد المخلص رفعا لكلمة الله فى الأرض . رب الأولى والآخرة . (٢٠)

وقد نجد فى بعض آيات الحسبان معتركا للعلماء كقول الله تعالى « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين » (٢١) .

فبقاء المتخلفين من المنافقين عن الجهاد ، وعدم اصابة بعضهم ليس خيرا من قتل الشهداء فى « أحد » لأن هذا البقاء صار وسيلة الخزى والعقاب ، وقتل الشهداء وسيلة الى الثناء والثواب وقد أول المعتزلة اللام فى « ليزدادوا » على أنها لام العاقبة اثباتا للغرض والباعث والحكمة ورده الرازى وأبو حيان وغيرهما لعدوله عن الظاهر والصواب أن اللام للتعليل أو لام الارادة كما يسميها أبو السعود بمعنى أن يفعل الله تعالى فعلا ، يحصل منه شىء آخر ، وهذا غير الباعث الممنوع وقال الزجاج : ان الآية فى قوم أعلم الله نبيه أنهم لا يؤمنون أبدا وليست فى كل كافر اذ آمن بعضهم وقال مكى وهو الصحيح من المعانى (٢٢) والمعنى البلاغى نهى الكافرين عن السرور

---

(٢٠) راجع الرازى ٤/١٤٦

(٢١) آل عمران ١٧٨ .

(٢٢) راجع : الرازى ٩/١٠٨ والبحر ٣/١٢٤ وأبا السعود ٢/١١٧

باملاء الله لهم وبقائهم وتحسيرهم بيان أن ذلك شر محض واستدراج وكيد يحيق بهم ضرره • استكثارا من الاثم واستحقاقا لمهين العذاب وقرىء : ولا تحسبن : بالخطاب تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم واظهارا لعاقبة الكفر • وقيل الخطاب للعموم قصدا الى اشاعة فظاعة حالهم •

ومن معانى النهى البلاغية :

الحث والرغبة فى الاتصاف بصفة معينة :

كقول الله تعالى « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٢٣) وجاء أوكد فى قول الله تعالى خطابا مباشرا للأمة المحمدية — وتحس هنا بالفارق بين الأمم وأقدارا من الاختلاف بين المتكلم ابراهيم ويعقوب عليهما السلام ثم رب العزة والجلال فى آية التقوى والاعتصام « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٢٤) بالنداء والتنبيه والوصف الأى ، والوسم بالايمان ، وهذا الاختصاص بالتكريم يناسب الأمر بالتقوى الخاصة ، تكريم على قدر التكليف والوفاء به :

قال الطبرى : لا تفارقوا هذا الدين وهو الاسلام أيام حياتكم حتى لا تأتيكم منايلكم وأنتم على غير الدين لأن أحدا لا يدرى متى تأتيه المنية • (٢٥)

وقد أضاف اليه الزمخشرى وصاغه بدقة فقال « النهى فى الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الاسلام اذا ماتوا كقولك : لا تصل الا وأنت

---

(٢٣) البقرة ١٣٢ (٢٤) آل عمران ١٠٢.
(٢٥) الطبرى ١/٤٣٨

خاشع فلا تنهاه عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع فى حال صلاته ، لاظهار أن موتهم — لا على حال النبات على الاسلام — موت لا خير فيه وأنه ليس بموت السعداء وأن من حق هذا الموت الا يحل فيهم (٢٦) .

فالمراد الحث والبعث على دوام الأمر على الاسلام كما لخص الرازى (٢٧) والزجر أبلغ زجر عن الموت غير مسلمين شده اهتمام بهذا الأمر ولذا لم يمزج بهذه الوصية وصية أخرى والنهى هنا موجه الى الوصف أو القيد دون المقيد اذ لا ينهى عن الموت عقلا لأنه ليس فى مكنة الانسان كما أشار الطبرى ومن بعده (٢٨) .

والواقع أن هذا جزء من قضية النفى ومنه النهى وأثرها الأسلوبى وسرها البلاغى فقد يدخل النفى أو النهى على جملة فينفى أحد جزأيها أو هما معا أو على موصوف أو مقيد دون القيد أو العكس أو ينفيهما معا .

والحاكم فى ذلك دلالة المقام والسياق و القرائن بعامة وقد ورد كل أولئك فى كتاب الله تعالى كما جاء فى الأساليب العربية . وقد تعرض لشواهده العلماء حينما تقابلهم فى مناقشاتهم القضايا القرآنية أو اللغوية سواء كانوا علماء اللغة والنحو أم علماء التفسأ أم علوم القرآن وبيان مشكلة ومتشابهه وحتى علماء أصول الفقه وكان لعلماء البلاغة وبخاصة فى البديع مشاركة بمقدار ، وقد حاول الزركشى رحمه الله أن يضم النظير الى النظير ويجمع شتات ما تفرق فوفق فى شىء

---

(٢٦) الكشاف ٣١٣/١

(٢٧) تفسيره ٧٣/٤ .

(٢٨) تفسير الطبرى ١٦٢/٨ والرازى ٧٣/٤ .

من ذلك ، وتبعه السيوطى فجمع ذلك فى موطن واحد ضغطه ضغطا اطار بعض جوانبه وتركه قواعد مجهدة كشارات الطرق قاعدة ومثال •

وقد تناولنا النفى مع التقـديم فى كتاب آخر عالجنـا منه جوانب ونكمل هنا ما يتصل بالمقام : وأكثره ما دخل النفى أو النهى على أسلوب فيه قيد أو وصف •

والغالب فى الأسلوب القرآنى أن يتوجه ذلك الى القيد أو الوصف كقوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا » (٢٩) فليس نهيا عن مطلق المشى بل مقيدا بالمرح والاختيال ، وفى قوله تعالى « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبـدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد » •

فليس نفيا للعبادة على اطلاقها بل مقيدة بالمفعول اتماما للفائدة، وسر التعبير بما فى جانب الحق تعالى وهى للابهام والجنس العام لأن امتناعهم عن عبادة الله تعالى ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا جاهلين به والمعنى كما قال السهيلى : انكم لا تعبـدون معبودى الذى أعرفه دونكم وأنتم جاهلون به لا كراهية لذات المعبـود ولكن كراهية لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم كبرا وحسدا وأنفـة وشهوة لمخالفته فى العبادة مع الازدواج فى الكلام وهو أصل فى البلاغة•

أما التغيير فى صياغة الفعل بين ماض ومسـتقبل ، فهو ايماء الى عصمته صلى الله عليه وسلم من الزيغ والانحراف وأن معبوده واحـد فى الحال والمآل ولذا جاء بالفعل المضارع فى جانبه واسم الفاعل الحالى ثم جاء بالمضى حين أخبر عنهم « عبدتم » لأنهم يعبدون أهواءهم التى

---

(٢٩) الاسراء ٣٧ •

تتغير بها الآلهة ماضيا واستقبالا (٣٠) ثم نفى عنهم عبادته مستقبلا استيفاء للزمن •

ونقل ابن القيم رأى السهيلى وزاد أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة فأتى بما الدالة على هذا المعنى وهذا معنى قول النحاة : ان ما تأتى للصفات من يعلم •

ثم ان ما ان دخلت على ماض كان فيها رائحة الشرط فى العموم وهذا مناسب لهم ولذا لم يأت الماضى فى جانب الرسول عصمة له من الزيغ أبدا ، ولذا لا يوصف المؤمن بأنه عابد بل عبد الله دون الكافر ثم قد جمع فى الآية بين النفى والاثبات وهو مفاد شهادة التوحيد (٣١) •

أما القيد أو الوصف الذى يقع فى الجملة فقالوا أن أكثر ما يكون للتخصيص أو التوضيح نحو : زيد التاجر عندنا ، ورجل صالح عندنا وقد يأتى للمدح نحو بسم الله الرحمن الرحيم أو الذم نحو : فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، أو التأكيد نحو أمس الدابر أو البيان نحو : لا تتخذوا الهين اثنين والاحاطة والعموم نحو : وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » وفى الأرض هنا قيد للبيان والعموم : وهذا القيد قد يفيد معانى أخرى حسب السياق فقوله تعالى : «لاتفسدوا فى الأرض» يجوز ارادة العموم أو أنه تنبيه على أن مافيه مادة الحياة وبقاؤها جدير به الاصلاح لا الافساد تبكيتا (٣٢) لكن حين تأتى هذه الأوصاف أو التقييدات فى أسلوب النفى أو النهى لابد من وقفة (٣٣) لأنهم قالوا: ان

---

(٣٠) راجع نتائج الفكر ١٨٣ ـ ٨٥ •
(٣١) راجع التفسير القيم لابن القيم ٥٢٨ وما بعدها ١٠
(٣٢) راجع فى الوصف : المفتاح ١٨٧ والايضاح ١٢٠ •
(٣٣) البرهان للزركشى ٢/٤٢٢ ـ ٢٧ وشرح المنهاج ١/٣٧٢.

النهى والنفى ينصرف الى القيد غالبا وهذا يخالف أن يجىء الوصف للمدح أو الذم فمثلا قول الله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » (٣٤) وقوله تعالى « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » (٣٥) ولا يجوز توجه النهى الى القيد والا كان المعنى النهى من قتل الأولاد بسبب الفقر وجواز قتلهم بغير هذا السبب ، وتحريم اربا اذا كان أضعافا مضاعفة ، وجوازه اذا لم يكن كذلك وهو فاسد قطعا ، واذن فالوصف فى الأول للواقع الذى كانت تتصف به القبائل ذما وتشنيعا وفى الثانية وصف لازم للواقع أيضا اذ كان الربا يتضاعف معاملة ذما وتبكيتا .

والسؤال هنا : على أى أساس يتم التمييز بين أنواع الأوصاف ما كان مدحا أو ذما ، وما كان تقييدا وتخصيصا ؟

الواقع أننا لن نجد فى الكتب الموضوعة فى البلاغة الا ما ذكروه فى البديع مما يسمى نفى الشىء بايجابه ذكره ابن رشيق وفصله ابن أبى الأصبع وهو أن يثبت المتكلم شيئا فى ظاهر كلامه وينفى ما هو من سببه ، والمنفى حقيقة فى باطن الكلام هو الذى أثبته لا الذى نفاه، كقوله تعالى : « أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها » .

فالظاهر نفى هذه الجوارح ، وباطن الكلام نفى الالهية عمن يسمع ويبصر من الآلهة فكيف بمن لايسمع ولايبصر منها وقد اندمج هذا النوع فى تجاهل العارف الواقع موقع التوبيخ ومنه « لا يسألون الناس الحافا فالمنفى فى الظاهر الالحاف والباطن السؤال مطلقا » (٣٦) .

---

(٣٤) الأنعام ١٥١ (٣٥) آل عمران ١٣٠

(٣٦،٣٧) راجع العمدة ٢/٦٥ وبديع القرآن ١٥٣ .

والآية الأولى التى ذكرها : تنفى الجوارح كناية عن نفى الألوهية عن آلهتهم ، دون نفى الالهية عمن يسمع ويبصر فلا تدل عليه الآيه ، أما ما سماه تجاهل العارف فقد نبهنا الى تسمية السكاكى : سوق المعلوم مساق غيره ، التزاما بالأدب مع القرآن ، والآية الثانية لا تصلح شاهدا على ما ذكره فى التعريف مع طوله وعدم دقته اذ ليس فيها اثبات • بل ان النفى فى الظاهر للقيد ، وتدل القرينة على نفى القيد والمقيد جميعا •

ثم أن ابن أبى الأصبع — رحمه الله — أراد أن يعلل لهذه الظاهرة فقال : ان العرب متى أرادت المبالغة التامة فى شىء قلبت الكلام فيه عن وجهه لينتبه السامع عندما يرد على سمعه كلام قد خولف فيه عادة أهل اللسان الى أن هذا انما ورد لفائدة فينظر فيرى حصول زيادة فى الكلام مبالغة لو لم يقلب لم تحصل » (٣٧) •

وفكرة : مخالفة أهل اللسان بقلب الكلام عن وجهه ارادة المبالغة التامة ، غير دقيق ، ولا واضح ، وهو يعنى : خروج الكلام على مقتضى الظاهر ، وما سماه ليس قلبا للكلام لشهرة القلب فى قولهم عرضت الناقة على الحوض وخرق الثوب المسمار ، وقولهم فى اللفظ المفرد : طاغوث • ثم ان هذه الأساليب فى كلام العرب وفى القرآن الكريم ليس مخالفة لأهل اللسان بل هو أسلوبهم وصميمه على أن المبالغة التامة مرتبطة بهذا القلب المزعوم ، وأدق منه وأكثر توفيقا الامام أبو حيان حين علق على قوله تعالى « لا يسألون الناس الحافا » بقوله اذا نفى حكم عن محكوم عليه مقيد ، فالأكثر فى لسان العرب انصراف النفى لذلك القيد ، ويجوز أن ينفى ذلك الحكم فينفى ذلك القيد فيكون على هذا نفى السؤال ونفى الالحاح ، وهو المروى عن ابن عباس رضى الله عنهما •

ثم قال ملخصا « نفى الشيئين تارة يدخل حرف النفى على شىء فتنتفى جميع عوارضه ، ونبه على بعضها فى الذكر لغرض ما ، وتارة يدخل حرف النفى على عارض من عوارضه والمقصود نفيه فتنتفى لنفيه عوارضه » (٣٨) .

والواقع أن تفسير هذه الظاهرة نجدها عند الامام القرافى قال فيما نقله الامام على بن عبد الكافى السبكى فى كتابه : الابهاج فى أصول الفقه :

« ان الوصف اذا كان غالبا لازما لتلك الحقيقة فى الذهن بسبب الشهرة والغلبة فذكره اياه مع الحقيقة عند الحكم عليها لعلة ، لحضوره فى الذهن ، لا لتخصيص الحكم به .

وأما اذا لم يكن غالبا ، فالظاهر أنه لا يذكر مع الحقيقة الا لتقييد الحكم به ، لعدم مقارنته للحقيقة فى الذهن حينئذ ، فاستحضاره معه ، واسجلابه لذكره عند الحقيقة عند الحكم انما يكون لفائدة ، والغرض عدم ظهور فائدة أخرى فيتعين التخصيص » (٣٩) .

وقد أعجبنى ضياء الدين بن الأثير رحمه الله حين يحاول وضع قاعدة بلاغية ثم يساور الأساليب فيجد ما يخالفها أن يرجع — اجلالا للحق — عما وضعه كقوله : اذا جاءت صفتان يلزم من وجود احداهما وجود الأخرى أن يكتفى بذكرها دون الأخرى التى تجىء ضمنا وتبعا » قال وجدت ما ينقضه : قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما » ذلك أنه ذكر النهر مع أنه أشد من قول أف » (٤٠) وقد غابت عنه —

---

(٣٨) البحر ٢/٣٢٩ — ٣٣٠ .
(٣٩) الابهاج ١/٣٧٢ .
(٤٠) راجع المثل السائر ٢/٢٣٣ .

وقت تحليل الآية ــ فكرة التأكيد مع أنه كان بها حفيا والواضح أنه من تأكيد المفهوم اعتناء بشأن الوالدين ، ومن النهج القرآني انه حينما يريد أن يوفر العناية والحث والرغب والاهتمام بالأمر لخطير أثره يتبعه بنهي يؤكد مفهومه بعد الأمر به كما في قوله تعالى « وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » (٤١) .

« فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » (٤٢) أما المخالفة بين الاسلوبين صياغة في آية البر بالوالدين فقال الرازي : أن المراد بقوله : فلا تقل لهما أف : المنع من اظهار الضجر بالقليل أو الكثير ، والمراد من قوله (ولا تنهرهما) المنع من اظهار المخالفة في القول على سبيل الرد عليه والتكذيب له » (٤٣) والواقع أن هذا تقييد أو تخصيص لدلالة (النهر) دون دليل اذ معناه : الزجر وهو عند ابي حيان ارتقاء الى النهي عما هو ــ من حيث الوضع ــ أشد من قول « أف » وهو ينهرهما ، وعند أبي السعود أيضا وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص ، وقد خص بعضه بالذكر اظهارا للاعتناء بشأنه (٤٤) وهو توكيد كما قلت كالآية فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون » والملاحظ في هذه الآية ترتب التوكيد تصاعديا ذلك أن أشكروا بمنزلة التوكيد لا ذكروني للتلازم بينهما وقوله ولا تكفرون : تأكيد للشكر والكفر من كفر النعمة على حذف مضاف أي لا تكفروا نعمتي ايذانا بأن كفر النعمة كفر بالمنعم قال أبو حيان لو كان من الكفر ضد الايمان يقال « ولا تكفروا بي » (٤٥) وهذا حق لأن ثم كثيرا من

---

(٤١) البقرة ٤١ (٤٢) البقرة ١٥٢

(٤٣) تفسيره : ٢٠/١٩٠ .

(٤٤) راجع البحر ٦/٢٧ وأبا السعود ٥/١٦٦ .

(٤٥) البحر ١/٤٤٧ .

الأفعال يحدد حرف الجر ونوعه دلالة الفعل نحو كفره وكفر به ودلالته الثانى من خلال الاستعمال القرآنى على الكفر ضد الايمان ونحوه : رغب فيه وعنه ، وسها عنه وفيه وعشوت الى الشىء وعشوت عنه ونحوها (٤٦) .

والمهم أن توكيد المفهوم لا يكون الا فى مقام له شأن وخطر كذم الايذاء للوالدين عقوقا أو شكر للمنعم أو اخلاص العبادة كما فى قوله تعالى خطابا للأمة المحمدية « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٤٧) ووازنها بما حكى الله تعالى عما وجهه لبنى اسرائيل : « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا » .. الآية (٤٨).

نجد بسطا وتفصيلا واحاطة بجوانب الاسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا ، ومبالغة فى احقاق ذلك وترسيخه اعتناء بشأن هذه الأمة لأنها خير أمة أخرجت للناس نزل عليها الدين كاملا الى يوم الدين ولذا أعقب الأمر بالنهى عن ضده ، وقال « وبذى القربى » قصدا الى الاستقلال فى الاحسان اليهم بينما كلف بنو اسرائيل بما يلائم مزاجا وزمانا ومكانا وأمة غريبة الأطوار ليست هى الخاتمة ولذا لم يكن الأمر بالعبادة مباشرا بل عن طريق التوثيق والعهد الجازم الزاما بالحجة ثم كان الاسلوب الجامع بين النفى والاثبات « لا تعبدون الا الله » ولم تأت الباء فى « وذى القربى » ومع كل ذلك كان التولى

---

(٤٦) وراجع البيان للخطابى ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤٧) النساء ٣٦ (٤٨) البقرة ٨٣

وكراهة التكاليف الظاهرة ولذا عقب بالالتفات المؤنب وفيه تعبير وتركيز على نفورهم الذى جاء فى صورتين تأكيدا « التولى بالماضى والاعراض الدائم : « ثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون » •

وقد لحظ الرازى هذا التفاوت فى الأقدار والأعمال والجزاء فقال وانظر كيف أمر بنو اسرائيل بذكر النعمة يعنى قوله تعالى : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » والأمة المحمدية بذكر المنعم : فاذكرونى اذكركم •• الآية (٤٩) •

ومن مجىء النهى الأمر توكيدا قوله تعالى « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » فالنهى كالتأكيد لقوله اعتزلوا . اهتماما بخطورة هذا الشأن الخاص (٥٠) •

وقد لاحظت معنا أن ترتيب الأوامر والنواهى فى النسق القرآنى يخضع لدقة خارقة ، ويحتاج بحثا متفرغا فاتيان النهى بعد الأمر هو الأصل وقد تتوالى الأوامر أو النواهى أو تتعاقب والحاكم فى هذا طبيعة الغرض والمقام وتأمل هذا النسق من خطاب بنى اسرائيل « اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » (٥١) فقد جاءت ثمانية أوامر وثلاثة نواه •

---

(٤٩) راجع الرازى ٣٣/٣ والبحر ٢٤٤/٣ •
(٥٠) وراجع الرازى ٦٨/٦ •
(٥١) البقرة ٤٠ ـ ٤٣ •

وفى تسلسل ذلك ووضع الجمل وضعها ترتيب عجيب وسبك وبناء للكلام بعضـــه على بعض مع أن الواو بين المعطوفات لا تقتضى ترتيبا ـــ كما قال أبو حيان (٥٢) .

عود على الصفة فى النفى والنهى :

١ ـــ قد يكون القيد بعد النهى او النفى للتصوير والاثارة دما أو ثناء لأنه من الأوصاف اللازمة . ولذا لا يتوجه اليه النفى أو النهى الا من خلال لزومه واندراجه فى الموصوف قال الله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » (٥٣) وهذا الخطاب للفقراء، وقال تعالى فى شأن الأغنياء « ولا تقتلوا أولادكم خشـــية املاق نحن نرزقهم واياكم » (٥٤) فهو نهى عن الفعـــل مطلقا ، وذكر هذا القيد وصفا لمـــا كانوا عليـــه . وان كان العـــلة فى قتل الأولاد عندهم تدحا وتبشيعا وتشنيعا وعدم ثقة فى الرزاق المتين ولذا كانت الجملة بعـــد النهى مقررة لســـبب النهى « نحن نرزقهـــم واياكم ـــ نحن نرزقكم واياهم »(٥٥) .

وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » وهى نهى عن الربا مطلقا كما جاء فى قوله « وحرم الربا » وذكر القيد وصفا للحال الشنعاء التى كانوا يوقعون الربا عليها وفيه توبيخ وخص الأكل مرادا به المعـــاملة والانتفـــاع . لأن الأكل غالب فى الانتفاع به وهو المقصود الأعظـــم من المال وأكبر

---

(٥٢) البحر ١/١٨١ .
(٥٣) الأنعام ١٥١ .
(٥٤) وراجع أسرار التكرار ٧٥ .
(٥٥) راجع البحر ٤/٢٥١ .

الدوافع للضرب فى الأرض (٥٦) والارتزاق ، وطلب المعيش والسعى وفعل الأكل حين يأتى منهيا عنه فى القرآن فهو كناية مصورة للشراهة والالتهام غالبا كما سيأتى ومن ذكر الوصف للازم قوله تعالى لليهود الذين يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ثم يكفرون « وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به،ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، وايای فاتقون » .

والآية : تدعوهم الى الايمان بالقرآن الذى ذكر كتابيته (بما أنزلت) لتكون دعوى بدليلها أى لأنى أنزلته فاذا كانت التوراة منزلة فالقرآن مثلها ، وهو لا يناقضها بل نزل مصدقا لما بقى معهم منها والنهى « ولا تكونوا أول كافر به » دل على أمر من مفهوم السياق أى كونوا أول مؤمن به : تعريضا بسوء تقديرهم ، وذكر الأولية هنا أفحش لما فيها من ابتداء الكفر وبخاصة اذا كانوا موقنين أنه حق (٥٧) ثم وضع اليد على دائهم الذى يمنعهم من الايمان فى أسلوب نهى مستقل تركيزا على هذه العلة الخبيثة « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وهو طلبهم الرئاسة أو الهدايا والمنح على فتاواهم الآثمة الباطلة كانكارهم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن المغفرة أكيدة لهم وغير ذلك مما يشيع فى عامتهم ويصدهم عن الهدى وهو ثمن قليل من قليل هو متاع الدنيا ووصف الثمن بالقلة من الأوصاف اللازمة التى لا مفهوم لها فهو بخس زهيد تافه وسما لهم بالجشع والغباء وهو أيضا من لوازمهم (٥٨) وقد يكون القيد بالشرط ، ومفهومه — كما قالوا —

---

(٥٦) راجع الكشاف ٤٦٣/١ والرازى ١١٨/٥ والبحر ٥٤/٣ والشهاب ٥٥/٤ وأبا السعود ٨٤/٢ .

(٥٧) راجع الكشاف ٢٧٦/١ والبحر ١٧٧/١ .

(٥٨) راجع الرازى ٤٢/٣ .

أقوى من مفهوم الصفة كما في قوله تعالى وقد جاءت اماء لبعض المنافقين — يجبرونهن على البغاء مع كراهيتهن له حبا في المال ، حين الى الرسول صلى الله عليه وسلم شكيات « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » (٥٩) قال الكرماني شرط في الظاهر وليس بشرط كقوله « ان علمتم فيهم خيرا » وقال غيره: الشرط لتفحيش الاكراه ، على ذلك ، لأنها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة زجرا وتقبيحا لسلوكم ونعيا عليهم (٦٠) .

فعل الأكل بعد النهى في القرآن :

وقد جاء في ستة أساليب ، أسلوب واحد مراد به دلالته اللغوية الخاصة بمعنى مباشرة الأكل دون مطلق الانتفاع كقوله تعالى في أكل الذبح « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق »(١١) وجاء خمس مرات في الأموال خاصة وعامة .

كقول الله تعالى : عن مهور النساء « ولا تأكلوا أموالكم الى أموالهم انه كان حوبا كبيرا »(٦٢) وفي أكل أموال الناس بالباطل « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(٦٣) « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » (٦٤) وعن مال اليتيم « ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا » (٦٥) ولا شك أن

---

(٥٩) النور ٣٣ .
(٦٠) راجع البحر ٣٨٠/٨ والشهاب ٣٧٨/٦ والابهاج ٣٧٨/١ .
(٦١) المعجم المفهرس ٣٥ والآية ١٢١ الأنعام .
(٦٢) النساء ٢ (٦٣) البقرة ١٨٨ .
(٦٤) النساء ٢٩ (٦٥) النساء ٦

تخصيص صورة من صور الانتفاع بالمال وهى الأكل تصوير لهذا الحدث الخاص بما يصحبه من حركات نهمة شرهة مقبلة بحيوانية على افتراس المال الحرام وبخاصة للضعاف كاليتامى والنساء تحقير وزجر قاس وذم لاذع ترهيبا ثم ترغيبا فى التعفف .

واذا كان هنا نهى عن أكل مال اليتيم فهناك آيتان فى هذا الصدد تنهيان عن مجرد الاقتراب من مال اليتامى قال تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » (٦٦) ونلحظ هنا مايلى:

١ ــ الآيتان مكررتان جاءت احداهما فى الوصايا العشر من سورة الأنعام والثانية من آيات الحكمة فى سورة الاسراء وهى آيات صيغت فى صورة قوانين ثابتة مركزة لتحفظ ويعمل بها أبدا ، ومن هنا وفر الأسلوب كل صلاحية واحتياط وشمول .

٢ ــ لم ينه عن الأكل مرادا به الانتفاع المباشر بل عن مجرد القربان منها وهى كناية مصورة داعمة للمعنى لأن اليتيم نبتة غضة ضعيفة والطمع فيهم ــ ممن لا خلاق لهم ــ أشد .

وقد جاء النهى عن القرب من الشىء فى احدى عشرة آية (٦٧) آيتان عن قرب الشجرة لآدم وحواء نحو : ولاتقربا هذه الشجرة البقرة ٣٥ والأعراف ١٩ وعن قرب مال اليتيم فى آيتين سبقتا وآيتان عن قرب الزنى والفواحش : الأولى : ولا تقربوا الزنا : من آيات الاسراء (٦٨) والثانية من وصايا الانعام (٦٩) وآية عن قرب الصلاة فى حال السكر « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » (٧٠) وآية عن قرب

---

(٦٦) الأنعام ١٥١ والاسراء ٣٤ .
(٦٧) المعجم المفهرس ٥٤٠ (٦٨) آية ٣٢
(٦٩) آية ١٥١ (٧٠) النساء ٢٣

المشركين من المسجد الحرام « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٧١) وآية يهدد يوسف اخوته أن يأتوه باخ لهم من أبيهم « فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عنـدى ولا تقربون » ثم آية واحدة كان للقرب دلالة خاصة فى قوله تعالى « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (٧٢) .

وقد أمر المسلمين باعتزال النساء فى المحيض وهو اعتزال خاص ثم أكد الأمر بالنهى « ولا تقربوهن » : نهيـا لا عن القـرب منهن بل والتمتع بما سوى ما اشتمل عليه الازار رحمة بهن فقد كانوا فى الجاهلية تقليدا لليهود والمجوس يقاطعوهن تماما وانما هو نهى عن قربانهن وهو والاعتزال كناية عن الجماع والقرآن دائما حين يعالج ما أحل يكنى عن الجماع بكنايات رقيقة مهـذبة كالمس ، واللمس والقرب والاتيان أما ما يتعلق بالفاحشة والزنا واسـتلاب الأعراب فهو يعالجها بحسـم وصراحة ويشدد النكير على من لا حياء عنده كآيات الزنا فى القرآن . وتلحظ فى الآية هذا التحذير بالأمر والنهى معا . ثم جاءت الأباحة بعد الحظر وكثيرا ما يعقب أمر الاباحة التحريم . كما قال أبو حيان . لكنها اباحة مقيدة بمكان الزرع قطعا على الشيطان نفثه وهمزه ، ثم على ذلك بأعلى وأنقى دافع للالتزام وهو حب الله للتوابين والمتطهـرين وتلحظ تكرار مادة الطهر ثلاثا والتوبة من اللمم مرة سموا بالاحساس وتوجيها للغرائز ورقيا بالمسلم الى أفق الطهارة والنقاء لأنه هكذا دائما بالذكر والايمان .

---

(٧١) التوبة ٢٨

(٧٢) الآية ٢٢٢ البقرة ٥ راجع فى الآية الكشاف ١/٣٦١ والبحر ٢/١٦٨ وأبا السعود ١/٢٢٢ .

ولا بأس من تحليل بعض الآيات التى جاء القرب فيها كناية عن المبالغة فى النهى عن الفعل كقوله تعالى : لآدم وحواء « فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (٧٣) وقد أشار البيضاوى والشهاب الى ما فى الصياغة من خصائص تفيد المبالغة القوية فى النهى : تعليق النهى بالقرب الذى هو من مقدمات التناول مبالغة فى التحريم وتنبيها على أن القرب من الممنوع الشهى يورث داعية وميلا نفسيا يقوى ويلهى عن داعى الشرع والعقل « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » تصويرا لحقيقة نفسية كبرى ، ثم انه رتب العصيان على القرب مع أنه مرتب على الأكل كما أن الظاهر أن يقول « فتأثما » فى الجواب فعبر بالظلم الذى ينصرف اذا أطلق فى القرآن على الكبائر وقد يدل على الكفر ذاته ، وقوله « تكونا » دالة على الدوام ولم يقل : ظالمين على التنبيه بل قال : « من الظالمين » وهذا التعبير أعنى هذا الأسلوب من جعل المتحدث عنه أو المتكلم أو المخاطب منسوبا الى قوم غلبت عليهم صفة معينة كما أشار الزمخشرى فى آية الشهادة على الوصية فى المائدة « انا اذا لمن الآثمين » : وهذا بدل من قولك انى آثم فكأنه كناية عن تحقيق الوصف أى فتكونا ظالمين منتسبين الى قوم ظالمين وقد كثر هذا الأسلوب الذى نسجت عليه التعابير لهذه الكناية المصورة لمقتضى المقامات (٧٤) .

وفى الآية : انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » النهى فى الظاهر للمشركين وفى الباطن للمؤمنين فهو كناية عن نهى المؤمنين عن تمكينهم كما قال العلماء (٧٥) .

---

(٧٣) البقرة ٣٥ وفى الأعراف ١٩ .

(٧٤) راجع فى آيات القرب البحر ٢٥٢/٤ ، ٢٥٥/٣ والشهاب ١٣٦/٢ ، ١٦٥/٤ ، ٣١٦ .

(٧٥) وراجع مثلا حاشية الشهاب ٣١٦/٤ .

بين النهى عن القرب والاعتداء :

وفيما يتعلق بحدود الله جاء من المتشابه قوله تعالى : عن الاعتكاف فى المساجد أثناء الصيام وشروطه من البعد عن النساء : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » (٧٦) كما جاء بعد أحكام الطلاق والعدة والايلاء : « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » (٧٧) والاسكافى والكرمانى وأبو حيان وأبو السعود على أن ما كان من الحدود نهيا كان النهى عن قربانه أبلغ كآية الاعتكاف ، وما كان منها أمرا نهى عن مجاوزته وهو معنى الاعتداء فى آية الطلاق اذ بينت الآية عدد الطلاق (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أوتسريح باحسان) بخلاف ما كان عليه العرب من المراجعة بعد الطلاق من غير عدد متناسب ان ينهى عن التعدى (٧٨) ونلحظ هنا أن آية الطلاق بالغت فى التهديد بتكرار الاسم الجليل ووضعه موضع الضمير لتربية المهابة والروعة والتخويف من انتهاك حدود الله كما أن التعقيب بأسلوب الشرط وما فيه من ترتب وتسبب ولزوم بين الجزاء والشرط وكذلك التعبير باسم الاشارة للبعيد (أولئك) ابعادا وذما وضمير الفصل والظالمون بهذا الوصف الخاص على سبيل الحصر بتعريف الطرفين وتأكيده بضمير الفصل كل ذلك ، بلوغا بالتهديد والتنفير الى أقصى مدى.

لأن تشريعات الطلاق والعدة والايلاء كلها حدود لا يمكن النهى عنها لأنها حلول لمشكلات اجتماعية وانما ينهى عن تجاوزها رفضا ، أو مخالفة وتجاوزا ، تساهلا فى التكاليف وما يترتب عليه من تسبب وهمجية فى شئون الأسرة التى كثف القرآن عنايته باستقرارها على هدى من الله ،

---

(٧٦) البقرة ٨٧ (٧٧) البقرة ٢٢٩

وهذا بعض من أسرار التعبير بالاعتداء دون القربان اذ لا يتأتى والله أعلـــم ٠

النهى عن الكون على صفة :

وهذا للقصد الى التأكيد والمبالغة وانما يكون هذا فى مقـامات يتطلب النهى عن الكون على صفة دون النهى عن نفس الصـفة أعنى الاتصاف بها ٠

والواقـع ان النواهى فى القرآن منهـا ما جاء مباشرا داخلا على الصفة فى مقامات التشريع والتأديب والأخلاق ، نهيا صريحا قاطعا وهو أكثر النواهى فى القرآن كقوله تعالى « قل تعالوا أتل ما حرم ربكـم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولاتقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقهم واياكم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ٠٠٠ الآيات ١٥١ ــ ١٥٣ ٠ الأنعـــام ٠

والنوع الذى دخلت فيه لا على الكون جاء فى ثلاثين أسلوبا وهى كثرة فى ذاتها قليلة بالاضافة الى النوع الأول الأغلب (٧٩) وقد علموا بلاغة ما نحن بصدده أنه يدل على عموم الاكوان المسـتقبله على تلك الصفة ويلزم من ذلك عموم تلك الصفة فهو نهى عن عموم يستلزم عموما ولذلك كثر النهى عن الكون ، والكينونة فى الحقيقة ليست متعلق النهى لأن الكون والوجود ــ كما قال الرازى ــ ليس مقدورا للمخاطب حتى ينهى عنه حقيقة (٨٠) ٠

---

(٧٨) راجع الرازى ٦٨/٦ ، ١٠٣/٦ والبحر ٥٤/٢ وأبا السـعود ٢٢٧/١ ودرة التنزيل ٣٦ وأسرار التكرار ٤١ ٠

(٧٩) المعجم المفهرس ٦٣٨ ــ ٦٤٠ ٠

(٨٠) راجع الرازى ١٣١/٤ والبحر ٤٣٦/١ والشـهاب ٢٥٦/١

وأكثر هذه الأساليب جاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتا وتنزيها وتسلية وربطا على قلبه الشريف وقد تفاوتت أساليب النهى عن الكون على النحو التالى :

١ ــ النهى عن الكون بحذف النون من الفعل « يكن » كقوله تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » (٨١) « فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء » (٨٢) دلالة على القلة الضئيلة فهو نهى عن التعرض لأدنى ضيق من مكر المشركين أو أدنى شك فى بطلان عبادتهم .

٢ ــ النهى مع اثبات النون كقوله تعالى « كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » وقوله تعالى « الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (٨٣) .

ولما كان الحرج مما لا ينهى عنه ، والشك غير متوقع كان نهيا عن التعرض للحرج بطريق الكناية ونهى عما يوقع فى الريب ، باكتساب المعارف المزيلة للشك .

وفى الآية : فسر الزمخشرى الحرج بالضيق والرازى بالضيق أو الشك وضعفه أبو حيان وقال : ان كان صح عن ابن عباس فالمراد النهى عن التعريض له بطريق الكناية كما فى قولهم لا أرينك ههنا فانه فى الظاهر للمتكلم وفى الواقع للمخاطب أى لا تكن ههنا بحيث أراك اذ الرؤية مترتبة على الوجود فى المكان ففيه كناية ، فكأنه فى قوله « فلا يكن فى صدرك حرج منه » كناية مترتبة على كناية والمعنى لو كان الحرج مما ينهى عنه لنهيناك عنه فلا تتعرض له ضيقا أو شكا

---

(٨١) النمل ١٢٧ (٨٢) هود ١٠٩.
(٨٣) آل عمران ٦٠ .

أو غيرهما كما فسر ابن عطية (٨٤) وفيه تنزيه للنبى صلى الله عليه وسلم عن النهى المباشر لان ثم ما يزيله ويكون سببا لشرح الصدر وطمأنينة القلب وهو القرآن العظيم •

والآية الثانية جاءت اثر مثل عيسى وخلقه وأنه مثل آدم وقيل آية المباهلة ولما كان الشك غير متوقع ، والكون ليس مقدورا له كناية عما يصح النهى عنه أى ما يوقع فى الريب باكتساب المعارف اليقينية ، وأجاز بعضهم أن يكون الخطاب لغير معين أو للرسول والمراد أمته وفيه كناية أخرى قوله من الممترين اذ قولك — كما فى الكشاف — فلان من العلماء أبلغ من فلان عالم لأنك تشهد له كونه معدودا فى زمرتهم وسر هذا التركيب متعالم عند العلماء نبه اليه ابن جنى فى الخصائص ثم سار على الدرب كثيرون فهو لتأكيد النهى (٨٥) •

وجاء من هذا اللون قوله تعالى « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»(٨٦) والنهى توكيد للأمر دال على الكناية المصورة •

وجاء فى سورة النمل تسليه للرسول الكريم وتسرية لاعراضهم عن الآيات القرآنية والكونية : « ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » (٨٧) أما آية النحل السابقة ١٥٧ « واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » فهى آية شفيفة نزلت تصبر النبى والمؤمنين فى شهداء أحد العظام على هامتهم أسد الله

---

(٨٤) راجع الكشاف ٢/٦٦ والرازى ١٤/١٦ والبحر ٤/٣٦٦ والشهاب ٤/١٤٦ •

(٨٥) راجع الكشاف ١/٤٣٣ وراجع حاشية الشهاب ١/٢٥٦ ، ٢/١٧٨ ، ٤/٧١ •

(٨٦) الأعراف ٢٥٠ (٨٧) الآية ٧٠

حمزة بن عبد المطلب وقد ملأ القلوب الأسى والحـــزن فنزلت الآيات العديدة تصف جزاءات الشهداء عند الله كما فى آيات آل عمران وتضبر النبى والمؤمنين وتسلى •

والمقام رفيف حزين وحذفت النون بيانا لتركه أدنى اضيق مما يمكـــر المشركون •

وهذه المجموعة الثانية ومثلها عديد من الآيات جاء الفعل فيها على الأصل « يكن » بثبوت النون تناسب مع السياق الذى جاءت فيه •

٣ ــ قد تحتاج المقامات قدرا أكبر من التأكيد ملاءمة جاء فعـــل الكون مؤكدا كقول الله تعالى بعد آيات تحويل القبله وأسرارها « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (٨٨) •

لأنه صلى الله عليه وسلم ووجه بحملة تشكيك ــ على حد التعبير المعاصر ــ من اليهود والمنافقين وهم مزدوج كما يقول الكرمانى فكان الحسم وتأكيد النهى • (٨٩)

أما قوله تعالى « فلو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (٩٠) •

فقد ذكر أبو حيان رحمه الله الآراء العديدة التى تجعل الخطـــاب للنبى الكريم ثم ردها فى حزم وجعله للسامع على العموم كأنه قيـــل « ولو شاء الله أيها الســـامع ذلك أن قوله ولو شـــاء الله لجمعهم على الهدى اخبار بأنه لا يقع فى الوجود الا ما شاء الله وقوعه ، وهذا من قبيل الدين والعقائد ، والرسول صلى الله عليه وسلم عالم بمضمونه مأمور بتبليغه (٩١)•

---

(٨٨) البقرة ١٤٧ (٨٩) أسرا التكرار ٥٠
(٩٠) الأنعام ٣٥ (٩١) البحر ١١٦/٥

ثم ان هذا الفعل قد خوطب به المؤمنون تحذيرا من التشبه بأقوام ضالين وتجريدا للايمان الخالص ، واقامة للخلق الاسلامى المستقل ، وتربية للشخصية الاسلامية فى اطار النظرة الاسلامية العامة للسلوك، وذلك فى نحو سبع آيات (٩٢) كقوله تعالى : « ولا تكـــونوا كالذين تفرقوا » (٩٣) « لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلـوا » (٩٤) « ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » (٩٥) الى آخر هذه الاساليب •

وهو تشبيه منهى عنه أو مسلوب والطرفان من ألوان الطبـــاق المتقابل بين الشخصيات المتصفة بصفات متقابلة تصويرا وترغيباوترهيبا

كما جاء النهى دون تشبيه فى قوله تعالى « منيبين اليه واتقـوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم » وهذا أبلغ من القول « ولا تشركوا » هنا اذ فيه الهاب وتنفير من الاشراك مؤكدة للأمر بالتقوى واقامة الصلاة وفيه ايحاء بأن فى التقوىوالصلاة لله وحده الوسيلة والغاية دون هذا التفرق الغريب بين المشركين الذين توزعوا شيعا من كفر وشرك والحاد وما دار فى هذا الفلك اللعين •

ضرب آخر من النفى

والقيد اللازم قد يأتى صفة لموصـــوف منفى فينتفى الموصـــوف والصفة أو المقيد والقيد جميعا • وقد جاء ذلك لاسرار بلاغية عاليه •

---

(٩٢) المعجم المفهرس ٦٣٧ (٩٣) آل عمران ١٠٥
(٩٤) آل عمران ١٥٦ (٩٥) الأنفال ٢١

تأمل قول الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا » (٩٦)

فهم من الفقراء المتجملين الذين لا يبدون فاقتهم لا بلسان الحال ولا المقال ، تعففا وأنفة واحتراما للذات ، وقد نزلت فى فقراء المهاجرين الذين تركوا دنياهم فى مكة • وكانوا نحو أربعمائة وهم أصحاب الصفة وكانوا رهبانا بالليل صوامًا بالنهار مغاوير فى الحرب لم يشغلوا عن رسالتهم أولئكم الرجال الذين وصفوا فى الآية بخمس صفات ، يحسبهم الذى لم يختبر أمرهم من التجمل وترك المسألة أغنياء ، وقوله تعرفهم بسيماهم : أبطل الرازى أن يكون صفة الوجه ، أو جهة الفقر ونحوه لأنه علامات الفقر الواضحة بل هى الهيبة والوقار وسمة الايمان القوى فهو صفة مدح وكمال • وبضعف ما رآه الكشاف من رأييه وهو أن يكون سؤالا بتلطف ورجح نفى السؤال والالحاح جميعا وهو ما عليه جمهور العلماء ومن أسرار هذه العبادة التعريض بالسائل الملحف فى السؤال وقد الح الزجاج الى أنهم نوع من الفقراء العظام الذين لم تخرج الأرض أمثالهم تأدبا بأدب الله واقبالا عليه ورضا بالقليل مع السعى والحركة النافعة الدءوب •

وقد نظر العلماء بالآية الشريفة وأمثالها بيت امرىء القيس

على لا حب لا يهتدى بمناره اذا ساقه العود النباطى جرجرا

واهتمام العلماء بالتنظير للأساليب القرآنية من الشعر الجاهلى بدأ مبكرا جدا من ملاحاة نافع بن الازرق للامام عبد الله بن عباس فى غناء الكعبة وسؤاله عن حروف من القرآن وطلبه تعضيدها بالشعر

---

(٩٦) البقرة ٢٧٣ •

العربى ومن ناحية أخرى فاحياء الشعر الجاهلى كان من أهم الأمور لبيان بلاغة العرب الذين تحداهم القرآن ثم لبيان مدى سموق البلاغة القرآنية أو بتعبير العلماء لتعرف حجة الله فى الاعجاز .

وانتقد أبو حيان تنظير العلماء ولحظ أن الشبه فى مطلق انتفاء شيئين لأنه يلزم من نفى المنار نفى الهداية التى هى بعض لوازمه ، ولا يلزم من نفى الالحاف نفى السؤال بل يلزم من نفى السؤال نفى الالحاف اذ نفى العام يدل على نفى الخاص ، والتشابه التام غير صواب كما لحظ أبو حيان وبيقى أن نقول ان بين الهداية والمنار عموما وخصوصا ولا يلزم من نفى أحدهما نفى الآخر .

فان خصصت الهداية بكونها هداية منار لزم من نفى أحدهما نفى الآخر . (٩٧)

وقال تعالى فى الكافرين الذين يجادلون فى آيات الله « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (٩٨) فهو نفى للموصوف والصفة أى لا شفيع فيطاع اذ ليس للكافر شفاعه كقول العرب : ولا ترى الضب بها ينجحر » (٩٩) ومثل الآية : قوله تعالى عن المعذبين « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا » فليس لهم كيد يغنى يوم القيامة (١٠٠) وقد نقل الامام تاج الدين السبكى أسرارا عدة لهذه الصفة نوجزها منها : قطع أطماع الظالمين وتيئيسهم لأنهم يتطلعون الى الشفيع وهذا أنكى لهم . ومنها : أن من الشفعاء من تقبل شفاعته وهو المقصود هنا فدل عليه يريد أن مفهوم العبارة يدل على اثبات الشفيع والشفاعة وذلك فى جانب

---

(٩٧) راجع فى الآية الكشاف ٣٩٨/١ والرازى ٧٩/٧ ـ ٨٢ والبحر ٣٢٩/٢ .

(٩٨) غافر ١٨

(٩٩) راجع الرازى ٥٠/٢٧ والبحر ٤٥٧/٧ .

(١٠٠) راجع الشهاب ١٠٨/٨ .

المؤمنين ، ومنها : أن الغالب فى الشفاعة استعمال لفظ القبول والنفع وما أشبهها أما الطاعة فانما تقال فى الأمر فذكرها هنا لأن شـــأن الظالمين فى الدنيا القوة ، والمتكلم منهم بمنزلة من يأمر فيطاع ، فنفى عنهم ذلك تبكيتا وحسرة فى الآخرة ، كما أن فيه اشارة الى شدة ذلك اليوم العصيب ، وان شدته بلغت مبلغا لا ينفع فيه الا شـفيع له قوة يطاع لو وجد وهو لا يوجد وهذا قريب مما قبله وفيـــه نفى النصرة وتحقيق الاحاطه بهم .

وقد ذكر الزمخشرى فائدة أوسرا للصفة هنا وضحه توضـيحا نكتفى بتلخيص ابن المنير له بقوله فائدة ذكر الموصوف أنه كالدليل على نفى الصفة لأنه اذا انتفى الموصوف انتفت الصـفة قطعا كقولك ليس معى سلاح أحارب به تعنى كيف تتاتى منى المحاربة ولا سلاح معى قال ابن المنير قلت : فكأنه نفى الصفة مرتين من وجهين مختلفين (١٠١)

وهذا مثل حين يقف العلماء أيا كان اختصاصهم أمام آية قرآنية يستشفون أسرارها ويقتبلون الهامها وظلالها تتبعا بالحس والفكر لايماضها وعطائها وهو لون طيب من ألوان التحليل الفنى المبدع .

وقريب من الآية فى نفس الغرض قوله تعالى « فما تنفهم شفاعة الشافعين » (١٠٢) والنفى يتناول مدخوله من شفيع وشفاعة كما يومىء الى وجود شفاعات ينتفع بها فى هذا اليوم للمؤمنين (١٠٣) ومنـه : « ولا يؤذن لهم فيعتـذرون » (١٠٤) فهو موقف خاص يقـال فيـه : « اخسأوا فيها ولا تكلمون » فلا اذن ولا اعتذار كبتا لمشاعر الحسرة الكامدة فى قلوبهم .

---

(١٠١) راجع الابهاج ١/٢٧٦ ثم الكشاف والانتصاف ٣/٤٢١

(١٠٢) المدثر ٤٨ .

(١٠٣) راجع البحر ٨/٣٨٠ .

(١٠٤) المرسلات ٣٦ وراجع البحر ٨/٤٠٨ .

الصفة للتأكيد لا للتقييد :

كقوله تعالى « ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه » (١٠٥) وليس ثم اله آخر معه برهان بل المراد نفى الاله الباطل على أبلغ وجه لأن الوصف مؤكد لا مقيد كقوله ولا طائر يطير بجناحيه وقال تعالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » (١٠٦) والبرهان الحق والسلطان الأبلج طريقه تبيين الله ، والألهة الباطلة مستحيل أن يكون لها دليل أو برهان فهو نفى للسلطان والنزول معا مبالغة فى نفى الشريك بنفى لازمه على الطريق البرهانى (١٠٧) ولا يخفى عليك أن الصفة فى البلاغة تعنى المعنى القائم بالغير كما تلحظ فى الآية الأخيرة .

نفى الشىء لنفى ثمرته

ذلك أن الشىء اذا فقد ثمرته وما لأجله كان وسر وجوده كان نفيه أولى من اثباته ، بيد أنه قد يثبت الفعل ثم ينفى فى سياق واحد ، والاثبات هنا لصورة الفعل فحسب وشكله دون فحواه ، كقوله تعالى : فى مقام الذم للكافرين بأشق ما يذم به عربى على نفسه « وان نقضوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم » (١٠٨) فقد أثبت لهم أيمانا نفاها عنهم على وجه التأكيد ونفى الجنس ، لأنهم نقضوها نقضا بعد توثيقها وتأكيدها وتأمل موقع «من» هنا الدالة على تثبيت العهد والاقامة عليه زمنا ، ومن ثم يكون النقض أدخل فى الاجرام والقبح .

---

(١٠٥) المؤمنون ١١٧ . (١٠٦) آل عمران ١٥١ .

(١٠٧) راجع فى الآيتين : البحر ٣/٧٧ ، ٦/٤٢٥ والشهاب ٤/١٦٥، ٦/٣٥٠ .

(١٠٨) التوبة ١٢ .

وعن كتب السحر عند اليهود واشترائها قال تعالى « ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » (١٠٩) قال الطبرى فيما نسبه الى بعضهم أثناء تأويله « وانما نفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله لو كانوا يعلمون بعد وصفه اياهم بأنهم قد علموا من أجل انهم لم يعملوا بما علموا وانما العالم العامل بعلمه • ثم ذكر أنه مرجوح وان الأولى أن فى الكلام تقديما وتأخيرا بجعله جملة « ولقد علموا » بعد « لو كانوا يعلمون » وتقديم جمل على جمل فى التأويل رأى لا يقوم ، ثم ان الزمخشرى التقى بالمرجوح وصاغه بفن ولباقة قائلا : أثبت لهم العلم أولا على سبيل التوكيد القسمى ثم نفاه عنهم جعلهم حين لم يعملوا كانهم منسلخون عنه » وقد نقل السكاكى هذا التحليل بمجمل ألفاظه وقد حرصت على تتبع الفكرة تاريخيا حتى الطبرى لأن القزوينى والزركشى والسيوطى وكثيرا من المعاصرين تقليدا ينسبون هذا التحليل للامام السكاكى (١١٠) والآية تذم اليهود وتشنع عليهم استغالهم بالشر وشغفهم بالضرر وأنهم جبلوا عليه فحتى كتب السحر أقاموا لها سوقا نافقة حبا مستغرقا فى المال عن طريق الشر وتأمل الجناس اشتروا كتب السحر ليشروا أى يبيعوا أنفسهم للشيطان والجحيم تحس أن هؤلاء جبلوا على التجارة الضارة وبخاصة ما فيه دمار العقيدة والعقل والمال فكأنهم تخصصوا فى تدمير كل خير جاءت به الأديان •

ومن النفى والاثبات بيانا لتأييد الله لرسوله :

قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم • وما رميت اذ رميت

---

(١٠٩) البقرة ١٠٢

(١١٠) راجع الطبرى ٣٧١/١ والكشاف ٣٠٢/١ والبحر ٣٣٤/١ والمفتاح ١٧٢ والايضاح ٩٢ والاتقان ٨٢/١ •

ولكن الله رمى » (١١١) وكان هذا فى غزوة بدر حين احتشدت قريش فلتاه جبريل فقال خذ قبضة من التراب فارمهم بها ، فلما التقى الجمعان قال لعلى كرم الله وجهه : اعطنى قبضة من حصباء الوادى فرمى بها فى وجوههم وقال شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك الا شغل بعينيه ، فانهزموا » • وكان المسلمون — بعد المعركة — يفتخرون بمن قتلوا وأسروا • فبين الله لهم أن النصر من عنده وأنهم لم يقتلوهم ولكن الله قتلهم بتسليط المؤمنين عليهم • والقاء الرعب فى قلوبهم ثم لون الخطاب فى قوله « وما رميت » اظهارا لهذا الشىء المعجب الفاذ ، وهو بيان حال الرمى اثباتا ونفيا اذ تغير المرمى من الحصباء ، فى مسارات محددة راصدة قاذفة مع تكثرها واصابتها أهدافها كل حصاة بعين تحمل فى ذراتها هولا ورعبا يزن جبلا ، أى وما فعلت أنت يا محمد تلك الرمية المستتبعة لهذه الآثار الجليلة حقيقة حين فعلتها صورة فذلك خارج عن طوق البشر ، اعجازا وتأييدا وحثا على مزيد الشكر •

ومنه قول الله تعالى : صدر سورة الحج مصورا الهول الأكبر يوم القيامة : يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد •

ان الأسلوب يلف النفس البشرية فى دوامة من الهول يذرها ذاهلة خاشعة •

تعبيرا مزلزل الجلال عن معانى تشيب لها الولدان : هو مروع يذهل المرضعة عما هو قطعة منها وفلذة كبدها ، وتضع الحامل — من

---

(١١١) الأنفال ١٧ وراجع فيها الكشاف ٢/١٥٠ ، والبحر ٤/٤٧٧ وأبا السعود ٤/١٣ ومشكل القرآن للعز بن عبد السلام ١٢٦ •

رعب ــ حملها • دون أن تدرى ــ والناس فى ترنحهم وتخاذل جوارحهم وهمود نفوسهم وانقلاب حماليقهم خشوعا كسيرا سكارى ومـا هم بسكارى ، واين المسكر والموقف يطير العقول الراشدة •

لقد أثبت صورة السكارى الشكلية بتداخل حركاتهم ، واختلال توازنهم وضياع ارادتهم والتشبيه البليغ اتحد فيه المشبه بالمشبه به ، وحتى لا يظن أنهم سكرى على الحقيقة نفى عنهم السكر على وجـــه التأكيد ، وأصوات الحروف الخاصة وائتلاف الايقاع الخاص وتوزيع حروف المد مع كثرة حروف السين واللام والعين فى تناسق يجعـــل للايقاع وقعا نفسيا عميقا ان أثر الايقاع ضروب من الجلال والرهبة والهيمنـــة •

وهذا اللون اهتم به علماء البديع تحت اسم الاثبات والنفى ، كما نصوا على ما شمل فيه النفى الموصوف والصـــــفة بأنه نفى الشىء بايجـــابه (١١٢) •

ثم ان فكرة العام والخاص كانت تخايل للعلماء فيظهرون سرها البلاغى كقولهم ان اســتعمال العام فى النفى أبلــغ وآكد ، لأنه ينفى الخاص من باب أولى ، واستعمال الخاص فى الاثبات أبلغ لشــموله العام • ومن الأول قوله تعالى فى حوار بين نوح والمــــلأ من قومه : « قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين ، قال يا قــوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين » فبالغوا فى اثبات الضلال تأكيدا مكررا ، وجعلوا الضلال ظرفا له ، ووصفوه بالوضــوح المبين ، فبالغ فى نفى الضــلال عن نفســـه أى ليس بى شىء من الضــلال وقــدم

---

(١١٢) وراجع العمدة ٧٦/٢ والمثل السائر ٢٢٩/٢ وبديع القرآن ١٥٢ والبحر ٣٥٠/٦ والتصوير الفنى ٦٠ •

الظرف « بى » لاختصاص النفى به واثبات الضلال لهم وهو تعريض بضلالهم (١١٣) ومنه « فلا تقل لهما أف » (١١٤) .

ومن الثانى . قوله تعالى : « فلما أضاءت ما حـــوله ذهب الله بنورهم » من مثل ضربه الله للمنافقين فى سورة البقرة : فهـــو نفى للضياء من باب أولى اذ فى الضياء دلالة على الزيادة فلو قيـــل « ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة وبقاء ما يسمى نورا والغرض كما يقول فى الكشاف « ازالة النور عنهم رأسا وطمسه طمسا » وهو متلائم مع قوله تعالى وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » ثم مع اسناد الذهاب الى لفظ الجلالة عز وجل ودخول الباء على النور لبيان المحـــو الكامل المنتقم (١١٥) .

وانطماس البصائر فكلما ازداد ضوء الحق تألقا واشراقا ازدادوا هم ظلمة وانتكاسا (١١٦)

تبـــادل الأســـاليب :

بمعنى دلالة أسلوب على أسلوب آخر مبالغة ودقة تصوير ، ورفاء بالاغراض :

١ ـــ من ذلك ورود الخبر مرادا به الأمر حثا على المسارعة الى الامتثال ، وكأنه نفذ ثم أخبر عنه ، وهو كثير كقوله تعالى « والمطلقات

---

(١١٣) راجع الشهاب ١٧٩/٤ والمثل السائر ٢٣١/٢ .

(١١٤) وراجع المثل ٢٣٣/٢ والبديع القرآنى ١١٦ والتفاسير التى سبقت فى تحليل الآية .

(١١٥) وراجع فى الآية الكشاف وحاشية السيد ١٦٩/١ ومشـــكل القرآن للعز بن عبد السلام ٨١ والشهاب ٣٠٩/١ .

(١١٦) انظر النبأ العظيم د. دراز ١٦٨ ـ ١٧١ .

يتربصن » (١١٧) « فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم » (١١٨) « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » (١١٩) « ولله على الناس حج البيت ... » (١٢٠) . وأكثر ما ورد من ذلك أمور تشريعية لا تستقيم بدونها الحياة عبادة وسلوكا واجتماعا .

٢ ــ من الخبر مراد به النهى قوله تعالى « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا » (٢١) : أى لا تعودوا .

٣ ــ من الخبر مرادا به الدعاء « رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » (١٢٢) .

٤ ــ قد يعبر باسلوب النفى عن أسلوب النهى وذلك حين يقتضى المقام اعتناء بشأن المنهى عنه وتأكد طلبه فيعبر بالنفى اخبارا كما مر فى تعليله كما فى قوله تعالى : « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا » وأسلوب النفى والا مناسب لأخذ الله الميثاق على بنى اسرائيل . ويعضد ذلك قراءة « لا تعبدوا الا الله » والقرينة على تأويل النفى دلالة السياق ، ثم دلالة الواقع الحالية وهو أنه لو كان خبرا ما تخلف وقد وقع منهم عبادة غير الله تعالى ، ومثله قوله تعالى « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين (١٢٣)

---

(١١٧) البقرة ٢٣٨ .
(١١٨) البقرة ١٩٦ .
(١١٩) البقرة ٢٣٣
(١٢٠) آل عمران ٩٧
(١٢١) النور ١٧ .
(١٢٢) المؤمنون ٩٧ .
(١٢٣) التوبة ١١٣ .

أى لا تستغفروا لهم ودخول ما على كان ولام الجحود مبالغة فى التعليم والعقاب أي ما كان ينبغى لهم فعل ذلك ماضيا حتى يحرصوا على تركه آتيا ، ومثله « لا اكراه فى الدين » (١٢٤) وهو مطلق وان قيده الامام ابن الشجرى بأن ذلك قبل أن يأمره بالقتال : يريد آية السيف فى سورة التوبة .

وقال الله تعالى : معددا جرائم اليهود « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » (١٢٥) حظرا للقتل وتنفيرا منه بتصوير المنهى عنه بصورة تنفر منها النفس والطباع وتأمل : دماءكم فهم يقتلون أنفسهم بأيديهم تأكيدا لبشاعة القتل وتمهيدا للتشنيع عليهم حين لم يمتثلوا « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » (١٢٦) .

بين النفى والنهى

وقد يتوقف أو يختلف العلماء فى بعض الأساليب المنفية هل هى نفى ظاهرا وباطنا أو دالة على النهى كما فى قوله تعالى « انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون » (١٢٧)

فقد روى الطبرى عن جمع من الصحابة رضى الله عنهم أن المراد بالمطهرون الملائكة أو الملائكة والرسل وليس أصحاب الذنوب من البشر، والكتاب المكنون : المصون عند الله .

---

(١٢٤) البقرة ٢٥٦ .
(١٢٥) البقرة ٩٣ .
(١٢٦) راجع فى تبادل الأساليب : الأمالى الشجرية ٢٧٢/١ والمحصول للرازى جـ ١ قسم ١ ص ٥٢ والايضاح ٢٤٥ .
(١٢٧) الواقعة ٧٧ ـ ٨١ .

ثم اختار العموم فالمطهرون شامل للملائكة والرسل ومن كان مطهرا من البشر ، ويفهم من هذا أن النفى مراد به النهى على رأيه .

وتردد الرأيان عند الزمخشرى وأبى حيان وأبى السعود فاذا كانت الجملة « لا يمسه » صفة أخرى لكتاب مكنون فهو نفى واخبار ، وان كانت وصفا للقرآن « انه لقرآن » فهو نفى بمعنى النهى أى لا ينبغى أن يمسه الا من كان على طهارة من الناس .

ورجح الرازى أنه نفى واخبار لفظا ومعنى ، وأن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ بدليل « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ذلك أن تسلسل ألفاظ الحفظ يبدأ بمنشور ثم مستور فاذا كان شريفا عزيزا لا يكتفى بالصون والحفظ بل يستر عن العيون ، فان ازداد عزة فبأن يكون مخزونا ثم يجعل مدفونا فقوله : مكنون أى محفوظ غاية الحفظ فذكر اللازم وأراد الملزوم ، وذكر كلمة كتاب لتأكيد الرد على الكفار اذ يقولون انه مخترع فقال فى كتاب أى لم ينزله به الملك الا بعد أن أخذه من كتاب فهو ليس بكلام الملائكة فضلا عن الجن « ومكنون » ردا على من قال أساطير الأولين .. ثم هو يضعف رأى ابن عطية القائل بأن المعنى على النهى (١٢٩) ويرى الرازى أيضا أنه لو كان المراد نفى الحدث لقال لا يمسه الا المتطهرون أو المطهرون بتضعيف الطاء ، ومع أنه فى الكشاف حكى القراءتين قال الرازى القراءة المشهورة الصحيحة المطهرون من التطهير لا من الاطهار » (١٣٠)

والرازى رحمه الله كان عقلا كبيرا جبارا وله لمحات فذة جليلة فى تفسيره وفكرة سلسلة ألفاظ الحفظ من الافكار البكر التى لم يستعلها

---

(١٢٨) راجع الكشاف ٥٩/٤ والبحر ٢١٤/٨ وأبا السعود ٢٠٠/٨

(١٢٩) راجع الرازى ١٩٣/٢٩ والبحر ٢١٤/٨ .

(١٣٠) الرازى ١٩٦/٢٩ .

العلماء فى اللغة والبلاغة ذلك أنه لم يكتف كالعلماء بانكار الترادف وحتى اجتهادهم أحيانا فى تعيين دلالة المترادفين كصنيع الخطابى والراغب بل انه لمح هذه الاختلاف فى درجات المعنى وتسلسله ومناسبة كل لفظ بدرجة من المعنى لمقام خاص ، وهى فكرة فاذة لو استغلت فى المعاجم وعلم الدلالة والبلاغة والنقد فى تحليل النصوص وبيان اصابة المعنى الذى اكثروا منه قولا واصفا دون مزيد من التطبيق نعم لو استغلت لاعطت اللغة بعامة والقرآن بخاصة بعض المكنون من أسراره الجليلة .

المهم أن الرازى كان مرجعا أساسيا لتحليلات ابن القيم فى بدائع الفوائد لهذه الآية التى ذكر فيها ما ذكره الرازى وزاد تأكيدا لرأيه أن الآية مكية فى سورة مكية تتضمن اصول العقيدة وهـذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملى وهو حكم مس المحدث للمصحف ، وأنه لو أريد المصحف لم يكن فى الاقسام بهذا القسم العظيم الجليل كبير فائدة(١٣١) فالمعنى على النفى تكريما وتنزيها وترغيبا فى القرآن أليق وأخلق بالأية . والله أعلم .

---

(١٣١) راجع بدائع الفوائد ١/١٩ والتفسير القيم ٤٨٢ .

الاستفهام القـرآنى

الاستفهام لون من ألوان التعبير ينقل أدق المشـــــاعر وأعمق الأحاسيس ، ويبث أخفى الخواطر والهواجس باعثا فى نفس المتلقى شـتى الايحاءات المتوهجـة المتداخلة فتحس نبض القلوب فى نبض الكلمات وحرارة الانفعالات فى التعبيرات ، التى تنتفض حرارة وحياة ، وهو أسلوب لا يعتمد المنهج العقلى المجرد بل يغلب عليه اثارة العواطف وشحن الوجدان فهو أسلوب وجدانى بالدرجة الأولى ولا شـــك أن الاستفهام القرآنى كغيره من وسائل الأداء حياة مليئة نابضة لا يعالج عالم الانسان الداخلى والخارجى أو الأكوان المحيطة به والتحـــــام الانسان بها فحسب بل يمد جناحيه ليستوعب الزمان كله بأقســـامه وأحداثه بل وما قبل الزمان وما بعده من نشأة الخلق ومشاهد البعث .

منـاهج البحث فى الاستفهام القرآنى :

فى التراث الاسلامى أكثر من اتجاه فى البحث الاستفهامى :

ـ فهناك منهج النحاة وأكثرهم يذكر أدوات الاستفهام ودلالاتها والتمييز بينها وهم يعرضون ـ أثناء بحثهم ـ لبعض معانيها البلاغية فى تخفف وسرعة وتمثيل دون تحليل غالبا بدءا بسيبويه ثم من بعـده ومن أبرز هذه المؤلفات أمالى ابن الشجرى ، والمغنى لابن هشام .

ـ وهناك منهج المفسرين بدءا بالكشاف فهم فى تفسـيرهم للذكر الحكيم يذكرون المعانى البلاغية لأدوات الاســتفهام وبعض أسرارها وعلاقتها بالسياق أحيانا وأبرز من اهتم بذلك الامام الرازى والشهاب الخفاجى .

وهناك اتجاه المؤلفين فى علوم القرآن كالزركشى والسيوطى ، وللزركشى رحمه الله ــ منهج اختص به فقد قسم الاستفهام الى استفهام بخر يشمل الانكار بنوعيه (التوبيخى والتكذيبى ــ) والتقرير بنوعيه (التحقيق وحمل المخاطب على الاقرار) وكذا ما يتفرع مع التقرير من معان بلاغية أوصلها أحد عشر معنى ، والى استفهام انشاء وهو ما أفاد معنى انشائيا كالأمر والنهى والدعاء والتمنى ونحوها وقد بلغ بها ثمانية عشر معنى ، وجعله الانكار والتقرير بمعناه الثانى يئول الى الخبر دعوى بلا دليل ولى لأعناق الأساليب ومخالفة للعلماء ، لأن معنى الاستفهام مصاحب لتركيب الاستفهام ومعناه ، كما ان للسيوطى رحمه الله اتجاها خاصا أيضا فى الاتقان ومعترك الأقران ، فقد عدد معانى الاستفهام تباعا دون تحليل وأوصلها الى اثنين وثلاثين نوعا وقد اتبعه الدكتور أحمد مطلوب فى معجم المصطلحات البلاغية ، قصدا الى تكثير الاقسام دون داع اذ تداخل الاقسام وانضواء كثير من الأنواع تحت الانكار والتقرير والتنبيه مثلا ثم انه اتبع طريقة السرد والتمثيل دون التحليل (١) .

وهناك منهج البلاغيين من مدرسة السكاكى وهو أمثل المناهج فهو يبدأ بالبحث فى الدلالات الحقيقية للأدوات ــ على ضوء ما كتب عبد القاهر فى الدلائل ــ ثم المعانى البلاغية المتولدة عنها بمعونة القرائن ، وقد قدم الأستاذ عبد العليم فوده بحثا طيبا لأساليب الاستفهام القرآنى عالجه من الناحيتين النحوية والبلاغية واهتم

---

(١) وهذا غير ما ذكر الزركشى والسيوطى فى بحث الأدوات فقد تعرضوا لأدوات الاستفهام واستعمالاتها والاهتمام بالأدوات لون من البحث قديم تجده عند الرمانى فى حروف المعانى والمرادى وابن هشام (وراجع مقدمة حروف المعانى للدكتور عبد الفتاح شلبى .

بالجانب الاحصائى ودلالاته ، والحق أنه بحث موجز جدا كان من الممكن ان يخرج فى اضعاف حجمه وبخاصة فى الجانب البلاغى ولذا فقد عنده الجانب التحليلى للأساليب ، وتعاون النسق لاداء معنى قوى يقتضيه المقام ، كما أن فكرة الموازنات بين المتشابهات لم توجد اصلا، ثم انه جعل المعانى الأصلية أحد عشر معنى والفرعية خمسة عشر وهو تقسيم ذوقى أو شخصى انطباعى فهو عد التعجب والاستبطاء من المعانى الفرعية مع أنها وكثيرا غيرها جاء أصليا فى عديد من الاساليب وتأمل قول الله تعالى « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » فالتعجب هنا أصيل أدى بالأمر والاستفهام أو بالاستفهامين المتوالين — كما سيأتى قال ابن الأثير فى النهاية « الم تر الى فلان أو الى كذا » كلمة تقولها العرب عند التعجب من الشىء وعند تنبيه المخاطب كقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب أى ألم تعجب لغفلتهم أو ألم ينتك شأنهم اليك » (٢) كما أنه — جزاه الله خيرا — قد يذكر معنى ذوقيا بحتا دون دليل كقوله فى الآية : أتجعل فيها من يفسد فيها » على ألسنة الملائكة لله خالقهم جعله للانكار والتعجب وهو معنى غير مناسب ضعفه العلماء الى غير ذلك مما يأتى أثناء البحث.

ونعتقد أن الاستفهام القرآنى وغيره من طرق الأداء يتسع لمناهج عديدة تتآلف ولا تتنافر بيد أن ما نميل اليه علاج البلاغة القرآنية من خلال الأغراض والقضايا ما أمكن ويترتب على ذلك عقد الموازنات الأسلوبية التى تتكشف فيها الدلالات وتتكيف فيها الصياغة على نحو يناسب الأنساق المختلفة أو المتقاربة ويعين على استشفاف ما تمتلىء به التراكيب من شحنات شعورية أو ما يستكن فى طواياها من ظلال

---

(٢) النهاية فى غريب الحديث ١٧٨/٢ .

والمهام وهذا أدعى الى التحليل الفنى للأساليب التى يتآزر فيها النسق والمهام وهذا ادعى الى التحليل الفنى للأساليب التى يتآذر فيها النسق فى وحدة خارقة على تصوير المعنى بجزئياته فغالبا ما يكون قطع التراكيب من جسم النسق مدعاة لتجاوزات فى الأحكام ، على أن استحضار المعنى العام فى أساليبه المتنوعة وعلى وجوهه المختلفة يضع أيدينا ــ كما سبق ــ على فيض من دقائق الأسرار البلاغية تتكيف بها الكلمة صياغة واستعمالا •

وقد وجدنا لهذه الطريقة آثارا طيبة ثم اننا لا نتعصب لمنهج معين بل ان التراث كله وما ألف المعاصرون فى فروع المعرفة الاسلامية والعربية مرناض لنا ومراح نأخذ منه ما يدعم رأيا أو يكشف وجها من القول سواء كان صاحبه صاحب نحو أم أصول وسواء انتمى الى الاتجاه الأدبى البلاغى أم البلاغى المنطقى حتى فى حاشية أو تقرير المهم توفيق الله تعالى فى اكتشاف خافى العلاقات بين الأساليب والآراء والصبر على ارتياد هذا العالم العجيب عالم التراث المهيب الذى أسس صرحه آلاف العقول النابغة على مدى قرون متطاولة من عمر الزمان •

وقد اقتضى طول البحث تقسيمه الى ثلاثة أجزاء أولا دلالة أدوات الاستفهام ثانيا الاستفهام الحقيقى فى القرآن وخصائصه وثالثا الاستفهام البلاغى أو المعانى البلاغية للاستفهام وهو أخطر الأقسام وأكبرها •

١ ــ الاستفهام :

أصوله البلاغية ودلالة أدواته :

الاستفهام : طلب حصول الفهم ، أو طلب حصول الشىء فى الذهن فقولك : أزيد قائم : طلب لحصول نسبة القيام الى زيد ــ فى الذهن

ـ ووجودها فيه ؛ ويستلزم ذلك اتصاف الذهن بالعلم بتلك النسبة • وقد اعترض على ذلك بصيغ خاصة فى صيغ الأمر : كقولك « علمنى أمرا » فهو طلب لحصول أمر هو العلم فى الذهن ليصير معلوما وقد رد على ذلك بأحد أمرين :

الأول : أن يقال ان الاستفهام طلب ذلك بأدوات مخصوصة •

الثانى : عميق دقيق ذلك أن الكيفيات النفسية ووجودها فى الذهن والنفس تحدث بأحد طريقين :

الأول : أن يتصف بها الانسان وتترتب عليه آثار خارجية ككون الانسان شجاعا يخوض المعارك أو عالما يكتشف الأمور ويسمى هذا الوجود النفسى أو الأصلى •

الثانى : تصور الشجاعة والعلم دون الاتصاف به ويسمى وجودا ظليا أو مثاليا ، ولا تترتب عليه آثار خاصة ، والوجود الأصلى متحقق فى الأمر نحو علمنى أى حصول العلم من حيث اتصاف النفس به ووجوده فيه على طريق الأصالة وان كان مستلزما تصوره فى الذهن• والوجود الكلى أو المثالى متحقق فى الاستفهام نحو أزيد عالم فهو طلب لحصول نسبة العلم الى زيد فى ذهن المتكلم ووجودها فيه أو تصورها تصورا ظليا أو مثاليا أو انعكاسا لما عند المخاطب وهذا التصور لعلم زيد لا تترتب عليه معرفة بقضايا العلم ولا آثار خارجية أخرى •

ولذا فالاستفهام : طلب ادراك أمر ، والأمر ، طلب وقوع أمر لا ادراكه ، وهذا حاسم فى بيان الفرق بين ما يتشابه فى الأسلوبين من بعض التراكيب (٣) •

---

(٣) راجع فى هذه الدقائق : حاشية الدسوقى ٢/٢٤٦ وحاشية عبد الحكيم ٣١٨ تقريرا لامبابى ٣/١١٠ •

والمطلوب معرفته قد يكون مفردا أو نسبة ، وادراك المفرد يسمى تصـــورا وذلك عند التردد فى تعيين أحد الشـــيئين أى يتردد المتكلم فى تعيين أحدهما بعيدا عن النسبة كقولك أزيدا أكرمت أم بكرا ؟

والتصديق هو ادراك وقوع النسبة التامة بين المسند والمســند اليه أو عدم وقوعها بحيث يكون المتكلم خالى الذهن مما اســتفهم عنه فى جملته مصــدقا للجواب اثبــاتا بنعم أو نفيا بلا كقولك هــل قرأت السهيلى وكما يسمى تصديقا يسمى حكما واســنادا وايقاعا أو ايجابا وســلبا ويكون الجواب بنعم أو لا ، بينما يكون الجواب عن التصــور بتعيين المسئول عنه وذكره ، سواء كان أصلا فى الاســناد كالمسند اليه والمسند أم متعلقا كالمفعول والظرف والحال •

أدوات الاستفهام ودلالتها الحقيقية واستعمالاتها :

وهى : الهمــزة وهــل ، ومن وما ومتى وأيان وأين وكيف ومتى وكم وأى •

والهمزة يطلب بها التصور تارة والتصــديق تارة أخرى ، وهل يطلب بها التصديق فقط وباقى الأدوات يطلب بها التصور فقط •

واطلاق التصــور على تعيين المفــرد تجوز فى التسمية والتعبير لأن التصــور فرع التصــديق ، وتعيين المفرد وتعلق النســبة به هو تصديق ــ كما نص المحققون ــ فالتصور اصطلاح ولا مشاحة فيه•

اســتعمال الهمزة :

والهمزة يليها المسئول عنه ، والمشكوك فيه ، ذلك أن الجملة بما فيها من مســند اليه ومســند ومتعلقات متعددة يصــلح كل واحد من ذلك أن يشك فيه وأن يسأل عنه •

ولذا جعلوا تقديم المسئول عنه بعد الهمزة قرينة ورفعا للتوهم والالباس فلو قلت أزيدا أكرمت يوم الجمعة اقتضى أن زيدا هو المسئول عنه ، المطلوب تعيينه ، وأن الاكرام منك ثابت له فى هذا الظرف ؟

واذا أتيت بأم المعادلة أو المتصلة التى يكون ما بعدها معادلا ومساويا لما يقابله داخلا معه فى حيز الاستفهام متصلا به كانت قرينة على تعيين المسئول عنه تقول : أزيدا أكرمت أم عليا ، أيوم الجمعة سافرت أم يوم الخميس ولا يجوز أزيدا كرمت أم أهنت ، لأن تقديم زيد يعنى أن الشك فيه وأنت تطلب تعيينه ، وقولك : أم أهنت : يعنى أنك تشك فى الفعل أهو الاكرام أم الاهانة ، وهما متضاربان لأن تقديم المتعلق يعنى القطع بوقوع الحدث .

ومن الدقائق التى اهتدى اليها عبد القاهر فى محاولته استكناه أسرار التراكيب واكتشاف دقائقها من خلال التغيرات فى النظم بين ما يجوز وما لا يجوز وما يحسن وما يقبح ، وما يؤدى معنى خاصا فى تقديم كلمة لا يؤديه لو تأخرت مما يدخل فى فلسفة التعبير أو فلسفة الدلالة والأسرار الخفية لبناء العبارات .

من ذلك أنه اذا ولى الهمزة الفعل فقلت : أبنيت الدار ؟ أضربت زيدا كان الشك فى الفعل وفى حدوثه ، ولذا لا يجوز أن تقول : أبنيت هذه الدار ؟ أكسرت هذا الزجاج . لعدم صحة المعنى : لأن تقديم الفعل يعنى أنك شاك فى حدوثه . أوقع أم لم يقع ؟

وقولك : هذه الدار ، وهذا الزجاج يعنى أن الفعل واقع وأنت تشير اليه ، وهما متدافعان .

ويجوز : أأنت بنيت هذه الدار لأن الشك فى الفاعل ولا يجوز أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ، أأنت كتبت الرسالة التى

كنت تسطرها : للتناقض فى مدلول العبارة ، فتقديم الفاعل يعنى أن الفعل قد وقع والموصول يعنى أنه لم يقع .

كما يجب أن يكون الفعل خاصا مع تقديم الفاعل تقول انت كتبت هذه القصيدة ولا يجوز أانت قلت شعرا قط أانت رأيت انسانا لا يعنى للسؤال عن الفاعل من هو فى مثل هذا ، لان ذلك انما يتصور اذا كانت الاشارة الى فعل مخصوص نحو أن تقول من قال هذا الشعر؟ من بنى هذه الدار .. فأما قول شعر على الجملة ورؤية انسان على الاطلاق فمحال لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى تسأل عن فاعله .

كما يجوز أن تقول : أقلت شعرا قط أرأيت اليوم انسانا لأن قول الشعر على اطلاقه أو رؤية انسان يجوز الا تقع من المخاطب (٤) .

وفى قولك أأكرمت زيدا يمكن أن يكون للتصور أو التصديق بمعونة القرائن سؤالا عن المفرد أو عن النسبة ويجاب عن الأول بالتعيين : أكرمت أو أهنت وعن الثانى بنعم أو لا .

فاذا دخلت الهمزة على جملة اسمية وذكرت بعدها أم المتصلة نحو أزيد مسافر أم بكر قادم : الأحسن أن يلى الهمزة المسئول عنه تقول : أعندك زيد أم فى الدار ، وقال الشريفى فى شرح المفتاح يجوز المخالفة نحو : أعندك زيد أم عمرو ، وألقيت زيدا أم عمرا كما قال سيبويه : التقديم فى نحو أزيدا لقيت أم عمرا أحسن ، وأنك او أخرت فقلت ألقت زيدا أم عمرا لكان جائزا حسنا (٥) .

---

(٤) راجع الدلائل ٨٥ وما بعدها وشروح التلخيص ٢/٢٥٠ وحاشية الامبابى ٣/١١٠ .

(٥) راجع عروس الأفراح ٢/٢٥٣ وتقريرا لامبابى ٣/١١٤ .

هـــل :

أما هل فهي لطلب التصديق لا غير وتدخل على الجملتين الفعلية وهي الأصـــل والاســـمية • تقول : هل قام زيد ؟ وهـــل زيد قائم ، قالوا ولاختصاصها بطلب التصديق امتنع أن يقال هل زيد قام أم عمرو لأن وقوع المفرد بعد أم دليل على أنها متصلة ، وأم المتصـــلة لتعيين أحد الأمرين مـــع العلم بثبوت أصـــل الحـــكم ، وهل لطلب التصـــديق فبينهما تدافع •

فان ورد ما يوهم ذلك أولت « أم » على الانقطـــاع كقول النبى صلى الله عليه وســـلم لبعض صـــحابته « هل تزوجت بكرا أم ثيبا » والمعنى بل تزوجت ثيبا وقد ردوا بهـــذا التأويل على ابن مالك الذى أجاز أن تقع هل موقع الهمزة واستدل بهذا الحديث (٦) •

ولاختصاص هل بالتصديق قبح « هل زيدا ضربت » لأن التقديم يستدعى حصول التصـــديق بنفس الفعل ، فتكون هل طلبا لحصـــول الحاصل وهو عبث ، وانما لم يمتنع لاحتمال أن يكون «زيدا » مفعول فعل محذوف أو يكون التقديم لمجرد الاهتمام لا للتخصيص ، لكن ذلك خلاف الظاهر لعدم وجود القرينة ، فان وجدت قرينـــة على أنه لمجرد الاهتمام لم يقبح ، هكذا قالوا والواقع قبحه لا لهذا الاهتمام فى التقديم بل لأن اعراب «زيدا» مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده قبيح عندهم لأن فيه حذف فعل الأول وحـــذف مفعول الثانى دون دافع بخـــلاف الاســـتعمال المعهود : هل زيدا ضربته فانه لا يقبح على أن تجويزهم التقديم للاهتمـــام فيه الباس ، وكثرة هذا التمحل دليل على ضـــعف الأسلوب : هل زيدا ضربت » •

---

(٦) راجع الامبابى ١١٦/٣ ومغنى اللبيب ٤/١ ٠٤

أما مذهب السكاكى فهو أن تقديم الاسم لا يفيد التخصيص الا اذا كان نكرة وكان مقدما عن تأخير ، فاعلا فى المعنى ، نحو : رجل عرف ، ولذا جاز عنده الابتداء بالنكرة لأنها مقدمة من تأخير ، واذا أخر فقيل عرف رجل : كان رجل بدلا فى الضمير فى عرف ، وحين يتوفر الشرط ويفيد التركيب الاختصاص يقبح أن يقال هل رجل عرف بل لا يصح (٧) .

وقد اعترض على السكاكى بأن التركيب زيد عرف ليس للتخصيص عنده ويلزمه أن قولك هل زيد عرف غير قبيح مع أنه قبيح بانفاق العلماء ، والواقع أننا لا نلزم السكاكى بشىء لم ينص عليه .

وقد علل بعضهم قبح : هل رجل عرف ، وهل زيد عرف بأن هل بمعنى قد فى الأصل وأصلها : أهل وتركت الهمزة قبلها لكثرة الاستعمال وكثرة وقوعها فى الاستفهام فأقيمت مقامها وتطفلت عليها ، وتشربت معناها — كما يقول السعد — وقد من خواص الأفعال فكذا ما هى بمعناها ، وانما لا يقبح دخولها على الجملة الاسمية نحو هل زيد قائم لأنها اذا لم تر الفعل فى خبرها تسلت عنه وذهلت بخلاف ما اذا رأته فانها تذكرت العهود وحنت الى الألف المألوف فلم ترض باقتران الاسم بينهما .

وهذا الرأى الذى علل له السعد فى المختصر على التلخيص تعليلا شاعريا مجازيا هو رأى جمهرة من العلماء كسيبويه والكسائى والفراء والمبرد والزمخشرى والرضى والقرطبى ومن تبعهم وقد جعلوا هل فى قوله تعالى «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا

---

(٧) المفتاح ٢٢٣ .

مذكورا » بمعنى قد أتى ونسب الى عبد الله بن عباس وقتاده رضى الله عنهم •

كما رووا بيتا من الشعر دخلت فيه الهمزة على هل بيانا لأصل معناها وكأنه قد حدث لها تطور دلالى • قول الشاعر :

سائل فوارس يربوع بسدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

ونازع فى ذلك بعض العلماء منهم السيرافى ، وأبو حيان وابن هشام والبهاء السبكى الذى أفاض فى ذلك • وناقش فى حيدة وأمانة ، وأبطل أن تكون هل بمعنى قد ولا تساويها فى الحكم •

وذكر أن السيرافى فى أول كلام سيبويه بأن المراد أن هل يستقبل بها الاستفهام كما أن قد يستقبل بها الخبر •

وقال السيرافى عن البيت أنه بهل غير معروف والصواب أم هل رأونا ، كما ذكر السبكى رد شيخه أبى حيان على ابن مالك فى ذلك ثم قال فى نهاية تقريره البديع « وبالجملة ما ذكره الزمخشرى من كون هل بمعنى قد ان أراد المرادفة فهو فى غاية البعد أما قول المصنف (القزوينى فى التلخيص) انها فى الأصل بمعنى قد ، وما أوهمه كلامه من أن أصلها ذلك ثم صارت للاستفهام فلم يقل به أحد فيما علمت » وحقا ذكر الزمخشرى ذلك فى المفصل وفى الكشاف ولكنه ليس أبا عذره، بل نقل عن غيره من السابقين كأبى عبيدة والفراء والمبرد كما تقدم ؛ كما أن قول البهاء من أنه لم يقل أحد فيما علمت من أن أصلها قد ثم صارت للاستفهام ؛ فقد قال به كثير كالرضى وغيره ؛ وقد رد ابن هشام هذا الرأى والرد على الرأى الأول بايجاز أما هل فى آية الانسان السابقة وآية الغاشية : « هل أتاك حديث الغاشية » فلم تتفق كلمة العلماء فهى عند الطبرى خبر ويفهم من شرحه إفادتها التقرير • وفى الكشاف بمعنى قد للتقرير والتقريب وتبعه النيسابورى وأبو السعود فى الآية الأولى

أما آية الغاشية فقال انه استفهام أريد به التعجيب بما فى حيزه والتشويق الى استماعه وأنه من الأحاديث البديعة التى حقها أن تتلقى ويتنافس فى تلقيها ، (٨)

وضعف أبو حيان رأى الكشاف وقال : ان دخلت على الفعل فالأكثر ان تأتى للاستفهام المحض وكثير من العلماء على أنها فى آية الانسان للتقرير • وقد انفرد الامام البقاعى برأى عجيب هو أن الاستفهام انكارى على معنى أنه يترك سدى ، أى ليس الأمر كذلك بل ما أتى عليه شىء من ذلك بعد خلقه الا وهو شىء مذكور فهو المراد من العالم الذى ما خلق الا لأجله فكيف يترك سدى وكيف لا يبعث بدليل قول ابن مسعود رضى الله عنه وقد سمع رجلا يقرؤها « يا ايت ذلك لم يكن ، وقد أجاز أن تكون هل بمعنى قد ان قدرت الهمزة قبلها وهو يتبع الكشاف فى ذلك كما نقل البقاعى عن الامام جعفر بن الزبير ما يفهم منه التقرير والتعريف لا الانكار وهو الأوضح ورأيه فى الانكار غير معروف لأن الآية تومىء الى أزمنة سبقت خلقه كان عدما كقول الله لزكريا « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » (٩)

وهل تخصص المضارع بالاستقبال (١٠) بحكم الوضع كالسين وسوف ، وتخلصه لذلك بعد أن كان محتملا له وللحال ، وهذا خاص

---

(٨) راجع فى هذه القضية : ودلالة هل : الطبرى ١٢٥/٢٩ ، ١٠١/٣٠ والكشاف ١٩٤/٤ وشرح المفصل ١٥٢/٨ والبحر ٣٩٣/٨ وأبا السعود ٧٠/٩ ، ١٤٨/٩ وغرائب النيسابورى ١٠٩/٢٩ ، ٧٧/٣٠ والايضاح ٢٢٩ وشروح التلخيص ٢٦٠/٢ والمغنى ٣٥٢/٢ وشرح عقود الجمان ٥٠ وأساليب الاستفهام ١٠٩ •

(٩) راجع نظم الدرر للبقاعى ١٢١/٢١ ـ ١٢٣ •

(١٠) صحح البهاء هذه العبارة بأنها تخصص الاستقبال بالمضارع بمعنى أنه لا يكون المضارع الا للاستقبال ذلك أن المضارع قد يكون للماضى حين تدخل عليه بعض الأدات وراجع عروسة الأفراح ٢٧١/٢ •

بالمضارع ، فان دخلت على الماضى فلا تخصصه أولا تقلب معناه الى المستقبل قال تعالى : « فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم » (١١) ولذا لا يجوز بلاغة دخولها على مضارع حالى كقولك : هل تضرب زيدا الآن ؟ وهل تؤذى عليا وهو أخوك ؟ فهذا لا يجوز لأن قولك « وهو أخوك » قرينة على أن الاستفهام للانكار ، ولا ينكر فى العرف ما يقع فى المستقبل .

وهل لا تصلح لانكار الفعل الواقع فى الحال ، بخلاف الهمزة : تقول : أتضرب زيدا وهوأخوك ؟ أتؤذى أباك ؟ وقال تعالى « أتقولون على الله ما لا تعلمون » (١٢) ولا تقع هل موقع الهمزة فى ذلك كله .

والقرينة الدالة على أن المضارع حالى قد تكون لفظية ، ولا علاقة لها بالجملة الحالية التى تأتى مع الفعل فى كل حالاته وأزمنته تقول « هل تذاكر غدا وأنت مسافر وقال تعالى « انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار » (١٣) . وقال « سيدخلون جهنم داخرين » (١٤) وقال الشاعر :

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا على قضاء الله ما كان جالبا (١٥)

ولكون هل مقصورة على طلب التصديق وتخصيصها المضارع بالاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالفعل ، فدخولها على الفعل أكثر من الاسم واستدعاؤها له أشد ، ذلك أن التصديق هو الحكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفى والاثبات انما يتوجهان الى المعانى والأحداث التى هى مدلولات الأفعال لا الى الذوات التى هى مدلولات الأسماء والمراد الصفات المعنوية القائمة بالغير ، والنفى

---

(١١) الأعراف ٤٤ (١٢) الأعراف ٢٨
(١٣) ابراهيم ٤٢ (١٤) غافر ٦٠
(١٥) راجع شروح التلخيص ٢/٢٧٠ وتقرير الامبابى ٣/١٢١ .

والاثبات يتوجهان الى الأمور القائمة بالغير ، بخلاف المشتق فان مدلوله ذات مقيدة بالحدث ، وبخلاف المصدر فمدلوله : الحدث من حيث هو ، وبخلاف الذات نحو : زيد ، فهو قائم بنفسه ، ولا يقوم بغيره .

المهم ان شدة ارتباط هل بالفعل وضعا جعل دخولها على الجملة الاسمية لا يحسن الا من بليغ متمرس يحس نبض الأساليب فى مقامات راقية حين يقصد الدلالة على الثبوت أو الاستمرار الثبوتى ، وابراز ما سيوجد فى معرض الموجود اخراجا لهل على أصل وضعها ولذا كان قوله تعالى « فهل أنتم شاكرون » (١٦) أدل على الشكر من « هل تشكرون » وطلبه لكمال العناية به والرأفة بعباده حيث رضى منهم ما هو أهون عليهم وأيسر من الشكر غير مقيد بزمان من الأزمنة ، والآية « فهل أنتم شاكرون » أدل أيضا على كمال العناية من قولك « أأنتم شاكرون » لان الجملة مع الهمزة وان أفادت الثبوت الا أن لهل دلالة أقوى فى افادة هذا المعنى لأن انتزاع هل من اختصاصها وضعا وادخالها على الاسمية لا يكون الا لأمر فنى بالغ يخرج بها عن طبيعتها ولذا حملها بعض العلماء على افادة الأمر فى قوله تعالى « فهل أنتم منتهون » (١٧) أى انتهوا واذا قال عمر رضى الله عنه انتهينا مع ما فيه من استقصار الهمم وشحن الأرادة ، وعن صناعة الدروع وإلانة الحديد لداود عليه السلام جاءت الآية « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » أى اشكروا الله على ذلك ، وفيه ايماء الى التقصير فى الشكر قال البيضاوى « أخرج الأمر فى صورة الاستفهام للمبالغة والتقريع » (١٨)

---

(١٦) الأنبياء ٨٠ (١٧) المائدة ٩١

(١٨) راجع حاشية الشهاب على البيضاوى ٦/٢٦٧ .

ولعلك أحسست بجفاف التحليلات الخاصة بالفروق بين دلالات الأدوات واستعمالاتها لأنه أشبه بفلسفة اللغة والغموض وراء أسرارها واكتشاف ما تخلعه الأدوات على الأساليب المختلفة الصياغة من ضروب المعانى البلاغية التى ترجع أساسا الى ألوان الشعور وليس هذا طلبا للصحة اللغوية بل للجمال البلاغى .

الاستفهام الحقيقى فى القرآن

من المتعالم أن القرآن الكريم ملىء بالنماذج البشرية والشخصيات المتقابلة الى حد التباين يضرب فى أعماق التاريخ على مدى القرون المتطاولة ليحدثنا عن الأمم والأقوام الماضية وعن أنبيائهم وعن المؤمنين بهم والكافرين ، كما يصور لنا ما قبل تاريخ الانسان فى الملأ الأعلى عن قصة خلق آدم ويكشف المستقبل أو ما بعد الزمان فى عالم الأخره بقوانينه الخاصة وما فيه من تقابل مثير بين المعذبين بانفعالاتهم المتهرئة المتقدة ، وبين المنعمين فى سلامهم النفسى ودعتهم المترفة ، ولذا غلب الاستفهام البلاغى تصويرا حيا لمشاعر متباينة فتجاوز مائتين وألفا تعبر عن هذا الحشد الزاخر من الاحاسيس المركبة وقل الاستفهام الحقيقى بما لا يجاوز عشرين أسلوبا وهى أساليب لم تصدر عن رب العالمين عالم الغيب والشهادة بل جاءت على ألسنة الشخصيات القرآنية . (١٩)

والعجيب أن الاستفهام الحقيقى فى القرآن لم يكن مقصورا على طلب معرفة شىء مجهول كما حده العلماء فى حسم ، بل كان هذا المعنى الحقيقى مبطنا بألوان من المعانى الثانوية الخصبة والظلال المديدة التى لا تخرجه عن كونه حقيقيا وهذا من عجيب شأن القرآن .

---

(١٩) راجع فى الاحصاء : أساليب الاستفهام فى القرآن ١٩٢ .

من ذلك قوله تعالى « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون » (٢٠) والاستفهام « ما تعبدون من بعدى » مع أنه حقيقى نلمح فيه أيضا ما رددده أبوحيان عن العلماء من أنه تجربة لهم • ولم يقل يعقوب « من » بدل « ما » لئلا يتطرق اليهم الاهتداء وانما اراد أن يختبرهم ، وينظر ثبوتهم على ما هم عليه ، كما رأى بعضهم من الاستفهام الشفقة والدعوة الى الاخلاص فى الدين وألا تلهيهم الدنيا وهذه الشفقة هى مبعث الوصية لبنيه وآله وفهم أبو السعود منه التقرير على التوحيد وأخذ ميثاقهم على الثبات عليه اذ به تتم وصيته « لا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٢٢) لكن الواضح أنه حقيقى يفيد الاختبار مبعثه الشفقة ضمن وصيته بالتوحيد والاسلام •

وفى قول موسى للمرأتين فيما يذكر القرآن « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » (٢٣) فهو استفهام عن الشأن ودفعهما الماشية خوف الزحام مبعثه شفقته ورحمته عليه السلام وحبه عون الضعيف ودهشا من قوم لا يقدمون أضعفهم !

وفى استفسارات فرعون المتكبرة حينما دعاه موسى وهارون عليهما السلام الى الله الواحد « قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى

---

(٢٠) البقرة (٢١) البحر ١/٤٠٢
(٢٢) راجع أبا السعود ١/١٦٤ •
(٢٣) القصص ٢٣ •

كل شيء خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » (٢٤) .

فقوله « من ربكما يا موسى » : استفهام حقيقى ، فيه التعاظم والطغيان ولذا أضاف الرب اليهما ولم يقل فمن ربنا : ليلتئم مع ادعائه الألوهية وكأن الكون عنده امتلأ آلهة لكل فرق اله ، ولذا كان رد موسى ملجما قامعا « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هـــدى » أى رب العالمين خالق كل شيء وقائم عليه ولذا كان سؤال اللعين التالى « فما بال القرون الأولى » نابضا بالذكاء العـــاتى ليصرف موسى عن دعوته ويدخله فى متاهات تاريخية غامضة تشغله عن أمر الدين ثم ليجد لنفسه مجالا للأخذ والرد وادعاء العلم وبخاصة أن لمن ســبقه من المصريين تاريخا ضـــاربا فى أعماق الزمان فأجابه موسى عليه الســـلام ـــ كما قال أبو السعود ـــ بجواب عبقرى بديع حيث كشف عن حقيقة الحـــق حجابها مع أنه لم يخرج عما هو بصدده من الدعوة « علمها عند ربى فى كتاب » ولو قال الامام بجواب ملهم لكان أولى لأنه أثر لاجابة دعائه « رب اشرح لى صدرى » وتساؤل فرعون الحقيقى يومض بمعـــانى المخاتلة والاستدراج والمكر وحب الجدل الصـــارف عن الحق وتأكيد الذات وما اليها وهى لا تخرج الاستفهام عن كونه حقيقيا .

وقول سليمان عليه السلام « يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » (٢٥)

ففيه حث واستعانة وتشريف بالتكليف وتأمل الفارق بين الاستعانة المستعلية المشرفة هنا وبين استعانة بلقيس واستشارتها وهى تتهاوى تخاذلا وضعفا وانعدام حيلة وبهرا أضافت اليها خشعة الأنثى استخراء

---

(٢٤) طه ٤٩ ـــ ٥٣ وراجع فيها أبا السعود ٦/٢٠ ـــ ٢٢ .

(٢٥) النمل ٣٨ .

فاقعا فى قولها « يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » (٢٦) .

ان وراء الاسوب انكسارا ودمعا مقهورا حبيسا ، وفى احضار عرشها قال فى الكشاف ليغرب عليها ثم ليريها بعض ما خصه الله من تعاجيب واختبارا لذكائها وقال عيسى عليه السلام « من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله » (٢٧)

وهذه الاستفهامات وغيرها عقبت بجواباتها ، سواء طابق الجواب السؤال كما فى سؤال موسى ويعقوب وسليمان وعيسى أم لم يطابق لغرض بلاغى ومعنوى كالأية « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٢٨) وفى آية « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين » (٢٩) الآية : فهم يسألون عن الأصناف والأنواع فوجهوا الى الأهم وهو انفاق ما فضل عن الحاجة قليلا أو كثيرا من أى نوع طالما كان حلالا فى اخلاص وفى الآية الثانية: وجههم الى هؤلاء المحتاجين الى عونهم وبرهم وبخاصة اذا كانوا ضعافا مكسورى الاجنحة جبرا للتصدع الاجتماعى المسلم .

وقد لحظت أن الاستفهام الحقيقى محال صدوره من جهة الحق سبحانه ، ونقل الشهاب أنه يسمى استخبارا اذا كان من جهته تعالى لأنه لا يقتضى عدم العلم بالجواب بخلاف الاستفهام وتقييده الاستخبار بأنه لا يقتضى الجهل بالجواب تخصيص أو تقييد بلا دليل من وضع أو استعمال اذ معنى : استخبره : سأله عن الخبر وطلب أن يخبره ، كما أن الاستخبار كاصطلاح علمى لم يشتهر عند المتأخرين . ولذا كان الرأى على أن الاستفهام من جهته تعالى لا يراد به حقيقته بل معان بلاغية بحسب المقام ، وفى المسألة جوانب أمسكنا عنها لحينها .

---

(٢٦) النمل ٣٢ وراجع البحر ٧/٧٦ .
(٢٧) الصف ١٤ .
(٢٨) البقرة ٢١٩ .
(٢٩) البقرة ٢١٥ .

المعانى البلاغية للاستفهام القرآنى

درج علماؤنا على ان يذكروا — عابرا — لدى اسلوب استفهامى، معنى بلاغيا كالاستبطاء او التمنى أو الانكار التوبيخى او التحذيرى او التقرير وما اليها ، يقصدون — رحمهم الله — أن هناك معنى أو احساسا مسيطرا هو الأصل ، ولا ينفى معانى اخرى متوادة ممتدة متصلة بالمعنى الأصلى • ذلك لأن هذه المعانى التى ذكروها معان شعورية تموج فى النفس الانسانية متداخلة متعانقة او متقاربة ، وربما كان هذا سببا لما نراه من تعدد الآراء حول المعنى الذى يبديه أسلوب واحد ، وليس ذلك من باب التعارض بل التقارب لأن هذه المعانى شديدة التعانق أو التقارب ، والثقافة والموهبة المتذوقة نصيب فى تعيين المراد ثم ان النفس البشرية المنفعلة بما تتلقى دائمة التقلب ، كما ننبه الى أن هناك ما يعد تجمعات للانفعالات أو المعانى البلاغية كالانكار والتعجيب والتبكيت والتوبيخ والزجر وما اليها مما يمت الى القوة والشدة والغضب وهناك العتاب والترقيق والشفقة والتوجيه والارشاد والترغيب فى جانب آخر وغير ذلك •

ثم ان الاسلوب كله بجمله وكلماته وحروفه ودلالاتها وجرسها وصوتها بما فى ذلك الاستفهام المتصدر بدلالته وصوته كل ذلك يتآزر فى تصوير المعانى البلاغية أصلية وثانوية ، ومدى قوتها ودرجة اهتزاز النفس البشرية المنفعلة بها لا افراط ولا تفريط بل قصد واستيفاء يناسب المقام ، بل ان هناك فيما أحس — وبخاصة — فى الأساليب الراعدة — ضغطا على الأجزاء الأولى من التركيب ، ومع أن اللغة الفصحى — على الأرجح — لا يظهر فيها النبر أعنى الضغط على مقطع دون غيره — كما يقول علماء الصوتيات — نجد بوضوح فى بعض التراكيب الخاصة

هذا الشد النطقي أو النبر على الاداة وما يليها متميزا فى النطق ويعين عليه طريقة الصياغة من اختيار حروف معينة كل ذلك مختلف عن الأسلوب الخبرى ، والترتيل الجيد المتكرر قد يعين الأذن المرهفة على ادراك ذلك .

كما نلحظ فى أسلوب الاستفهام ، غالبا — الترقى أو تصعيد المعانى ذلك أن أداة الاستفهام تحدث فى التركيب ما يشبه التيار الكهربى تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانا توهجا وتأججا حتى يصل الى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام .

وفى القرآن يتفاوت المعنى كالانكار والتوبيخ مثلا قوة وضعفا حسب المتكلم وحال المخاطب لا يشبه أسلوب أسلوبا ولا غاية غاية فى سورتين مثلا الا فيما تشابه واهتم به العلماء ثم ان هذه المعانى البلاغية زائدة على معنى الاستفهام من طلب معرفة المجهول كالتمنى والسخرية لكن كيف يفيد الاسلوب هذه المعانى ؟ أهو على طريق المجاز أم الكناية أم يبقى على حقيقته ؟

لبهاء السبكى رأيان ، أولهما أن افادة هذه المعانى على طريق المجاز المرسل ، فالعلاقة فى الاستفهام الانكارى : أن المستفهم عنه مجهول ، والمجهول منكر ، فاستعمل لفظ الاستفهام فى الانكار بهذه الملابسة المصححة للمجاز الارسالى بمعونة القرائن (١)

ثم رجع الى رأى آخر هو أن الاستفهام يكون حقيقيا أبدا وافادته هذه المعانى بمعونة القرائن اللفظية أو الحالية ، وقد توسع فى معنى

---

(١) راجع عروس الأفراح ٢/٢٩٦ .

الاستفهام فلم يجعله محصورا بين المستفهم والمستفهم منه بل نغيرهما على العموم فينكرون ويحقرون ويتعجبون الى آخر المعانى وأيد رأيه بما ذكر ابن الحاجب فى شرح المفصل : أن الطلب لا يستعمل به مرادا به نوع آخر من الطلب ، بل قد يستعمل ويراد به الخبر ، أما طلب آخر فلا ، فلابد من التكلف لبقاء معنى الاستفهام فيه ، مع دلالة القرينة على ارادة شىء آخر •

كما عزز رأيه برأى الامام التنوخى من أن لعل تكون للاستفهام مع بقاء معنى الترجى • وأن قوله تعالى : الحاقة ما الحاقة : ليس استفهاما محضا •

ثم شرح بقاء معنى الاستفهام فى المعانى المرادة فالتعجب الاستفهام معه مستمر لأن من تعجب من شىء فهو بلسان الحال سائل عن سببه ، وكذلك التنبيه على ضلال لأن من لا يعرف غاية الضلال يسأل عنها منبها ، والانكار كما سبق (٢) •

والبهاء فى رأيه الثانى الراجح لم يبين طريقة افادة هذه المعانى ؟

لقد تبعه الدسوقى فشرح هذه العلاقات بين الاستفهام والمعانى البلاغية على أن ذلك مجاز مرسل بعلاقة الاطلاق والتقييد أو اللزوم ، ثم رجح رأى عبد الحكيم فى أن هذه المعانى مفادة عن طريق الكناية أو من مستتبعات التراكيب ، وهو الرأى الوحيد الذى يحمل عليه رأى السبكى (٣) ، ومعنى هذا أن المعانى الحقيقية للاستفهام يجوز أن تقصد فى الاستفهام مع المعنى الكنائى •

---

(٢) المرجع ٢/٣٠٦ ـ ٣٠٨ •

(٣) راجع حاشية الدسوقى ٢/٢٩٥ وما بعدها •

وليس هذا على اطلاقه ، ذلك أن كثيرا من هذه الأساليب ، لا يمكن ارادة المعنى الحقيقى منها ، اما لأنه معلوم عند المتكلم فتكون ارادته عبثا • أو مجهوله الجواب عند المخاطب أو المتلقى ، كقوله تعالى « واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ؟ » « وما أدرك ما هية نار حامية » أو قد يطلقها الانسان جاحدا ساخرا غير طالب الاجابة كقوله تعالى « متى هذا الوعد ؟ متى هذا الفتح » أو أن الجواب معلوم عند السائل والمسئول كما فى التهديد ، كقوله تعالى « فكيف كان عقاب » أو أن معانيها الحقيقية مستحيله لصدورها من جهة الحق تعالى ، فلابد اذن من اضافة احتراس هو أفادة المعنى البلاغى مع ارادة المعنى الحقيقى اذا لم يمنع مانع من عقل أو وضع أو شرع كحمل بعضهم قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » على الكناية مع استحالة المعنى الحقيقى •

وننبه الى أن العلماء كانوا يذكرون هذه المعانى البلاغية من انكار وغيره لا يريدون — فيما يتعلق بالاستفهامات من جهته تعالى — وصف البارى بحقيقتها • بل معالجة أسلوبية على المنهج العربى الذى نزل به القرآن ، لأن صفات الأفعال لا تنحصر ويتوقف فى وصف الله بها على الاذن الشرعى ولا تخلو من التسامح •

ورأى العصام انه اذا امتنع ارادة المعنى الحقيقى كان الاستفهام مجازا ، وان أمكن كان كناية (٤) والقول بالكناية مع الاحتراس أيسر من تكلف علاقات غير مقنعه — فى الأغلب — على القول بالمجاز الارسالى فى بعض الأساليب •

---

(٤) راجع الأطول ٢/٢٤٣ — ٢٤٦ •

الانكـــــار

الانكار من الأغراض القرآنية العامه ، وهو أكثرها شـيوعا فى القرآن ، وكان ركنا خطيرا فى دعوة القرآن الذى نزل هـداية للبشر واختار الله منهم العرب وهم أشد الناس تأبيا وأكثرهم نفارا وصلفا ، وأعتاهم عتوا وأعظمهم سلطانا ماديا ودينيا ، ضرورة ــ أن هدايتهم ــ والحل تلك ــ ايذان بهداية غيرهم .

نزل القرآن اذن فى قوم جمعوا رذائل الوثنية التى ارتبط بهـا سلوكهم فامتحنوا به ليكونوا قادة البشر ذلك انهم ــ مع تعصبهم لمـا ورثوه ــ كانت حساسيتهم للكلمة جد خطيرة ، فهى تهزهم هزا ، وتصل الى مواطن السر تزلزلها ــ بما للقرآن من قهر وجلال ، وتخلق منهـم بشرا آخرين بذات الملامح ولكن بقلوب مختلفة .

واعتمد القرآن أساليب تغزو كل طاقات النفس ، ومنافذ الحس، وروافد الفكر بقدر معلوم مناسب كما وكيفا لاختـــلاف الحـــالات والمناسبات كل ذلك لتغيير صفات موروثة ، ورذائل عتيدة ، وطبـاع ثابتة مظلمة ، صحيح أنهم ورثوا عديدا من الأخلاق الحميدة مما ينطوى تحت الفتوة العربية كالشجاعة والاباء وكرم الضيافة ، وحماية الجـار ونصرة المظلوم والذود عن المحارم ولكنهم وصلوا بها حد التطـــرف فقد نفى القرآن بواعثها فى القلب وحولها لتكون ــ فى اعتـــدالها ــ خالصة لله لا نعرة جاهلية . فأبدلهم بها صفات عالية وأخلاقا راقيـــة أساسها الوحدانية لله فى ذاته وصفاته . فى منهج الهى كان صـــوت الانكار فيه جهيرا ، انكار على الشرك ومظاهره ورذائله ، وما ارتبط به من تدن خلقى كالسفاح وشرب الخمر والتطير والقرابين والكهانة والظلم

والعقوق ، ثم نسف هذه الأوهام الزائفة بشأن الله تعالى الواحد الأحد لا ما يزعمون من التعدد والشرك والصاحبة والبنات والولد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن خلال دعوة القرآن قدم تاريخ الأمم مع أنبيائها ، وعالج الشر حتى قبل أن يسعى — فى الأرض — على قدمين من قابيل ، وابرز القرآن لمن جاور المسلمين من أهل الكتاب وقد رعى الحقد قلوبهم — فانكر عليهم شركهم وردىء صفاتهم ، ولما شغب اليهود كشف عن صفحات سود من تاريخهم مع أنبيائهم ترى رأى العين بذور الشر فى قلوبهم تنبت غرسا شائكا متكاثرا افسادا فى الأرض من قديم !!

ونبتت نابته النفاق تود الالباس واجهاض المد الاسلامى بالتمويه ففضح الله سرائرهم وطواياهم فى سور عدة من القرآن .

أما الجماعة المؤمنة وهم الهدف الجليل فقد والاهم تربية وتوجيها، ينكر منهم ما ينكر ويدفعهم الى أحسن ما يعملون .

ومن هنا انضوى تحت الانكار أغراض فرعية عديدة تتناسب المخاطب وحاله الخاصة أعنى ما اقترفه من وزر متباين بدءا بأدنى الرذائل وتصعيدا الى الكفر بألوانه ومن هنا كان الانكار مع التقبيح او التوبيخ أو التكذيب أو التعجيب أو التشنيع أو التبشيع أو التهكم اللاذع أو الخفيف الراحم ، أو التهديد الراعد ، أو التحقير النافذ أو التجهيل أو التهويل الى غير ذلك .

ثم كان القرآن العظيم صادقا أمينا فى وصفه ردود أفعالهم تجاه الدعوة ، ورسم خواطفهم وانفعالاتهم المتلونة العجيبة حين سفه القرآن أقدس ما عندهم . فقابلوا انكارا بانكار ثم زادوا بما يناسب جهلهم المتنوع المتدنى فكان الانكار صارخا لابسا من المعانى الثانوية والظلال كالتحقير والتعجيز والاستعجال والاستبطاء ونحوها .

ومن هنا قالوا ان القرآن الكريم حياة نابضة ، لا وصف حياة ، ومن هنا ــ أيضا ــ تأدى الانكار بكل وسائل الأداء ، وفى الاستفهام بأدواته جميعها ما عدا هل التى كثر بها التقرير وانفردت عن الهمزة ــ كما يقول أبو حيان ــ بافادة الجحد والنفى ، كما انفردت الهمزه دون هل بافادة التعيين والتوبيخ والانكار والتعجيب ، وهذا من سياق نقله السبكى عن شيخه فى عقد موازنة بين استعمال الهمزة وهل ، والا فان ما ذكره من التعيين وما بعده تأدى بغير الهمزة بل غلب الانكار والتعجب ، أو الاستبعاد على بعض الأدوات ثم ان علماءنا ــ رحمهم الله ــ عنوا بتقسيم الانكار الى توبيخ وتكذيب طلبا للتوضيح والابانة دون تحييد للمعانى أو تحديد لأنهم عند التحليل يذكرون من المعانى الفرعية ضروبا مما قدمناه . كما ننبه الى أن الانكار كان أحيانا معنى فرعيا ضمن أساليب ماجت بالتعجيب أو التقرير أو التوقيف على الآيات فى الآفاق والأنفس أو غيرها .

قضايا قرآنية فى الانكار

١ ــ التوحيد والايمان

التوحيد أو وحدانية الذات والصفات ووحدانية الالوهية كانت أم القضايا القرآنية أو مركزها يدور فى فلكها ما يتصل بها من تصديق الرسل ، وأن رسالتهم لا تنافى بشريتهم والبعث وما بعده ، وصدق القرآن والرسالة المحمدية وقضايا التوحيد والبعث وصدق الرسل وغيرها مما هو عام ــ كانت على مدى التاريخ ــ فى أوساط المكذبين ــ

---

(١) راجع عروس الأفراح ٢/٣٠٨ .

متار جدال ومراء عنيف ، وحنق وتحد وخصومة حمل اصره الملأ المترفون من كفار الأمم ، خوفا على سلطانهم وجاههم أن يزول ، وما زعمهم تقديس التقاليد وبشرية الرسل ، ثم اقتراحهم الآيات ، واستعجالهم العذاب ثم السخرية والولع بالرسل وأتباعهم ومحاولة البطش بهم ذلك وغيره الا سياجات مختلفة تحمى مصالحهم . وهذه الحرب اللسانية التى أخذت فنونا وألوانا صورها القرآن فى صدق وأمانة واعجاز يحيط بما فى قلوبهم نطقوا به أم ظل خبيئا فى السويداء كما صور القرآن احتشاد الرسل فى الدعوة والاقناع والدفاع والحجاج والتأثير لاقامة عالم التوحيد والفضيلة على أنقاض الوثنية ورذائلها . وقد لحظنا فى هذا الصدد :

١ — أن القرآن الكريم حكى أقاويلهم منسوبة اليهم اسما ظاهرا أو ضمير جمع غالبا دلالة على اشتراك معظمهم فى اللجاجة والخصومة وهذه الأقاويل والاعتقادات ذكرت فى الأعم الاغلب بصيغ الخبر المؤكدة وجاءت قليلا حين يقضى المقام بأسلوب الاستفهام المنكر فى نسق سبق غالبا بأسلوب خبرى تصويرا لتصاعد انفعالاتهم ، أما ردود القرآن سواء كانت على ألسنة الرسل أم بدءا كانت أقوى وأعنف وأكثر اقناعا واشد تأثيرا وأكثر بسطا واحاطة بالشبهة من جهاتها دفوعا وابطالا او ترقيا الى ذكر الله الواحد بآثار صفاته . وهناك قضايا كأنها رد شبه لم تذكر صراحة فى النسق وان دل عليهما كما سيأتى فى التحليل . والمهم أن الاستفهام فى الرد عليهم كان اضعاف ما ذكر من استفهام فى أقوالهم .

٢ — لم تنحصر ردود القرآن فى مدى الاستفهام بل اتسع ليشمل عديدا من الأساليب وطرق الأداء أو أجناس القول من قصص متعدد الصياغات والمناسبات والحلقات ومحاورات ومقاولات ، أو وعظ مسترسل ، أو ذكر آيات متواليات عن الكون وآياته أو القيامة وما فيها

كما كثرت الأساليب الجزئية كالوان البيان والبديع ومذاهب القـــول فى علم المعانى ونقتطف بعضا من هذه الوسائل :

أ ــ الاقسام المتوالية المتعددة بآيات الله وآثار قدرته ما ظهر منها وما خفى أقساما قوية مثيرة : كقوله « والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد » (٢) .

ب ــ بأساليب القصر المتنوعة .

٣ ــ بالأدلة البرهانية « قال من يحيى العظام وهى رميم قـــل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليـــم ... (٣) الآيات » « لو كان فيهما ألهة الا الله لفسدتا » (٤) .

٤ ــ بذكر مضارع المكذبين وأقاصيصهم .

٣ ــ قد تتوارد الاستفهامات معبرة عن وجهات نظـــرهم فى قضايا الايمان والتوحيد يكر عليها بالنقض والدفع والانكار والسخرية سواء كان الرد باستفهام أقوى أم بأخبار تتفجر سخرية وهولا كقوله : « ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذن قسمة ضيزى » (٥)

ولا شك أن هذه الطرق لم تأت لتحفظ بل انها مناهج ايمانيـــة وتعبيرية بمعنى ان تكون فى ضمائر الدعاة هذه الألوان البلاغية الراقية خدمة للعقيدة والمثل . والرقى بالانسان .

والمهم أن عالم الاستفهام القرآنى عالم تحتك فيـــه العقـــول وتتصادم الانفعالات وتتولد الشعاعات أنها الحياة تنتفض أحاسيس

---

(٢) الصافات ١ ــ ٥ (٣) يس ٧٨ .
(٤) الأنبياء ٢٢ (٥) النجم ٢١ ، ٢٢ .

عجيبة وتتلون أساليب بليغة أديت بما يفوق قوى البشر بلاغة ، ونكتفى بهذه الظواهر والآن الى البسط والتحليل •

١ ــ كثرت أقوال الكافرين المحكية بأساليب الخبر الخاصة المتوترة المؤكدة سواء جاء الرد آكد بالخبر أم بالاستفهام ••

قال الله تعالى : وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا » (٦)!

فقد حكى كلمتهم الآثمة الكبيرة بلفظ « قالوا » وذكر اسم الرحمن وبجانبه ما ادعى له تعجيبا فالاسلوب حاد التناقض ، فى تلافيفـــه دواعى نقضه ، ومع ذاك جاء الرد بالقسم المؤكد بأن قولهم الغريب اد وهذه الكلمة الغريبة ملائمة لغرابة تفكيرهم أو زعمهم وهو أمر منكـــر له حلية وصوت مناسب أيضا لهذا الصوت المهول المتخيل من تدمير هذا الكون الذى يوشك أن ينقض بسبب هذه القولة الجريئة وفيه ايحاء بأن استقامة الكون وانتظام قوانينه بسبب الوحدانية كما تدل آية الانبياء : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » •

ويتكرر اسم الرحمن فى الآيات أربع مرات ، وكذلك لفظ « واد » تفجيرا للتناقض كما قلت والآيات صيحة غضب تكثر فيها الكلمات الجزلة العنيفة والحروف المجهورة الشديدة •

ــ جاء قوله تعالى : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يشركون بديع الســـموات

---

(٦) مريم ٨٨ ــ ٩٢ •

والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(٧)

وحتى فى الحكاية عنهم زائغ اعتقادهم تجد المعجب المثير فى صياغة الحكاية التى تبث معانى الاستغراب والاستبعاد والتناقض الذى مر فى آية مريم وكذلك هذه الاية فان تقديم الشركاء المفعول الثانى على الجن يدل كما نبه عبد القاهر وغيره أولا انهم عبدوا الجن مع الله وثانيا ما كان ينبغى أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن ، انكارا لما سواه سبحانه • ثالثا : افادة العموم فى شركاء اذ لو أخر لكان اخبارا عن الجن خاصا به دون تعرض لمعنى الشرك على الاطلاق • رابعا : ما لحظناه دائما من وضع المعدوم المعبود باطلا بجانب لفظ الجلالة غالبا أو اسمه الرحمن قليلا نسبيا لافادة هذا التناقض المثير فى الدلالة •

وفى الرد توالت الجمل ساطعة الجلال والسطوة والانكار : بالتنزيه وكون الكون كله مخلوقا له فهو مبدعه سبحانه ثم الاستفهام الانكارى الاستبعادى « أنى يكون له ••••

وتكرير فكرة الخلق لمن سواه ، وأنه متعال عن خلقه : وهم فى دائرة قدرته وقدره ، يراهم ويخبرهم ويجازيهم •

٢ ــ ذكر زعماتهم الباطلة فى أسلوب استفهام جاء غالبا خاتمة لحكاية أقوالهم تصعيدا لمشاعرهم كقول عاد لأخيهم هود من جدال ومقاولات « أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » (٩)

---

(٧) الأنعام ١٠٠ ــ ١٠٤ •

(٨) راجع الدلائل ١٨٩ والايضاح ٢١٢ ونتائج الفكر •

(٩) الأحقاف ٢٢

وفى تجاهل فرعون ولعبه بالألفاظ تكبرا «فمن ربكما يا موسى»(١٠) وفى آيات الشعراء : « قال فرعون : وما رب العالمين » (١١) ورد موسى فى تحد ورمى لهم بالجنون « رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم تعقلون » (١٢) •

وعن مشركى مكة « واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » وكان الرد جليلا مهيبا ردته الأكوان المبدعة بيد القدرة « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » (١٣) •

وقال تعالى « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم : وقال الكافرون هذا ساحر كذاب : أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب » (١٤) ضمن آيات تسجل انكارهم وغضبهم وسبابهم « ان هذا الا اختلاق » والرد بدأ بالخبر وتصاعد بالاستفهام الانكارى « بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » وقد توالى استفهامان انكاريان بعدهما أمر تهديدى وكشف لبعض أمر الله الواقع بهم فى بدر •

أما مظاهر الانكار التى جاءت على ألسنة الرسل ردا مفحما أو من جهته تعالى فقد كانت — فى الجملة — على النحو التالى :

١ — انكار عبادة الأصنام والتماثيل وعبادة غير الله تعالى على العموم •

— جاء على لسان ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى مقاولاته لقومه :

---

(١٠) طه •
(١١و١٢) الآيات ٢٣ — ٣١ •
(١٣) الفرقان ٦٠ ، ٦١ •
(١٤) ص ٤ ، ٥ •

فى سورة الشعراء « اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين » (١٥)

ـ وفى سورة الصافات « اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين • وبعد ذهابه الى بيت الأصنام بدعوى السقم جاءت الآيات « فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم » (١٦) •

وفى سورة الانبياء جاء بعد آية من بدء القصة « اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » وبعد جعله الأصنام جذاذا الا كبيرا لهم واتيانهم بابراهيم على أعين الاشهاد قال « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا : حرقوه » (١٧) •

ونلاحظ من هذه السياقات :

تنوع السياقات قوة وغضبا وانكارا فى السور حسب الترتيب المثبت ثم تصاعد الانكار داخل السياق الواحد بتوالى الجمل والاستفهامات •

ففى الشعراء كان السؤال « ما تعبدون » أفاد قدرا من الانكار

---

(١٥) الآيات ٧٠ ـ ٧٥ (١٦) الآيات ٨٥ ـ ٩٧ •
(١٧) الآيات ٥٢ ـ ٦٨ •

مغلفا بالتعريض وحسن العرض وذكاء الاستدراج ولذا أجابوا وكأنهم لم يلمحوا تعريضه .

وفى الاستفهام « هل يسمعونكم » توبيخ وتوقيف . والأسلوب هادىء نوعا فبعد أن بين عداوته لأصنامهم انصرف الى ثناء صادق خالص على الله تعالى رب العالمين . أما فى سورة الصافات فقد بدأ الاستفهام شديد الانكار قوى الوقع نافذ التاثير ولذا توالت استفهامات ثلاثة وجاء فى الأول ذا الاشارية مع ما « ماذا تعبدون » ثم انكار الأفك وهو الآلهة المعبودة من دون الله على المبالغة فهى ذات الافك لأنها بدل منه وكان التعبير « دون الله » مصعدا للانكار كما فى نظائره القرآنية والاستفهام الثالث جاء نقطة غضب شديد التركيز وافر التأويلات : « فما ظنكم برب العالمين » أى بمن هو خليق بالعبادة لأنه رب العالمين الذى اشركتم به أخس مخلوقاته أو فما قدر معرفتكم له حتى جعلتم له أندادا من الأصنام أو ما تدرون ما يفعل بكم عقابا على شرككم (١٨) .

وفى مواجهته لهم بعد تحطيمه الاصنام وصل الاسلوب الى مرتقى عال من الانكار انكار للفعل وتفجير التناقض الحاد أن يعبد الانسان ما ينحت ثم تصعيدا بالجملة الحالية « والله خلقكم وما تعملون » بذكر لفظ الجلالة وفعل الخلق وأنهم وأصنامهم واعمالهم خلق من خلق الله يلزمه الخضوع والعبادة لخالقه الجبار .

وفى سورة الانبياء ذات الأسلوب الخاص : بدأت القصة قصوبة منكرة معنفة « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » والمبتدأ هو

---

(١٨) اجع فى ذلك تفسير أبى السعود ١٩٧/٧ وافكا فى نصبه وجوه أن يكون مفعولا له أو به أو حالا وضعف أبو حيان الأخير وراجع الكشاف ٣٤٤/٣ والرازى ١٤٧/٢٦ والبحر ٣٦٥/٧ .

الخبر والسؤال عن كنهها وحقيقتها وفائدتها بذكر هذا اللفظ التماثيل انكارا لكل ذلك وتحقيرا من شانها ثم تبكيت لهم لأنهم حصروا نشاطهم فى انعكوف عليها من أجل عبادتها وتامل التعبير « لها » فقد جعلوها مطمحا وغاية • والسياق قوى الأحداث قوى التعابير وتأمل « فجعلهم جذاذا » تصور لك غضبا ينفثه الخليل فيحول الاحجار جذاذا وشظايا وبعد اتيانهم به على أعين الناس يوجعهم انكارا ويوسعهم تهكما وذما ويتهمهم فى عقولهم بهذه الفاء بعد الهمزة دلالة على معطوف محذوف « أفتعبدون من دون الله ما لاينفعكم شيئا ولا يضركم » وكون المعبود غير الله واضح انه لا ينفع ولا يضر أى موات وجماد ولكنهم لما ربطوا بالحس ودارت حياتهم فى دائرة النفع والضر وضح ذلك لهم اتهاما لعقولهم ثم أظهر الضيق والضجر منهم ومن أصنامهم : أف لكم • وختم مقاولته بهذه المرارة والانكار أن يتخلوا عن عقولهم « أفلا تعقلون » واقد أثار بذلك كوامن غيظهم وحقدهم الحيوانى بعد أن حطم آلهتهم وسخر من عقولهم فانطلقوا فى جواب جماعى موتور « حرقوه » •

وفى آيات الصافات جاء استفهامان من الخليل للاصنام ذاتها « ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون » تهكما وانكارا ولا شك أن القرآن يصور بذلك حديث نفسه وشدة غيظه وانتشار حسه حين يواجه الجماد بخطابه اللاذع كراهية لها ولعبادها وهو تصوير نافذ ساخط على عبدة الأصنام وما يشبهها وهم قبيل يدور مع دورة الأيام •

ولذا كان التعبير «فراغ عليهم ضربا باليمين» كناية عن أنه فتأغيظه بتحطيم قوى منفعل ، وقد يجوز أن نرى هنا رأى السبكى فى أن الاستفهام مصروف لغير المخاطب وهذا وان كان وجيها هنا لكنه لا يمثل قاعدة أو ظاهرة عامة •

وقال تعالى على لسان الياس عليه السلام لقومه « أتدعون بعلا

وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين » (١٩) والدعاء هنا بمعنى العبادة .

وفى الكلام حذف : أى أتعبدون بعلا وتنتظرون خيرا مع تركككم عبادة الله أحسن الخالقين » وهذه الجملة داخلة فى الانكار مصعدة له (٢٠)

وهناك نوع من الانكار يقتضيه مقام الداعية فيه رقة العرض . وسياسة النفوس حين ينكر المتكلم على نفسه ايقاع الفعل وهومستحيل الوقوع منه ليبدأ بنفسه تأليفا للقلوب وجذبا للاقبال وضمانا للانصات والتأثير كقول مؤمن يس « ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » (٢١) .. الآيات فهو ينكر على نفسه ألا يعبد من فطره ، وفى الموصول حجة ودليل على وجوب عبادته لأنه الخالق ، تعريضا ذكيا بهم ، ثم التفت اليهم مبكتا « واليه ترجعون » غمزة واحدة تحرك راكد عقولهم ثم رجع الى نفسه أأتخذ من دونه الهة ثم عظم شأن الرحمن وعقابه معرضا بانتقامه الشديد بمن كفر به آلهة شائهة وهو مثل عال وأسوة راقية للداعية فى كل زمان ومع أنه لما فجأهم متحديا بايمانه قتلوه ولكن القرآن يخلده بل يدعه يكمل خطبته البليغة فى الجنة « ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى » الآية .

ومثله فى حسن الدعوة وجمال العرض تأثيرا نفسيا ما قدم فيه التعبير « غير الله » على فعل المتكلم كقوله تعالى وقد آمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتبليغه :

---

(١٩) الصافات ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢٠) راجع الكشاف ٣/٣٥٢ وأبا السعود ٧/٢٠٤ .
(٢١) يس ٢٢ ـ ٢٣ .

« قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » (٢٢) .

« أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا»(٢٣)
« قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء »(٢٤) .

« قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » (٢٥) .

والاستفهام هنا للانكار الشديد على المتكلم ظاهرا ليصل الى درجة الاستحالة وهو فى الواقع انكار عليهم وتعريض بهم وهو فى الوقت ذاته يصور صلابة النبى العظيم وثباته على الايمان وحربه للشرك ودائما يأتى بعد المفعول المقدم وهو محط الانكار مع عموم يشمل باطل الآلهة يأتى ما يقوى الانكار ويصعده ، ويكون دليلا على اخلاص التوحيد لله دون سواه من ذكر لفظ الجلالة مضافا الى غير تمحوه بقهر واقتدار ثم الوصف البلاغى « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » « أو جملة الحال » « وهو الذى أنزل ..» « وهو رب كل شىء » ولما كان التعبير الأخير فى سياق أقوى جاءت الفاء العاطفة على محذوف يذهب العقل فيه كل مذهب ، وجاء الفعل تأمرونى مناسبة خاصة حين قالوا له بغباء استلم بعض آلهتنا نؤمن بالهك(٢٦) ثم وصفهم البليغ بالجهل الثابت لهم . ومن عجب أن تستأثر سورة الأنعام الجليلة بأكثر الأساليب المحمدية فى هذا الشأن .

وقد جاء اسلوبان فى اليهود الأول على لسان موسى عليه السلام حينما رأوا — بعد أن نجاهم الله من فرعون — أقواما يعكفون على أصنام

---

(٢٢) الأنعام ١٤ (٢٣) الأنعام ١١٤ .
(٢٤) الأنعام ١٦٤ (٢٥) الزمر ٦٤ .
(٢٦) راجع أبا السعود ٢٦٢/٧ .

لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » (٢٧) وبعدها بآية « قال اغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين واذ أنجيناكم من آل فرعون » (٢٨) والاستفهام هنا صيحة غضب منكر ذاهل سبحان الله أيطلب لهما صنما وهم حديثو عهد بنعمة الله ولذا وجدنا الآية التالية لا تأتى على لسان موسى بل مباشرة من قبل الحق تعالى يعدد ويمن ويذكر بالتنجية القاهرة من آل فرعون وعذابهم الأليم والآية ترسم ملامح نفسية لشذاذ الأمم كما جاء فى شأنهم أعنى يهود المدينة آيات على لسان النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون (٢٩) وجاء بعدها الحكم الخالد بأسلوب الشرط اللازم « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٣٠) .

ونلحظ فى الايات استعمال الفعل بغى وابتغى كثيرا دون طلب الذى فسر كثير من المعاجم بغى بها ومن عجب أن يذكر ذلك معجم ألفاظ القرآن الذى أصدره مجمع اللغة بالقاهرة مع نقله عن الراغب أن البغى طلب فيه تجاوز حد الاقتصاد كمية أو كيفية سواء كان محمودا فى الخير وهو تجاوز العدل الى الاحسان أم مذموما فى الشر وهو تجاوز الحق الى الباطل أو الشبهات والابتغاء هو الاجتهاد فى الطلب محمودا أو مذموما (٣١) .

وهذا سر استعمال الفعل دلالة على أن الاشراك فيه تجاوز الحق وهذا المعنى المذموم غير بعيد عن دلالة البغى الثانية بمعنى الظلم

---

(٢٧) الأعراف ١٣٨ . (٢٨) الأعراف ١٤٠ ـ ١٤١ .
(٢٩) آل عمران ٨٣ (٣٠) آية ٨٥ .
(٣١) مفردات الراغب ٥٥ ـ ٥٦ بتصرف وراجع معجم ألفاظ القرآن ١١٤/١ ومقاييس اللغة ٢٧٠/١ .

كقوله « يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس انمـــا بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » (٣٢) •

وقد سبق التعبير مالى انكارا لحال المتكلم بعده ، كناية عن انكار الفعل من باب أولى وسنتعرض لانكار الحال بالتفصيل بعد ولكن هنا نكتفى بالقول بانه قد جاء فى اساليب « مالى » انكار وتعجيب من حال المخاطب أو من الحال الواقعة بعده عموما وانكار الحال التى ينحصر فيها الفعل انكارا للفعل على طريق الـكناية ومـدارج اللزوم العقلى و الترتيب النفسى كقوله تعالى عن مشركى العرب « فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسـورة » تصـويرا سـاخرا لاعراضهم فى هيئات قافزة نافرة مندفعة هلعة كحمر الوحش انضاف الى نفارها الذاتى نفار خلع للقلوب أقوى من نفارها الطبيعى حين ترى وتسمع زئير القسـورة المكاسر وأنت تقرأ « حمر مسـتنفرة فرت من قسورة » (٣٣) بتوالى المقاطع المغلقة بعد المقاطع القصيرة المفتـوحة فيخيل اليك أنك تسمع وقع أقدامها الهلعة على الصفا فى ايقاع متلاحق لاهث • وصورة الحمر غطت على الصـورة الكلية فما عدت ترى أو تتخيل الا حمرا مخططة الأديم مخلوعة الفؤاد مغرقة فى النفار • ومنه قول الخليل عليه السـلام ، « مالكم لا تنطقـون » (٣٤) وقول نوح عليه السلام « مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » (٣٥) وجملة الحال صعدت معنى الانكار •

---

(٣٢) يونس ٢٣ •
(٣٣) المدثر ٤٩ ــ ٥١
(٣٤) الصافات ٩٢ •
(٣٥) نوح ١٣ ــ ١٤

٣ ــ انكار أن يكون لله ولد أو بنات بل هو واحد أحدا :

وفرية المشركين الظالمة بأن له سبحانه تعالى وتقدس ــ ولدا أو أن الملائكة بنات الله أبطلها القرآن بكل وسائل الأداء وبكل الأقيسة والبراهين ٠

وجاء من الاستفهام قوله تعالى :

من سورة الصافات « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ، ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين»(٣٦)

وفى سورة الزخرف « وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » (٣٧) ٠

وفى سورة الاسراء : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما » وقال تعالى فى سورة النجم « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى » الآيات (٣٨) ٠

بينما جاء فى سورة الطور أحد عشر أسلوبا استفهاميا يرد بقوة غاضبة على عديد من افتراءاتهم الباقاء التى تتعلق بالرسول الكريم والقرآن العظيم ورب العالمين ومنها « أم له البنات ولكم البنون » وفى

---

(٣٦) الآيات ١٤٩ ــ ١٥٧ ٠

(٣٧) الآيات ١٥ ــ ١٧ (٣٨) الآيات ١٩ ــ ٢٣ ٠

آخرها ابطال لكل شريك وتنزيه صـادق لله تعالى « أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون » (٣٩) .

وتلمس فى آيات الصـافات وهى تشرح مذاهب المشركين وتبين قبحها وسخافتها فى أسلوب قوى عنيف صادر ـ كما قال الزمخشرى ـ عن سخط عظيم وانكار فظيع واستبعاد لاقاويلهم شديد تسـفيها لأحلام قريش وتجهيلا لنفوسها واستركاكا لعقولها مع استهزاء وتهكم

ونقل الواحدى انهم قالوا ان قريشـا وأجنـاس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله والآيات تبطل امرين اثبات البنات لله تعـالى والثانى اثبات أن الملائكة اناث وتلحظ فى الآيات على وجه الاجمال :

١ ـ الاستفهام فى هذه الآيات ناطق بالانكار والسخط والتبكيت والسخرية اللاذعة وبينما غلب الغضب واشتد النكير مع السخرية فى آيات الصافات والاسراء والطور غابت السخرية البالغة فى آيات النجم وتعانقا فى آيات الزخرف . كما تآزر الأسلوب كله بحروفه وألفـاظه الخاصة والصياغة المعينة للتراكيب على اشعاع هذه المعانى البلاغية أصيلة وثانوية فالأمر « استفت » أفاد التقريع والتوبيخ واضافة الرب الى ضمير المخاطب عليه السلام ولم يقل ألربكم .. ابعادا لهم وتشريفا بالخطاب صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ كثرت الجمل الحالية التى تفجر التناقض الحاد ـ كما أشرنا سابقا ـ فى أقوالهم تصعيدا للانكار والتبكيت والسخرية كقوله : أم خلقنا الملائكة اناثا ؟ وهم شاهدون » وفيه توبيخ شديد وسخرية لأن

---

(٣٩) الآيات ٣٠ ـ ٤٣ .

نسبة الأنوثة إلى الملائكة تقتضى المشاهدة وهم ما شهدوا خلقهم والجملة الثانية « وانهم لكاذبون » بعد قوله : الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون ، وتأمل كيف جاءت كلمتهم الكبرى « ولد الله » بهذا التعبير المستحيل بين كذبين أو فى دائرة أو اطار من الكذب الأبلق كما جاء الاستفهام الموبخ عن البرهان والحجة فى آيات لشتملت على أربعة استفهامات متوالية للتكذيب والتعجيز • ما لكم كيف تحكمون •• الآيات وهو هنا يطالبهم بالدليل على قولهم تكذيبا يدل عليه الحس •

بينما جاء فى سورة الطور أحد عشر أسلوبا استفهاميا متواليا يرد بقوة وغضب على عديد من زعماتهم وشبهاتهم التى تتعلق بالرسول والقرآن ورب العالمين ومنها « أم له البنات ولكم البنون » وفى آخرها ابطال لكل الآلهة المفتراة على وجه العموم مع تنزيه الله تعالى على المشركاء « أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون » (٤٠) •

والنظر والخبر ومطالبتهم بالدليل كثر فى القرآن عند تفنيد زعمات المشركين العديدة وجاء هنا بعد التدليل على فساد هذا المذهب من أساسه لأن الله تعالى مطلق الكمال وهو لا يليق به — كما قال الرازى — اصطفاء الأخس وهو المراد بقوله اصطفى البنات ••• »

وفى قوله « ولهم البنون » تعيير لهم فقد فضلوا أنفسهم حين جعلوا أوضع الجنسين له سبحانه وارفعهما — لهم (٤١) وهى القسمة التى تحدثت عنها آيات النجم •

---

(٤٠) راجع فى آيات الصافات الكشاف ٣/٣٥٤ ، والرازى ٢٦/١٦٧ والبحر ٧/٣٧٦ •

(٤١) راجع الكشاف ٣/٤٨٢ •

ثم ان أم أداة استفهام على الارجح تفيد الاستفهام والاضراب الانتقالى وفيها تجهيل وتعجيب وانكار وتأمل آية الزخرف « وجعلوا له من عباده جزءا » فلم يكتفوا بجعلهم لله من عباده جزءا أى بعضا منه لأن الولد بضعة من أبيه حتى جعلوا ذلك الجزء شرا لجزأين وهو الاناث اللائى بلغ بهم المقت الى وأدهن واسوداد وجوههم حين يبشرون بولادتهن (٤١) ٠

وفى آية النجم بدأ بقوله : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » فذكر الاغاء هنا بعد أن قدم من عظمه آيات الله فى ملكوته من أن جبريل أمين الوحى يسد الافاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بقوته ولا يمكنه أن يتعدى السدرة فى مقام عزة الله تعالى فالفاء دلت على محذوف أى عقب ما سمعتم من عظمة آيات الله الكبرى فانظروا الى هذه الحجارة التى جعلتموها شريكه لله تعالى مع ذلتها وحقارتها تعلموا فساد ما ذهبتم اليه فقد حذف طرفا الكلام ودل عليه وسطه وهو المذكور فى الآية ليذهب العقل فى تأويلها كل مذهب (٤٢) ورأى بصرية واقعة على الأصنام المشاهدة والاحالة على الأمور المشاهدة الواضحة الفساد (٤٤) دليل على شدة الانكار والأسلوب مبنى على الايجاز الشديد كما سبق وتوالى الاستفهامات المذكورة والمقدرة والاستفهام الثانى المذكور « ألكم الذكر وله الأنثى » مبنى على أنهم اتخذوا صورا من الحجارة واشتقوا لها أسماء عالية الدلالة وقالوا انها صور الملائكة وأنثوها لزعمهم أن الملائكة اناث(٤٥) والاستفهام هنا مفصح عن الانكار

---

(٤٢) من أوائل من علل الحذف بهذه العلة الخطابى ثم استقرت فى الدرس البلاغى راجع بيان القرآن ٥١ ٠

(٤٣) راجع البحر ٨/١٦٠

(٤٤) راجع تفسير الرازى ٢٨/٢٩٥ ٠

(٤٥) راجع الرازى ٢٨/٢٩٩ ٠

والسخرية وايقاع الاسلوب معين على ذلك وهذا يمهد لهذه الحقيقة الساخرة الثابتة « تلك اذن قسمة ضيزى » والقسمة متخيلة لأنها تكون فى المحسيات بلوغا بالسخرية مدى كبيرا والكلمة ضيزى : غربية الوزن غريبة الهيئة غريبة الجرس والدلالة تتناسبا مع غرابة الزعم والقسمة الجائرة • وتأمل حين يمتلىء الفم بصوت الضاد الفخمة ثم يتسرب الهواء من خلال صوت الصفير فى الزاى ليصور أنها قسمة موهومة فهمت من معتقدهم فى غيبة عقولهم •

وهذه الكلمة « ضيزى » الغريبة وسر بلاغتها عالجناه فى موضع آخر ونكتفى هنا بالقول بأن تعليل ابن الأثير لفائدتها بالمحافظة على السجع وتعليل سيد قطب للنسق كله بالايقاع الخاص بعض من أسرار كاثرة (٤٦) •

٢ ــ تأدى الانكار فى الأساليب بالهمزة وأم وما ، وكيف كما جاءت أتى للانكار والاستبعاد فى سورة الانعام : بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة •• الآية وكان المنكر اما الفعل وحدة نحو : اصطفى البنات وهو انكار تكذيب أو انكار الفعل والمعطوف عليه من فعل آخر توبيخا « أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا » كما نبه الرازى أو انكار النسبة حين تدخل الهمزة على جملة اسمية نحو « ألكم الذكر وله الأنثى » «ألربك البنات ولهم البنون» والجملة الثانية داخلة فى الانكار أيضا وقد تعانق القصر مع الاستفهام الانكارى تشنيعا وتبكيتا أو انكار الحال فى كيف : فكأن الانكار أحاط بالفعل والاسم على أنحاء عديدة ثم ان التعبير بالفعل أصطفى وأصفى واتخذ وتكرار ذلك وهو دال على القصد والعمد والاهتمام يصنع لمسات

---

(٤٦) راجع المثل السائر ١/٢٦٤ والتصوير الفنى ١٠٤ وراجع الشهاب ٨/١٣ واعجاز الرافعى ٢٦١ •

واضحة فى معانى الانكار والسخرية نلحظ أن هناك تعبيرات بذاتها قد تكررت وان اختلف النسق لأدائها معنى مناسبا للسياق واثارة لعديد من الانفعالات المتجددة لاقتضاء المقام الغاضب ذلك وان اختلفت الصياغة قليلا نحو : ألربك البنات فى آية الصافات وألله البنات فى آية الطور لأن آية الطور جاءت وحيدة تبطل هذا الزعم وسط آيات تبطل عقائد أخرى واهمة كالقول بأن النبى الكريم شاعر أو أنه تقول القرآن الى غير ذلك ولذا كان الأسلوب على الغائب فى مجمل الآيات •

٣ ــ انكار الكفر ومظاهره وسلوكه على العموم :

كقول المؤمن لصاحب الجنتين « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » (٤٧) والاستفهام ينكر الكفر ويوبخ عليه ويجرم صاحبه ويأنى بالموصول وصلته وما عطف عليها تشنيعا وهو لا يثبت صفة الخالقية لله فحسب بل ينتقى مراحل خلق الكافر من عدم وتراب ثم من نطفة فهو أصل متهالك الضعف والحقارة يسوى رجلا ثم ينطق كفرا حين يتكلم بعد صمت مديد • تأجيجا للانكار والضيق والتبكيت •

كما جاء الانكار صيحة غضب وتحقير على ألسنة الرسل الذين ذكرهم موسى عليه السلام ودعواتهم لأقوامهم « وانا لفى شك مما تدعونا اليه مريب قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض » (٤٨) الآيات وقد جاء لفظ الجلالة بعد الهمزة مقدما على المبتدأ لتصوير النكير والتأنيب والدهش فكيف يشك فيمن به خرجت الأكوان الى الوجود الظاهر الباطن فاطر السموات والأرض تعجبا ذاهلا وانكار مستفزا •

---

(٤٧) الكهف ٣٧ (٤٨) ابراهيم ٩ ، ١٠ .

وقال تعالى عن مشركى العرب وقد نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل على جهة الالتفات فى خطاب اهانة وذم واستفهام وانكار وتعجيب « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » (٤٩) ٠

وفى هذه الآية أسرار بلاغية فائقة :

فقد عدد أولا قبائحهم ثم جاء بالاستفهام انكارا وتوبيخا وتعجيبا متوجها الى الحال « كيف » من المبالغة ما ليس فى توجيه السؤال الى نفس الفعل بأن يقال « أتكفرون » لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال قطعا فاذا انتفت جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده فهو من باب الكناية أو على الطريق البرهانى وجملة الحال « وكنتم أمواتا » حال مؤكدة للانكار والاستبعاد وأخرجت الكفر فى صورة المستحيل لما تهوى داعى الايمان الصارف عن الكفر ونظيره كما قال فى الكشاف « أتطير بغير جناح وكيف تطير بغير جناح » وصياغة الفعل حالا « تكفرون » عرضا لجريمتهم فى وضوح تبكيتا لهم عليه وعلى الاستمرار فى الكفر ولما كان قوله ثم يحييكم مثار انكار عندهم قال الزمخشرى ان هنا حالا عامة محذوفة تتعلق بها الحال المذكورة أى كيف تكفرون وأنتم عالمون بهذه الأحوال وهذه القصة من أولها الى آخرها وهى أحوال مباينة للكفر ومآله الانكار والتعجيب من وقوعه مع تحقيق ما ينافيه ولما كان الرجوع أو البعث مما لا يعلمون ولا يؤمنون به فقد نزلوا منزلة العالمين به للدلائل الناطقة بذلك ٠ ورأى أبو حيان أن ذلك لا يتعين اذ يجوز أن يكون قوله « ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه

---

(٤٩) البقرة ٢٨ ٠

(٥٠) راجع فى الآية الكشاف ٢٦٩/١ والرازى ١٤٩/٢ وما بعدها والبحر ١٣٠/١ وأبا السعود ٧٧/١ ٠

ترجعون » غير داخل فى الحال بل أخبار مستأنفة ولذا غاير فيها بحرف العطف وبصيغة الفعل • والأقوى رأى الكشاف ومن تبعه كأبى السعود وهو الواضح من تحليلات الرازى لأن الآية تعنيف وتبكيت على الكفر بالمنعم ولذا عدد كثيرا من النعم أولها هنا نعمة الاحياء وثانيها نعمة الانتفاع بالكون « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا •• » فذان الأسلوب اجتمع فيه ما يصرف عن الكفر سواء كان آيات بينات كالتحكم فيهم خلقا من عدم ثم اماتة ثم بعثا من قوى جبار أم كان نعما سابغة أما توزيع حروف العطف بين الفاء وثم فهو تصوير للزمان الواقع فيه الحدث دون تراخ أو بتراخ ممتد كالموت والنشور •

وقوله : « وكنتم أمواتا » معناه وكنتم ترابا ونطفا ويطلق على الجماد موات وعلى الانسان ميت بفتح فسكون أما الميت هو الحى الذى سيموت كقوله « انك ميت » (٥١) واطلاقهم على حال الانسان الترابية أو كونه نطفة ميت على التوسع والتشبيه قال القفال وهو كقوله « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (٥٢) •

وفى قصة عيسى عليه السلام فى سورة آل عمران وبيان الحق فى شأنه وأنه عبد الله مثله كمثل آدم ثم حديث المباهلة وتوحيد الألوهية توجهت الأيات الى أهل الكتاب فى نداءات متوالية « ياأهل الكتاب » أربع مرات تناقش فى هدوء مذاهبهم الباطلة وتنكرها عليهم بالسؤال عن السبب والعلة « لم » أربع مرات أيضا : فهم يجادلون زاعمين أن ابراهيم عليه السلام كان منهم أعنى اليهود والنصارى وقد جمعهم القرآن لاتفاقهم فى الكفر والافك : ويرد القرآن « لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم »

---

(٥١) الراغب ٤٧٧ •　　(٥٢) الانسان ١ •

ومع أن التوراة والانجيل تبشر برسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكر صفاته العالية يكفرون به «لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »(٥٣) وأجاز فى الكشاف أن يكون الكفر بآيات الله عاما دون تخصيص بأنها الآيات الناطقة بصدق الرسول الكريم وكفرهم بالآيات كفر بالتوراة والانجيل لاشتمالها على ذلك (٥٤) .

وقد توالت فى الآيات الأدلة البرهانية الملزمة مع الاستفهامات المثيرة المنكرة ثم ان لام العلة دخلت على ما الاستفهامية فحذفت ألفها تخفيفا وأفادت انكار السبب والعلة وفيه كناية مصورة عن انكار الفعل من باب أولى من التقبيح والتوبيخ . وقد كثرت الجمل الحالية التى تصعد هذه المشاعر وتولد التناقض والتعجيب من مواقف الكفر الأبلق لليهود والنصارى حقدا وحسدا . وقد كثرت الاستفهامات المنكرة — فى سورة البقرة — على اليهود كفرهم الماضى والحاضر وسلوكهم المعوج وجرائمهم البشعة بعد سرد هذه الجرائم فى شطر كبير من السورة ومن أساليب الاستفهام « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (٥٥) « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » والآية تشع بالانكار والتشنيع والتعيير وقد بنيت على الايجاز ومنه الاحتباك والبراهين الملزمة والاحتراس والتصوير وعديد من فنون البلاغة ومنه قوله تعالى : « قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا

---

(٥٣) آل عمران الآيات ٦٤ — ٧١ .

(٥٤) راجع الكشاف ١/٤٣٦ وأبا السعود ٢/٤٨ — ٤٩ .

(٥٥) البقرة ٨٧ انظر التحليل القيم للدكتور محمد عبد الله دراز لهذه الآية فى النبأ العظيم ١١٩ — ١٢٧ .

وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمـــالكم ونحن له مخلصـــون أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون » (٥٦) والهمزة لتوبيخ أهل الـــكتاب على العموم على جدالهم فى الدين وادعائهم أن الدين الحق هو اليهودية أو النصرانية وأن دخول الجنة مختص بهم وأم معادلة للهمزة داخلة فيما أمر النبى بتبليغه ثم أتى بأمر آخر وليه استفهام أشد انكارا دل على افتراءات عديدة لهم مترتبـــة على الاســـتفهام الأول من الافتراء على الأنبيـــاء والرسالات أى كذبهم وبكتهم قائلا أأنتم فى ضـــلالكم وجهلكم أعلم أم الله • ولا علم عندهم وليس التفضيل على بابه بل المراد نفى العلم عنهم بطريق بليغ ثم كان الاستفهام الأخير فيه انكار تعليلا وتأكيدا ـــ للانكار الأول ـــ أعنى « ومن أظلم ••• » (٥٧) •

كما كثر فى القرآن الكريم هذه الجمل التى تنكر عليهم أن أبطلوا مداركهم وألغوا عقولهم وفكرهم وحسهم وشعورهم وتدلوا الى مراتب الأنعام بل أضل ـــ ومع أن نفى هذه الادراكات كثر أيضا على طريق الخبر فان الأساليب الاستفهامية المنكرة جاءت فى سياقات أكثر توترا وغضبا واثارة وفى مقامات كثيرة من انكار الألوهية أو التوحيد وعبادة الأصنام وانكار البعث وصدق القرآن والافتراءات عليـــه وعلى نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ولم تخص مشركى العرب بل تعدت الى مشركى الأمم وكفار أهل الكتاب • وقد كثر ذلك وبخاصـــة فى خواتم الآيات تذييلا مؤكدا أو مصعدا للمعنى البلاغى كقوله تعالى :

---

(١٥٦) البقرة ١٣٩ ـــ ١٤٠ •

(٥٧) راجع الكشاف ١/٣١٦ وأبا السعود ١/١٧٠ •

ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله فأنى تؤفكون » والأول تقرير والزم والثانى انكار واستبعاد (٥٨) .

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (٥٩) واذا بطل الأصل وزيف بطل ما انبنى عليه على طريق الكناية مع الذم والتسفيه للتقليد الضار ولوم ولابائهم الضالين على السواء .

وقال تعالى : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت أباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون » (٦٠) .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ومنه — أفلا تعقلون — أفلا تتقون أو لم يتفكروا أفلم يكونوا يعقلون ألا تتقون أفلا يؤمنون الى آخر هذه التذييلات التى تضع اللمسات الأخيرة فى تصوير الانكار العام فى الأسلوب مع فيض من معانيه الثانوية المديدة.

وسنلتقى فى التقرير بآيات عديدة كآيات سورة النمل التى تبدأ باستفهامات مقررة ملزمة لتنتهى باستفهامات منكرة موبخة ضرورة ترقى المعنى صعدا من تقرير موبخ الى انكار مبكت معنف .

ثم قد رأينا الانكار يتداخل مع الوعيد والتهديد بالانتقام القاهر فى أساليب متوهجة ساطعة الجلال والاقتدار وأظهر ذلك دخول الأداة على فعل الأمن فى القرآن الكريم (٦١) كقوله تعالى : « أفأمن أهل

---

(٥٨) راجع أبا السعود ٤٦/٧
(٥٩) البقرة ١٧٠ .
(٦٠) المؤمنون ٦٨ — ٦٩ .
(٦١) راجع المعجم المفهرس ٨١ .

القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » (٦٢) « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون » (٦٣) لكنك تلحظ أن الهمزة اذا دخلت على الأمن موجها للمخاطبين أعنى الخطاب اشتد الاسلوب وبرق الغضب وهال الوعيد وجل المتوعد به كآيات الاسراء والملك : قال تعالى عن الضر عليهم فى البحر « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » (٦٤) وانظر توالى التهديد المرعد بخسف جانب البر والجوانب كلها فى قدرته سواء وله فى كل جانب مرصد من أسباب الهلاك وهو هلاك من تحتهم وهناك هلاك من أعلى بالريح الحاصب ترسل بالحصباء رجما أشد من الغرق أو من كل الجهات كالريح القاصف المهلكة لكل ما تمر به والريح بالافراد ريح العذاب وحين تكون الريح قصيفا أى ذات صوت (٦٥) قصيف تكون عاصفة شديدة السرعة مهولة الصوت بالغة التدمير وقرئت الأفعال بنون العظمة وهى مؤكدة للتهديد بسبب الكفر .

وقال تعالى : « أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور » وتأمل الجملة الأخيرة زائدة على آية النحل مناسبة للوعيد الشديد والخطاب المزلزل والمقام الخاص الذى يتهدد ويخوف بمظاهر

---

(٦٢) الأعراف ٩٧ ـ ٩٨ .
(٦٣) النحل ٤٥ .
(٦٤) الاسراء ٦٨ ـ ٦٩ .
(٦٥) راجع الكشاف ٢/٤٥٧ ـ ٤٥٨ .

الانتقام ويحيل على ما لحق بالسابقين « ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير » (٦٦) كما زاد هنا « من فى السماء » قال البقاعى خاطبهم بما يعتقدون أو كناية عن العلو رتبة أو عن التصرف القوى أو على الحذف : أى من فى السماء أمره وملائكته الغلاظ وقد دعا الى هذا التأويل السائغ على لسان العرب الدليل القطعى على أنه تعالى ليس متحيزا فى جهه لأنه محيط غلا يحاط به وهو القادر بسبب وبغير سبب (٦٧) والاستفهام للتهديد وانكار الأمان عليهم لأن الملك له والكل خلقه .

ولعلك لحظت أن الأساليب القرآنية مع أهل الكتاب لوجود شىء من العلم عندهم وادعائهم الثقافة كانت أميل الى الاقناع والجدل بالحكمة والبرهان مع اثارة الانفعال أيضا ، بينما كانت الأساليب الموجهة الى كفار العرب وأكثرهم أمى جاسى الطبع وان كان بطرته أشد حساسية للكلمة كانت الأساليب مع الاقناع تضرب على أوتار من الوجدان واثارة كامن الانفعالات واحياء ما خمد من فطر صافية ولذا كثرت هذه الأساليب فى السور المكية المشعة التى تميزت بسمات أسلوبية خاصة وتأمل استفهامات قوية عنيفة كأنها طلقات رصاص تئد السكون الخامل وتنسف جميع افتراءاتهم قال تعالى : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فانى معكم من المتربصين أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ... الآيات

---

(٦٦) الملك ١٦ (٦٧) الملك ١٨ .

(٦٨) نظم الدرر للبقاعى ٢٠/٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

اثنا عشر استفهاما انتهى بقوله « أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون » (٦٩) ٠

وقريب من ذلك استفهامات سورة ن المكية ذكر جزاءات الكافرين والمتقين « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون أم لكم كتاب فيه تدرسون ان لكم فيه لما تخيرون ام لكم أيمان علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون سلهم أيهم بذلك زعيم أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين » (٧٠) وان اتجهت الآيات الى النفى القاطع للمساواة بين جزاء المؤمنين والكافرين يوم القيامة ولذا كانت الآيات أقل عنفا من آيات سورة الطور ولذا سبقها قوله : فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٧١) وأم فى الآيات متصلة كما رجح الرازى وليست بمعنى بل معطوفة على محذوف فقد كثرت الجمل المحذوفة وهى ذات افتراءاتهم اكتفاء بالاستفهام وآيات الطور تناقش التوحيد والحشر والرسالة ومن بديع الأدلة أن جعلهم هم كمخلوقين آية على التوحيد وصدق القرآن وتأمل قوله من غير شىء أى من غير خالق أو من غير تراب وماء أو من غير أب وأم أى بدون تدبير وتقدير وقدرة ؟ (٧٢) ٠

الانكار الأخروى :

والتبكيت والانكار والتوبيخ تجاوز الدنيا الى الآخرة حين يواجه الكافرون بتأنيب الزبانية لونا من العذاب النفسى المر ومشاهد القيامة تصور حياة لها قوانينها فيها الحركة والحياة والانفعالات المتناسبة مع

---

(٦٩) الآيات الطور ٣٠ ـ ٤٣ ٠

(٧٠) الآيات ٣٥ ـ ٤١ ٠ (٧١) الطور ٢٩

(٧٢) راجع الرازى فى تحليل الآيات وتناسبها ٢٨/٢٥٥ وما بعدها

الجزاء ففى النار ــ ونعوذ بالله ــ تكون الأحاسيس والمشاعر نارية ملتهبة حمراء أو سوداء أو صفراء فى أقوال المعذبين بين سباب لطوائفهم وشماتة فيهم وبين يأس وحسرة وندامة وأمنيات غاربة وألم مشنوق وبين انكار متوقد على ألسنة الملائكة • من مثل قوله تعالى :

« وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (٧٣) « أكذبتم بآياتى ولم يحيطوا بها علما » (٧٤) كما جاء عديد من آيات التقرير التى نلتقى به بعد موشحة بالانكار الساخر •

---

(٧٣) آل عمران ١٠٦ (٧٤) النمل ٨٤ •

القرآن وصدق الرسل

وقد حكى القرآن ما جاء على ألسنة المشركين عن القرآن الكريم كقوله تعالى « تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » (١) و « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين »(٢) .

وقال تعالى « ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » (٣) .

وقال تعالى « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » (٤) .

وفى آيتى محمد والبقرة ينكرون المفعول الواقع على بعض القرآن مع شىء من السخرية والاستعلاء كما يذكر أقوالهم بافترائه : بصيغة القول دلالة على أنها ألفاظ ترمى بها الألسنة دون فكر أو عقل ، والرد اما باثبات أنه حق أو بتحديدهم أن يأتوا بمثله وآية الطور من آيات المعاجزة والتحدى فى القرآن كما كان القرآن يكتفى بالحكم عليهم بالضلال والكفر لأنه دال من واقع نظمه على أنه منزل من عند الله . ولا شك أن الردود التفصيلية المفحمة جاءت فى أساليب خبرية قوية

---

(١) السجدة ٢ ـ ٣ (٢) الطور ٣٣ ـ ٣٤ .
(٣) محمد ١٦ (٤) البقرة ٢٦ .

بعد تقرير كذباتهم حول القرآن الكريم كما نلحظ ــ وهذا شيء واضح ــ أن الرد كان أقوى من الشبهة أسلوبا ودلالة واستظهارا بالحجة .

وجاء فى سورة فصلت وكانوا لتعنتهم يقولون هلا نزل القرآن بلغة العجم فقيل لو كان كما يقترحون لم يتركوا الاعتراض والتعنت وقالوا لولا فصلت آياته والآية « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » (٥) .

وفى قوله : آأعجمى وعربى الهمزة للانكار يعنى لانكروا وقالوا أقرآن اعجمى ورسول عربى أو مرسل اليه عربى والمعنى كما ذكر فى الكشاف « ان آيات الله على أى طريقة جاءتهم وجدوا فيها متعنتا لأن القوم غير طالبين للحق وانما يتبعون أهواءهم » (٦) فالاستفهام منكر مقرر للتحضيض فى « لولا » وقوله « أولئك ينادون من مكان بعيد » تمثيل لهم فى عدم استماعهم بمن ينادى من مكان بعيد لا يكاد يسمع الأصوات أو يميز المقاطع وهو متلائم مع الآية كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء كما انكروا رسالات الرسل لأسباب منها أنهم بشر مثلهم أو أنهم ليسوا من المترفين الأغنياء وفى أساليب الاستفهام جاء ما يخامر قلوبهم من انكار وحقد مزجوه بالتحقير والسخرية كقول الله تعالى « كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر » والرد « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » (٧) .

---

(٥) فصلت ٤٤ .
(٦) الكشاف ٣/٤٥٥ وأبو السعود ٨/١٦ .
(٧) القمر ٢٣ ــ ٢٦ .

فالانكار والتحقير منصب على المفعول لأنه منبع الانكار وهو أن البشرية فى زعمهم تنافى البشرية وقد أتبعوا المفعول بوصفين : كونه منهم أى من جنسهم وواحدا فريدا لا تبع له أو واحد من آحادهم لا من أشرافهم قصدا الى أن الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع له ولو قدم « واحدا » على « منا » لتعلق منا بواحد وفاتت نكتة الجنسية وهذا من دقائق التقديم (٨) وقوله « سيعلمون .. » حكاية لما قاله الله لصالح وعدا له ووعيدا لقومه والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده وقوله: « غدا » كناية عن قرب وقوع العذاب كقولهم ان غدا لناظره قريب والاستفهام فيه للتوبيخ والتهديد .

وجاء على لسان المشركين من قريش « أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون » « أهذا الذى بعث الله رسولا » (١٠) « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » (١١) .

والاستفهام دال على الانكار والهزء — كما ذكرت الجملة قبله ان يتخذونك الا هزوا » واسم الاشارة والمقاطع المفتوحة القصيرة والطويلة قوى هذا التصوير الساخر وفى الآية الأخيرة كان مع الانكار التعجب من حاله الشريفه صلى الله عليه وسلم وصفاته البشرية من أكل الطعام والمشى فى الأسواق وتفرده بالانذار دون ملك يعينه كناية عن انكار الرسالة التى تنافى البشرية فى زعمهم .

---

(٨) راجع فى الآيتين أبا السعود ٨/٧٢ .
(٩) الأنبياء ٣٦ (١٠) الفرقان ٤١ .
(١١) الفرقان ٧ .

قضية البعث :

وهى من أهم القضايا الاسلامية ـ بعد الوحدانية ـ لقيت جدالا شديدا فى كل عصر ومع كل رسول • وكانت مشكلة معقدة ضل بها كثير عن الايمان ، لأنهم مشدودون الى الحسيات،ولا يعملون عقولهم فيما خلق الله ولا فيما وراء الحس من غيب مكنون ثم ان جهلهم بالله تعالى وبصفاته الحسنى من علم وقدرة وقهر جعلهم فى تحجر وجمود فى التصور ورفض للغيب لأنهم وقفوا أمام أستاره عاجزين فهم يرون البعث أمرا عسيرا بعد الموت وتفرق الأشلاء والذرات وتحولهم عظاما نخرة أو رفات وترابا يصل فى الأرض ليلتحم بترابها •

ومن هنا أخذت قصة البعث حيزا كبيرا من القرآن تارة يقدم تصوراتهم وانكاراتهم للبعث بما عرف من أساليب خبرية بالقصر وبدونه وانشائية بالقسم والاستفهام ويصور انفعالاتهم المتاونة من انكار وتعجب واستبعاد وسخرية وسخط وجهت على مدى الأعصار للرسل جميعا وأكثرهم مشركو العرب فى مقاولاتهم وعداواتهم وخصوماتهم البليغة العنيده وكانت الدعوة الى الايمان المطلق بالبعث يؤجج غضبهم ويرميهم فى دوامات من الجحود والاباء والاعراض •

وأما ردود القرآن فكانت أوسع مساحة وأكثر تنوعا وبسطا ووظفت وسائل الأداء ودعت العقول الى سياحات عالية تقدم آثار قدرة الله تعالى فى الأنفس والمخلوقات والكونيات والآفاق من آثار خلقه وابداعه وعلمه وحكمته كما تقدم مختلف البراهين العقليةالمتمازجة مع أساليب التأثير النفس فليست النشأة الآخرة أعسر من الأولى وكل المقدورات أمام القدرة سواء « اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون » (١٢) فالمشيئة التى تبث الحياة صورا وأشكالا هى المشيئة

---

(١٢) راجع تفسير الرازى ٢٣/٩٨ ، ١١٥ ، ٢٤/٢١٣ وأبا السعود ٤/١٣٤ ، ٥/٦ •

التى ترد الحياة الى الموات وتخلق عالما آخرا له سننه وقوانينه ، بل دعاهم القرآن الى أن ينظروا فى أطوار خلقهم المعجزة السبعة ليرجعوا بها الى التراب الذى شاء الله فكان بشرا سويا ثم هو يبعث مرة ثانية بعد تمام فنائه ليعود كما كان على أدق ما فيه « أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه » (١٣) .

« أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » : أى شىء ثم قد يقسم الله تعالى بنفسه وهو أجل قسم على البعث «فوربك لنحشرنهم والشياطين » فى تهديد بالغ وتحقير يجمعهم مع الجنس العاتى المتمرد من خلق الله .

ويكثر القسم بآيات الله فى كونه ما كان منها ظاهرا أو خافيا « والصافات صفا ... الآيات » والذاريات ذروا .. الآيات ـ والطور وكتاب مسطور .. الآيات .

ثم يتخطى القرآن هذه المرحلة الى تصوير مشاهد القيامة ساعة وقوعها والى يوم الحساب بطوله وأهواله والى عالم الجنات وحياتها والمنعمين فيها يرصد سلوكهم وينقل تعليقاتهم فى تنعمهم وكذلك عالم النار ودركاته وطوائف المعذبين وانفعالاتهم وحياتهم المعذبة فى الجحيم وهو موضوع كتبت فيه مؤلفات ولم تستوفه تماما (١٤) .

ونعود الى قضية البعث وقد عبر أبى بن خاف عن وجهة نظر الكفر من الرفض والاندهاش والاستبعاد حين أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه عظم قد رم وبلى قائلا فى حنق ونظر شزر « أترى يا محمد أن الله يبعث هذا بعد ما رم » استدراجا يزيد به انكارا ونفارا ، فقال

---

(١٣) راجع « اليوم الآخر فى ظلال القرآن » ٢٤ وما بعدها .

(١٤) راجع فى ذلك مشاهد القيامة فى القرآن سيد قطب ثم انظر « اليوم الآخر فى ظلال القرآن » للمؤلف جمعه أحمد فائز من تفسير الظلال .

صلى الله عليه وسلم بهدوء كامل لأنها حقيقة تتهدى بها الفطرة لو ارتفعت عنها غشاواتها ورينها « نعم وبيعتك ويدخلك جهنم » رد مفحم ووعيد بذوق العذاب فى جهنم نعم وكأنه يقرأ حقيقة امامه من تسطير الأقدار ونزلت الآيات من أواخر يس « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (١٥) والاستفهام « من يحيى العظام وهى رميم » •

للانكار الشديد والعجب قواه وقوع الفعل على المفعول الخاص • العظام والجملة الحالية « وهى رميم » أى بالية اشد البلى فهذا يثير فى نفسه مشاعر الغرابة والاستبعاد والنكير والبعد عن عقله ولذا جعله « مثلا » بعيد الوقوع يكتفى منه بالتعجب • وكان الرد تبكيتا وتذكيرا لما نسيه من فطرته (١٦) من الاعتراف بالخالق الأكبر والقادر الذى تتساوى المقدورات أمام قدرته ولذا رد بدليل الخلق الأول ومظاهر القدرة فى الكون وآثار الخلق لما هو أعظم وأكبر •

ومن ايراد شبههم بأساليب الاستفهام بالهمزة وأيان ومتى جاءت الآيات القرآنية « وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » (١٧) •

---

(١٥) الآيات من ٧٧ ــ ٨٣ •
(١٦) راجع الكشاف ٣/٣٣١ وأبا السعود ٧/١٨١ •
(١٧) الرعد ٥ •

وعن قوم عاد أو ثمود من قول الملأ منهم « أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (١٨) ورجح أبو حيان عن الطبرى أنهم قوم صالح .

وعن كفار مكة « بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أانا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » (١٩) .

« وقال الذين كفروا أاذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » (٢٠) .

ومن سورة الصافات : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون قل نعم وأنتم داخرون » (٢١) وعلى لسان بعض المنعمين فى الجنة « قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول ائنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون » (٢٢) .

وعن مشركى مكة فى سورة ق : « ائذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » (٢٣) .

وعن أصحاب الشمال وجرائمهم الدنيوية « وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » (٢٤) وعن

---

(١٨) المؤمنون ٣٥ ـ ٣٧ وراجع أبا السعود ١٣٤/٦ والبحر ٤٠٣/٦
(١٩) المؤمنون ٨١ ـ ٨٣ .
(٢٠) النمل ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢١) الصافات ١٦ ـ ١٨ .
(٢٢) الصافات ٥١ ـ ٥٣ .
(٢٣) ق ٣ .
(٢٤) الواقعة ٤٧ ـ ٤٨ .

مشركى مكة فى سورة السجدة « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » (٥٠) ونظيرتها آية الاسراء « وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا » (٢٦) .

كما جاء عن الانسان المشرك عموما « ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (٢٧) وقال تعالى « يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك اذن كرة خاسرة » (٢٨) .

ونلحظ فى هذه الأساليب :

أولا : تقديم الظرف ليكون مدخول الهمزة وهو ظرف باذا التى تفيد اليقين انصبابا للانكار على الحدث فى هذا الوقت وهذه الحال اذ هو المثير أقصى العجب والاستبعاد والرفض والاحالة فى تصورهم لأنهم منكرون للبعث مطلقا . ثم تحقيقا للاحالة (٢٩) وتصويرا لغاية الاستبعاد يعطفون على الفعل « متنا » غالبا مرحلة من مراحل التحلل للجسد البشرى « وكنا ترابا » « وكنا ترابا وعظاما » « وكنا عظاما ورفاتا » ومن عجب أنهم حين يذكرون آباءهم معهم فى نسق متلاصق لا يذكرون العظام » .

« أئذا كنا ترابا وآباؤنا » يعنون تقادم العهد على موتهم وفناء عظامهم حين يصير الجسد كله ترابا ويلحق بالماضين منهم

---

(٢٥) الآية ١٠ (٢٦) الآية ٤٩ .
(٢٧) مريم ٦٦ ـ ٦٧ .
(٢٨) راجع الكشاف ٣/٣٢ والرازى ٢٣/٤٨ وأبا السعود ٦/١٣٤ .
(٢٩) النازعات ١٠ ـ ١١٢ .

ونظيره : أإذا ضللنا فى الأرض : أى فنيت الأجساد واختلطت وتاهت فى تراب الأرض كما يضل الماء فى اللبن وهذا أرجح من رأى الزمخشرى الثانى : أى غبنا (٣٠) لأن الغيبة محققة فى مطلق الدفن • وحين يذكرون « ترابا وعظاما » ويتعرضون لذكر الآباء يذكرونهم فى استئناف أو جملة مستقلة ترتيبا تصاعديا أو ترتيبا تاريخيا عكسيا • وهذا من الدقة فى التعبير وذكر التراب والعظام : حين يخصون الفناء المتقادم فى الاقتصار على « ترابا » غالبا أو « ضللنا » يذكرون الجملة الثانية التى هى الهدف من الانكار فى صيغة مباينة متقابلة للجملة الأولى ليوثر هذا التقابل الحاد مشاعر الانكار والاستبعاد والتعجب المتوترة الثائرة « ائنا لفى خلق جديد » « ذلك رجع بعيد » ولما ذكروا العظام والرفات وهو التراب عند الفراء عن مجاهد أو هو الحطام أو ما بولغ فى دقه وتفتيته (٣١) وكأنها مرحلة ثانية بعد العظمية كانت الجملة الثانية مشتملة على البعث فى خلق جديد « ائنا لمبعوثون خلقا جديدا » وكأنها آية تتوسط تعبيريا مرحلة التقادم جدا أو مرحلة الترابية والمرحلة الأحدث منها وهى العظمية ان صح التعبير •

ثانيا : من الأساليب يتضح أن الانكار ليس موجها الى البعث على هذه الحال وان كان هو المآل بل الى الاستعداد والتهيؤ وكونهم بعرض ذلك كما أشار أبو السعود دلالة على التمادى فى الكفر والضلال (٣٢) •

ثم أن أساليبهم بنيت على الايجاز والتوكيد وهو مظهر أسلوبى مثير لأن التوكيد فرع الاطناب والبسط والتقاؤهما يؤكد ما ذهب اليه

---

(٣٠) الكشاف ٣/٢٤٢ •
(٣١) راجع أبا السعود ٥/١٧٧ •
(٣٢) تفسير أبى السعود ٥/١٧٧ •

بعض العلماء من أن القرآن ايجاز كله وأنوان الاطنـاب لا تخرج عن كونها ايجازا والمهم أن هذا تقابل غريب فى الأسـلوب يلائم التقابل الغريب فى الدلالات ـ وأعنى بالايجاز : حذف الفعل العامل فى الظرف يقدر نخرج (٣٣) وهذا التقدير لأن هناك فواصـل كالهمزة وان واللام أئنا لمبعوثون » يقدر : نبعث : وفى أئذا كنا ترابا وأباؤنا أئنا لمخرجون: يقدر نخرج (٣٣) وهذا التقدير لأن هناك فواصل كالهمزة وان اللام تمنع الفعل بعدها من العمل فيما قبله وكأن الفعل المنكر انكر مـرتين تقديرا واظهـارا ٠

والتوكيد واصح من اذا فى الأولى والهمزة غالبا وان واللام غالبا واسمية الجملة ، وتكررت فى الجملتين على لسان قوم ثمود إغراقا فى الكفر (٣٤) أما نوع الجملة الثانية فقد كان للمقـام والسياق والموقف الأثر فى صـياغتها على نحـو خاص وقد لمـح الكرمانى ذلك فى آيتى الصـافات ٠

حين ذكر أن الآية الأولى وفيها البعث حكاية كلام الكافرين وهم منكرون له أما الآية الثـانية فى يوم الدين على لسـان أحد القرينين لصـاحبه فى الجنـة « قال قائل منهم انى كان لى قرين يقول أانك لمن المصـدقين » أى بيوم الحسـاب والجزاء وما نحن فيه الآن فناسب ذكر التعبير « أئنا لمدينون » أى محاسبون (٣٤) ٠

ثالثا : قد يكون الاسلوب الاسـتفهامى خاتمة لأقوالهم يتبعه الرد والتعليق والتفنيد كما فى آية الرعد والاسراء والصافات الأولى بو ق والواقعة وقد تتبعه جمل تؤكد الانكار والاستبعاد على سـبيل الترقى فى الشعور وتحقيقه كآية : المؤمنون : هيهات هيهات لما توعدون

---

(٣٣) راجع الكشاف ١٥٧/٣ والبحر ٩٤/٧ ٠
(٣٤) أسرار التكرار ١٧٩ بتصرف ٠

بتأكيد البعد العظيم (٣٥) لهذا الوعد بالبعث ثم : ان هى الا حياتنا الدنيا : تحقيق لعقيدتهم بأسلوب القصر الذى يتحد فيه الطرفان نفيا حاسما للبعث ثم تأكيد المنفى المقدر بالتذييل « وما نحن بمعوثين » •

كما جاء على لسان مشركى العرب « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » وتجد هنا أمرين ثانيهما ذكر أساطير الأولين تفتقت عنها عقولهم وشاعت على ألسنتهم وذكاها بعض السفر منهم الى الأمم المجاورة من الفرس والروم كالنضر بن الحارث يأتون ليحدثوهم عما وجدوا وما سمعوا ولعل هذا أدل على اهتمام العرب القدامى بالكلمة المنقولة وتزجية فراغهم بما هو غريب يروى فى أسمارهم ولذا ذكرت لفظه « أساطير » فى القرآن تسع مرات جاءت على ألسنة المشركين من قريش (٣٦) والتجارة أو القرش والتقريش من أسباب النقل لهذه الأحاديث • وقد جاءت كلها بعد القول بيانا لأنها مزاعم لم يكونوا يعتقدونها اذ لم يثبتوا عندها وبخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم •

وأول الأمرين ترتيبا هو تقديم اسم الاشارة العائد على البعث فى المؤمنون وتأخيره فى النمل وسر هذا فى الكشاف ومن تبعه ان المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر وأن الكلام قد سيق لأجله ففى احدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام وفى الأخرى على أن

---

(٣٥) راجع الرازى ٢٣/٩٨ •

(٣٤) المنقول عن سيبويه ان لكم الثانية بدل من الأولى وخبر الأولى محذوف وعن الفراء ان لكم الثانية كررت للتأكيد لما طال الكلام حسن التكرار وهناك أوجه أخرى •

وراجع الكشاف ٣/٣٢ والبحر ٦/ ٤٠٤ والرازى ٢٣/٩٨ •

(٣٦) المعجم المفهرس ٣٥٠ •

اتخاذ المبعوث بذلك الصـــدد (٣٧) ذكر الكرمانى أن آية « المؤمنون جاءت على القياس لأن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالمنفصـــل ثم ذكر المفعول « هـــذا » وقدم فى الفعل لأنه لمـــا ذكر الآية السابقة عليها :

« وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون » وكان القياس فيها كنا نحن وآباؤنا ترابا » فقدم ترابا ليسد مسد نحن قدم فى الآية الثانية المفعول هذا موافقه لقوله « ترابا » (٣٨) وهو يعللهـــا بالتلاؤم اللفظى لكنه يبقى بعد ذلك محتاجا لسره البلاغى الذى نجده عند الزمخشرى • وارتضاه السكاكى والقزوينى (٣٩) •

الانكار بغير الهمزة :

وقد جاء بايان ومتى ومن أساليب أيان : قول الله تعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها » (٤٠) « بل يريد الانسان ليفجر أمامه يســـأل أيان يوم القيـــامة فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفـــر » (٤١) •

وقال تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو » (٤٢) •

---

(٣٧) الكشاف ١٥٨/٣ والرازى١١٥/٢٣ والبحر٩٤/٧ وأبوالسعود ٢٩٨/٦ •

(٣٨) راجع أسرار التكرار ١٤٩ •

(٣٩) راجع المفتاح ٢٣٩ والايضاح ٢١١ ط خفاجى •

(٤٠) النازعات ٤٢ ــ ٤٤ •

(٤١) القيامة ٥ ــ ١٠ •

(٤٢) الأعراف ١٨٧ •

وقال تعالى . « قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون يسألون أيام يوم الدين يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون » (٤٣) .

ونلحظ هنا أن الاستفهام بأيان جاء بعد الفعل « يسأل » الحالى عرضا وتعجيبا من هذا السؤال ومعنى : يسأل : يستفهم ويستعلم ، والواقع أن للفعل سأل دلالات مختلفة فى القرآن الكريم سأل بمعنى استخبر ويتعدى بنفسه وبعن وبالباء تقول : سألته كذا وسألته عن كذا وبكذا وتعديه بعن أكثر كقوله : ويسألونك عن الروح (٤٤) كما يأتى سأل بمعنى حاسب وآخذ وبمعنى طلب أو طلب المعروف ، وسأل بالله : أقسم (٤٥) .

كما أن السؤال بمعنى الاستفهام سواء كان حقيقيا أم مجازيا قد يكتفى فيه بالحكاية وصيغة الخبر كقوله تعالى : يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج (٤٦) « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين » (٤٧) « يسألك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله » (٤٨) .

وسواء حجبت الاجابة كما فى السؤال عن الساعة والروح أم كانت الاجابة مباشرة مفصلة أو مجملة كقوله تعالى « ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا .. » الآيات (٤٩)

---

(٤٣) الذاريات ١٠ ـ ١٤ .
(٤٤) الاسراء ٨٥ .
(٤٥) راجع مفردات الراغب ٢٥٠ ومعجم ألفاظ القرآن ١/٥٣٤ .
(٤٦) البقرة ١٨٩ (٤٧) المعارج ١ .
(٤٨) الأحزاب ٦٣ (٤٩) الكهف ٨٣ وما بعدها .

« يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » (٥٠) أم كانت الاجابة على الأسلوب الحكيم توجيها وتعليما للسؤال عن الأجدى والأنفع كالآية « يسألونك عن الأهلة : قل هى مواقيت للناس والحج » (٥١) • ثم ان المقام قد يقتضى لخطورته وأهميته تكرار السؤال مرة بالخبر يعقبه صيغة السؤال ذاتها بالاستفهام حقيقيا كقوله تعالى « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٥٢) أم مجازيا كقوله تعالى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » (٥٣) وقد كثر فى القرآن السؤال بطريقى الخبر مؤكدا بالاستفهام فى التقرير بالخالق سبحانه ومظاهر الخلق كقوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٥٤) وفى السؤال الانكارى عن الساعة على ألسنة المشركين بالأداة أيان كما فى الآية صدر البحث وهذان الغرضان الكبيران — ضمن أغراض أخرى يسيرة محدودة الآيات •• كانت لجليل خطرها فى الدعوة الى الوحدانية ،أ و انكار تعجيبهم واستهزائهم من القول بالبعث وبيان أن علمها عند الله وحده وحتى لا يشغل بعض المسلمين بالسؤال عما لا يفيده دينا أو دنيا •

وكان المشركون يسألونه عليه السلام استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لأن الله عمى وقتها فى سائر الكتب (٥٥) •

وأيان للزمان مثل متى الا أنها تفيد التفخيم فى أساليب قوية غاضبة ولذلك نلحظ أنها جاءت فى سور مكية وجاءت كثيرا فى الأساليب

---

(٥٠) الأنفال ١ (٥١) البقرة ١٨٩ •
(٥٢) البقرة ٢١٩ (٥٣) النازعات ٤٢ •
(٥٤) لقمان ٢٥ والزمر ٣٨ واجع فى هذه الأساليب المعجم المفهرس ٣٣٦ وما بعدها •
(٥٥) راجع الكشاف ١٣٤/٢ والبحر ٤٣٤/٤ وأبا السعود ١١٦/٧-

القصيرة أو الجمل القصيرة المحتدمة المشعة بعديد من الانفعالات كما فى الذاريات والقيامة والنازعات .

ثم انكار الوقت فى أيان يعنى — على طريق الكناية — انكار الحدث الواقع فيه وهو البعث يستوى فى ذلك السؤال بأيان أو متى ، وهى أسئلة تمثل نهاية الاستبعاد والسخرية الهازئة والانكار العنيد والاستعجال الهازل .

وقولنا ان ايان تفيد التفخيم دائما هو رأى الرضى ورجحه القزوينى ناقلا عن على بن عيسى الربعى وهو الواضح من كلام الدسوقى الذى نقل عن السيد الشريفى أنه لا يقال أيان تنام ، وغالب النحاة أنها تأتى للتفخيم وغيره مثل متى .

وذكر ذلك اليعقوبى وأيده السبكى معترضا على القزوينى فى ايراده آية القيامة :

« يسأل أيان يوم القيامة » دليلا على التهويل والتفخيم ، فانه كلام محكى عن الانسان الفاجر الساخر المنكر للبعث فكيف يتأتى فيه التهويل ؟ ورد الدسوقى بأن التفخيم قد تحقق باعتبار حكاية الكافر لاعتقاد المخاطب وهو الداعى استهزاء به وانكارا ، يريد أن يقول أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لما كان ينذر بيوم القيامة وأهواله بأساليب فخمة قرآنية وحديثية تناسب قدر هذا اليوم الرهيب كان رد الفعل عند الكافر هو السخرية حاكيا هذا الاهتمام الشديد فى أسلوب مصور له بأيان استهزاء وانكارا كما أجاز أن تكون الحكاية بالمعنى وعبر القرآن بما يقتضى اشعارا بعظم ذلك اليوم فى نفسه وان كان الجاحد لا يقر به ، وواضح أن الرد الأول هو المعتبر واقتصر عليه المغربى (٥٦)

---

(٥٦) راجع شروح التلخيص ٢/٢٨٧ وما بعدها .

يؤكد ذلك وان أيان للتفخيم دائما لفظها وصوتها وتأكيد الأسلوب لهذا التهويل ولذا عدل عن الجواب الى ما هو أفخم (٥٧) « فاذا برق البصر الآيات » وهو خراب العالم « يقول الانسان يومئذ أين المفر » وهو ذات الانسان الذى كان متجانفا ساخرا فهو يسأل يومئذ آيسا هلعا كسيرا أين المفر ؟ نفيا له فلا مفر دلالة اليأس القاتم والأمل المعازب وفى هذه المقابلة يكون التأثير ورج القلوب •

وعلى هذا فحكاية الكافر للوعيد والتهويل على لسان الرسول مقصود تلاؤما مع نسيج الأسلوب وهو سبيل سار عليه القرآن ثم ليكر عليه ردعا ونقضا •

وفى آيات الذاريات سبقها بدء السورة أربعة أقسام ببعض مخلوقاته البديعة المدبرة بقدرة وعلم ، على وقوع يوم الدين • وقد بدأ بالدعاء عليهم — على النهج العربى — ووصفهم بالخرص كناية عن الكذب اللازم لهم • ثم بين أنهم فى غمرة الجهل والضلال ساهون غافلون وقولهم أيان : ليس ظرفا لليوم بل هو ظرف للحدث عن السؤال يوم هم على النار يفتنون : أى يحرقون ويعذبون •

وقد وجدنا كثيرا عند الزمخشرى ومن تبعه تنظيرا لأيان — فى التأويل — بمتى (٥٨) ولعله اشارة الى معنى الزمان على العموم والا فان أيان مباينة جرسا ودلالة من حيث التفخيم ومجيئها فى أساليب مهولة ، مباينة لمتى اذ يلى متى الماضى والمضارع والمبتدأ ولا يلى أيان الماضى (٥٩) وفى هذه الأساليب جاء فى آيتين : السؤال بالمضارع عن

---

(٥٧) راجع نظم الدر ٩١/٢١ وراجع فى الآية الكشاف ١٩٠/٤ وأبا السعود ٦٥/٩ •

(٥٨) راجع فى تنظير أيان بمتى : الكشاف ١٣٤/٢ ، ١٤/٤ ، ١٩٠/٤ والرازى ٨٠/١٥ وأبا السعود ٣٠٠/٣ و ١٣٦/٨ ، ٦٤/٩ ، ١٠٥/٩

(٥٩) راجع أبا السعود ٣٠٠/٣ •

الساعة « يسألونك عن الساعة » ثم تليها الجملة « أيان مرساها » على البدل من الساعة (٦٠) أى عن زمان وقوعها أو عن ارسائها ومرساها: مصدر ميمى من أرساه اذا أثبته وأقره ولا يكاد يستعمل الا فى الشىء الثقيل كما فى قوله تعالى « والجبال أرساها » ورجح أبو السعود ان تكون جملة الاستفهام محلها النصب على نزع الخافض لأنها بدل من « عن الساعة » أى الجار والمجرور ثم ان فائدة توالى الجملتين ليس التنصيص على وقتها فحسب بل على الساعة ذاتها وما يتعلق بها ثم باعتبار حلولها فى وقتها المعين وقد سلك هذا المسلك فى الجواب الملقن عنها فلم يقل قل انما علم وقتها بل قال تعالى « قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو .. الآية » (٦١) كما ألمح البقاعى الى بيان الابهام فى الساعة بما بعدها (٦٢) وهو متعالم فى البدل وتأمل التلاؤم بين مرساها وثقلت ..

وفى آية النازعات : كان الرد فيم أنت من ذكراها وفى تأويل الآية أقوال (٦٣) وأقربها الينا أن « فيم » انكار لسؤالهم ، وما بعده من الاستئناف تعليل للانكار وبيان لبطلان السؤال أى فيم هذا السؤال ثم قيل : أنت من ذكراها أى أنت علامة من علاماتها كقوله عليه السلام « بعثت فى نفس الساعة » وقوله عليه الصلاة والسلام : بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار «بالسبابة والوسطى» وقوله « الى ربك منتهاها» أى منتهى علمها تفصيلا من كنهها وكيفيتها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها وانما المهم أن يعلموا باقترابها وقد حصل بالبعثة (٦٣) وفى

---

(٦٠) راجع الكشاف ١٣٤/٢ والبحر ٤٣٤/٤ .

(٦١) راجع البحر ٤٣٤/٤ وأبا السعود ٣٠٠/٣ .

(٦٢) نظم الدر ٢٤٤/٢١ .

(٦٣) راجع الطبرى ٣٢/٣٠ وقد رأى أن قوله فيم أنت من ذكراها : كما فى أى شىء أنت من ذكر الساعة والبحث عن شأنها فهو كما عبر

أساليب أقل عنفا جاءت متى ازمانية على أسنتهم دالة على انكار وقت البعث كناية مصورة عن انكاره من أصله ٠

وقال تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين فاما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون » (٦٤) ٠

والتعبير « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » جاء فى القرآن الكريم ست مرات (٦٥) أربع منها لانكار يوم البعث بانكار وقته والاستهزاء وقد تبعه فى النظم القرآنى الرد الملائم باثبات هذا اليوم واستحضار مشهد بئيس لهم فيه كما فى آية الملك وفى آيات يس « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون »(٦٦) ٠٠ الآيات وهى تبدأ ــ فى الرد ــ بوصف الصيحة الواحدة أو النفخة تأتى بغتة وهم فى خصام ومراء فتأتى عليهم وفى سبأ : بعد الآية « قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » (٦٧) وفى آيات الأنبياء جاء بعد الآية : « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغته فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون » (٦٨)٠

=

الزمخشرى تعجب من كثرة ذكره لها وراجع الكشاف ٤/٢١٩ وأبا السعود ٩/١٠٥ ونظم الدرر ٢١/٢٤٥ ٠

(٦٤) الملك ٢٥ ــ ٢٦ ٠

(٦٥) المعجم المفهرس ٧٥٤ ٠

(٦٦) الآيات ٤٨ ــ ٥٢ ٠

(٦٧) الآيتا ٢٩ ــ ٣٠ ٠

(٦٨) الآيات ٣٨ ــ ٤١ ٠

وهذه من أشد الآيات التى ترد على استهزائهم وانكارهم بهذه الأساليب فقد نفت عنهم العلم بطريق التهويل عما يقع لهم أنذاك حين يسلبون القدرة يغشاهم العذاب فلا يقدرون على رده عن وجوههم وهو أكرم ما فى الانسان بيانا لعذاب رهيب (٦٩) كما جاء الأسلوب مرتين فى يونس والنمل استعجالا للعذاب عن طريق السخرية (٧٠) .

من ردود القرآن :

قدمنا أن ردود القرآن كانت أشد قوة وأكثر بسطا وتنوعا والواقع أن القرآن لم يترك قضية البعث حتى اقام لها شواهد حسية أو بعثا مصغرا ان صح التعبير نطقت به الكتب وصار فى الناس أحاديث كقصة أهل الكهف واحياء الموتى باذن الله على يد عيسى عليه السلام ثم قصة هذا الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها « قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه » (٧١) والاستفهام بأنى : فيه الاستبعاد والانكار فكان هو محل التجربة أماته الله مائة عام ثم بعثه الآيات . وكما فى قصة الخليل عليه السلام والطيور التى وزعهما أشلاء على قنن الجبال « ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » (٧٢) .

مع هذه الآيات فى أطوار الخلق ومظاهر القدرة التى يعقبها القرآن غالبا بتقرير البعث كقوله «كذلك يحيى الله الموتى» (٧٣) «أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» (٧٤) « ان الذى أحياها لمحيى

---

(٦٩) راجع فى الآيات أبا السعود ٦٧ ، ٧/١٣٣ ، ١٧١ ، ٧/٩ .

(٧٠) الآيتان يونس ٤٨ والنمل ٧١ وراجع فيهما أبا السعود ٤/١٥١، ٢٩٨/٦ .

(٧١) البقرة ٢٥٩ (٧٢) البقرة ٢٦٠ .

(٧٣) البقرة ٧٣ (٧٤) القيامة ٤٠ .

الموتى » (٧٥) « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » (٧٦) وعديد من هذه الردود سنلتقى بها فى غرض التقرير ويهمنا هنا أن نقدم لونين من الأساليب جاء فيها الانكار القرآنى والتبكيت والتوبيخ لمنكرى البعث .

الأول : خاص بالفعل حسب يدخل فيه الاستفهام الانكارى كقوله تعالى :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (٧٧) « أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه » (٧٨) وفى ذات السورة « أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى» (٧٩) وآية المؤمنون جاءت بعد آيات صدرت بسؤال فيه توبيخ وتبكيت « كم لبثتم فى الأرض عدد سنين » فجاء الاستفهام الثانى أعظم فى التوبيخ والتبكيت (٨٠) أى أفحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث ، وعبثا حال أو مفعول له أى خلقناكم للعبادة والطاعة واعمار الكون ولذا نزه الله نفسه على سبيل الاستعظام أن يخلق شيئا ليس فيه حكمة (٨١) وأتبع اسم الجلالة باسميه الملك الحق وبشهادة التوحيد وأنه رب العرش العظيم فكيف بما تحته .

---

(٧٥) فصلت ٣٩ (٧٦) ق ١١ .
(٧٧) المؤمنون ١١٥ .
(٧٨) القيامة ٣ ، ٤ .
(٧٩) القيامة ٣٦ ـ ٤٠ .
(٨٠) راجع الرازى ١٢٧/٢٣ وأبا السعود ١٥٣/٦ .
(٨١) راجع الكشاف ٤٥/٣ وأبا السعود ١٥٣/٦ .

وآية القيامة : أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه : ينكر ويبكت من يشك فى البعث .

والمراد بالانسان قيل معين وهو عدى بن أبى ربيعة أو أبو جهل ورجح جمع من العلماء أن الانسان المكذب بالبعث على الاطلاق ولما كان فى الناس من يبالغ فى الانكار عبر بأداة التأكيد « لن نجمع » وتأمل ما يفيده نون العظمة هنا من تناقض تأكيدهم المبنى على الزعم الواهم مع الحق والاقتدار على ذلك ، وذكر جمع العظام دون البعث مع أنه كناية عنه لأن تشتت العظام وتحلل الجسم كان مصدر الاحالة عندهم وجاء الرد بالغ التركيز والايجاز والاعجاز : فالحرف بلى أوجب ما بعد النفى فكأنه قال بلى نجمعها وقادرين حال من الضمير فى نجمع ورأى الرازى أن جعله حالا جار مجرى بيان الواضحات اذ جمع العظام لازم من لوازم القدرة وهو غير قوى ورجح أن يكون المعنى : كنا قادرين على أن نسوى بنانه فى الابتداء فوجب أن نبقى قادرين على تلك التسوية فى الانتهاء فتم حذف أكثر من الجملة .

وتسوية البنان : تعبير معجز أثار قرائح العلماء قديما وحديثا فتحدثوا عن تسوية البنان أى جعلها صفيحة مستوية لا شقوق فيها فيعدم الارتقاء أو أن تسوية البنان تهيئتها كما كانت على صغرها ولطافتها من غير تفاوت وخصها لأنها أطرافه وآخر ما يتم به خلقه وهو كناية عن جمع سائر العظام على ما كانت من باب أولى . كما أن المعنى الأول كناية عن القدرة النافذة التى لا معقب لها (٨٢) كما لحظه بعض المعاصرين دقة التسوية فى طرف البنان بخطوطه ودوائره غير المكتملة التى لا تتفق فى اثنين من البشر كما دل علم تحقيق

---

(٨٢) راجع فى الآية الطبرى ٢٩/١١٠ والنيسابورى ٢٩/٩٨ والكشاف ٤/١٩٠ والرازى ٣٠/٢١٨ ونظم الدرر ٢١/٨٨ واليوم الآخر فى ظلال القرآن ٣١ .

الشخصية اعجازا فى الخلق واعجازا فى التعبير فهو رد عتيد على من يشك فى البعث .

وفى الآية الثانية من سورة القيامة « أيحسب الانسان أن يترك سدى» والسدى فى اللغة المهمل أى مهملا لاعبا لاهيا لايكلف ولا يبعث الانكار التعجيب والاحالة ، واعادة التعبير هنا بعد ذكره أول السورة الانكار التعجيب والاحالة ، واعادة التعبير هنا بعد ذكره أول السورة لخطورة هذا الأمر الذى ناقشته السورة بل كان أهم أغراضها وكأنها كما نقل البقاعى عن الامام أبى جعفر بن الزبير بسطت ما أجمل فى سورة المدثر من الآيات : كنا نكذب بيوم الدين ، فذا نقر فى الناقور، الى غير ذلك (٨٣) .

ثم قد صحب الآية الأخيرة ــ رحمة من الله سبحانه بهذا الانسان الذى يبعد عن العلم اما بجهل بالحكمة أو بجهل بالقدرة لما فى طبعه من النقص والغفلة ، رحمه الله باعادة البرهان يأمر بجمع القدرة والحكمة وهما دليلان كما وضح الرازى والبقاعى فلا يجوز فى عقل عاقل أن يعطى الانسان قدرة وآلة وعقلا دون تكليف ودون جزاء ثم الاستدلال بالخلق وأطواره على الاعادة بدءا من نطفة من ماء مهين تتميز بالقدرة وتتنوع لتصير ذكرا وأنثى ولما كان تحول النطفة الى خلق سوى كالتحول من الشىء الى نقيضه وكان لا يتم ذلك الا بقدرة الله المطلعة جاء الاستفهام التقريرى آخر لمسة فى بناء السورة وآخر الزام لا يبرم ولا يرد « أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟» بلى (٨٤) ، بلى وعزة ربنا » .

---

(٨٣) راجع النظم ٢١/٨٨ ، ١١٤ ــ ١١٥ .

(٨٤) راجع فى الآية الرازى ٣٠/٢٣٤ وأبا السعود ٩/٦٩ ونظم الدرر ٢١/١١٥ وما بعدها .

واللون الثانى من الأساليب وهو الظن الخاص أعنى لونا من ألوان الظن وهو الفاسد المبنى على أوهام وأكاذيب فقد جاء معظمه فى الأساليب الخبرية على ألسنة منكرى البعث كقوله تعالى ــ عن صاحب الجنتين وقد أطغته النعمة « ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة »(٨٥) وقول المشركين « واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة أن نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين »(٨٦) .

وقد أثبت لهم القرآن الظن الفاسد فى اعتقاداتهم (٨٧) ولم يجىء انكار الظن الا فى آية المطففين تأنيبا لهم وتبكيتا اذ لو كانوا مؤمنين بالبعث لما طففوا المكيال وأخسروا الميزان والآية « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٨٨) روى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قدم المدينة وكان أهلها من أخبث الناس كيلا فنزلت والاستفهام وارد لتهويل ما ارتكبوه والتعجيب من اجترائهم عليه (٨٩) .

---

(٨٥) الكهف ٣٥ ، ٣٦ ، ومثلها آية فصلت ٥٠ .

(٨٦) الجاثية ٣٢ .

(٨٧) راجع المعجم المفهرس ٤٢٩

(٨٨) المطففين ٤ ، ٥ .

(٨٩) راجع أبا السعود ١٢٥/٩ .

الانتقام الالهى بين وعيد الرسول وهزء الكافرين :

ومن أغراض الانكار القرآنى ما دار حول تهديد الرسل لأقوامهم ـ ان لم يؤمنوا بالله الواحد ، بانتقامه منهم وانزاله العذاب عليهم مقدمة لعذاب أخروى رهيب ، وقد كان التهديد بهذا العذاب مثارا للمشركين غلاظ القلوب ومادة للدعابة والسخرية دلالة على عتوهم وطغيانهم ولذا لحظنا فى القصص القرآنى أن الالحاح فى الدعوة على التلويح بالعذاب كان آخر شىء فى منهج الدعوة يتلوها مباشرة الاستئصال بالعذاب من الله تعالى الا فى الأمة المحمدية التى جاء فيها العذاب نوعيا غير مستأصل فاجتث الله من مشركى العرب الجذور التى لا خير فيها فى غزوة بدر وأبقى على من أراد به خيرا كانت له بذور فى القلوب •

وفكرة استعجال العذاب تكذيبا به واستهزاء جاءت كثيرا فى الأساليب الخبرية والأمرية وأقل من ذلك الاستفهامية من نحو حكايات القرآن الكريم فى قوله تعالى :

«ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده» (١)ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » (٢) •

وكان النضر بن الحارث يتفكه فى حركة مستخفة « اللهم ان كان

---

(١) الحج ٤٧ (٢) العنكبوت ٥٣ ـ ٥٦ •

هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣) .

وقالت عاد لهود عليه السلام « فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » (٤) مرتين فى القرآن .

وثمود لصالح عليه السلام نفس العبارة (٥) مع تغيير ان كنت من المرسلين وقبلهم قوم نوح « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » (٦) وكان قوم لوط أصرح وأعنف وأشد سخرية . « فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله أن كنت من الصادقين » (٧) .

والأساليب الخبرية « يستعجلونك » فيها انكار لهذا الاستعجال قال فى الكشاف : « أنكر استعجالهم بالمتوعد به من العذاب العاجل والأجل كأنه قيل ولم يستعجلون به كأنهم يجوزون الفوت وانما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف والله عز وعلا لا يخلف الميعاد » (٨) .

كما أن الأمر : ائتنا : استعجال وتكذيب وتحد (٩) وقولهم : ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين توحى مع التهكم بالتأفف وعدم المبالاة : تحس ذلك فى تعميمهم «بما تعدنا» .

وحذف جواب الشرط ان : أى فأتنا به . كما جاء عنهم فى أساليب الاستفهام ما ذكرته الآيات الكريمة :

---

(٣) الأنفال ٣٢ (٤) الاعراف ٧٠ والاحقاف ٢٢
(٥) الأعراف ٧٧ (٦) هود ٣٢
(٧) العنكبوت ٢٩ .
(٨) الكشاف ٣/١٨ وأبا السعود ٣/٢٣٩ ، ٢٤٣ .
(٩) راجع الكشاف ٢/٨٧ .

« ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (١٠) .

« ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين » فى سورتى يونس والنمل (١١) .

وتأمل كيف بنيت أساليب الاستفهام المحكية عنهم على المبالغة فهم فى آية هود يذهبون فى الاستعجال مذهبا يسألون فيه عن موانع نزوله وأسباب حبسه تكذيبا بالغا واستهزاء ثقيلا وفى آيتى يونس والنمل يسألون فى استعجال وانكار عن وقته وانكارهم بوقته — كما سبق — انكار للعذاب نفسه من باب أولى على طريق الكناية .

أما ردود القرآن فقد كثرت جدا ويهمنا هنا ما جاء منها على الاستفهام فى السياقات العنيفة المتوترة التى تهز أو قل تزلزل الوجدان بالوقع المهول والتهديد بالعذاب الباطش ونلتقى هنا برد القرآن الذى تبع آية يونس « قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون أثم اذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » (١٢) .

وهى آية فذة بنيت على الايجاز وتداخل الاستفهام وتكثير الظلال وتركيز المعانى والتصوير بالجرس والدلالة والطباق ووضع الظاهر

---

(١٠) هود ٨ .

(١١) يونس ٤٨ والنمل ٧١ وراجع الكشاف ٢/٢٦٠ ، ٢/٢٤٠ وأبا السعود ٤/١٥١ ، ٦/٢٩٨ .

(١٢) يونس ٥٠ ، ٥١ .

موسوما بسمات مبررة وتوزيع الازمنة فى دقة معجزة والمعنى فى ثوبه الطبيعى كما قال العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله :
« نبئونى عن حالكم ان جاءكم العذاب بغتة فى ليل أو نهار مذا أنتم يومئذ صانعون اذكم هنالك بين أمرين اما الاصرار على ما أنتم عليه من تكذيب واستعجال واما الايمان فأيهما تختارون أتستعجلون بالعذاب يومئذ كما تستعجلون به اليوم كلا فانكم مجرمون ثم نبئونى أى نوع منه تستعجلون فانه الوان وفنون وكله مر المذاق مكروه موجب للنفار كما قال الزمخشرى أم أنتم اليوم تكذبون ثم اذا وقع بعد حين آمنتم به آلا انه لن ينفعكم ايمانكم بعد أن ما طلتم وفاتكم وقت التدارك بل هنالك يقال لكم تنديما الآن تؤمنون وقد كنتم به تستعجلون » فوضع استفهامين متقابلين دل على أن هناك استفهاما جامعا لهما والاستفهام عن الصنف المستعجل به من العذاب دل على استفهام تمهيدى قبله عن حصول أصل الاستعجال ، وثم : دل على معطوف عليه محذوف وقد تبع الشيخ دراز الكشاف فى أنه مطوى بين الهمزة والمعطوف وأبو حيان على أن الهمزة مقدمة من تأخير والآن دل على عامله المقدر حتى ان مدة الاستفهام الداخلة على هذا الظرف دلت على طول مدة التسويف الذى يمنع من قبولهم ايمانهم لأنهم عمروا ما يتذكر فيه من تذكر •

وفى الآية فوق ما سبق :

قدم البيات لأن فجأة العذاب فيه أهول وأنكى ، والمجرمون موضوع موضع المضمر لتأكيد الانكار اذ ان حالهم مباينة لحال الاستعجال فحق المجرم أن يموت فزعا من اتيانه فضلا عن استعجاله وعبر بالمضارع يستعجل والشىء لا يستعجل بعد اتيانه والمراد التهويل وانكار الاستعجال •

قال أبو السعود لاخراجه من خير الامكان وتنزيله فى الاستحالة منزلة استعجاله بعد اتيانه كما عبر بالماضى « أتاكم » مكان يأتكم

مبالغة وتهديدا فى استحضاره وتحقق وقوعه والاستفهام بما للتهويل كأنه قيل أى شىء هول شديد تستعجلون منه ومن للبيان والهمـــزة : لانكار الايمان منحصرا فى هذا الوقت وهو داخل فى القول المحـذوف فعله أى يقال لهم : أبعد ما وقع العذاب . الآن آمنتم حين لا ينفع ، والمراد انكار التأخير للايمان عن وقت التكليف تنديما وتحسيرا كمـا قيل لفرعون حين الغرق وقد حاول تقليد بنى اسرائيل فى الايمان : آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » •

والآن : مقدمة على جهة القصر أى الآن دون ما سبق من أوقات مديدة ؟ •

كما فى الالتفات بالمواجهة بخطاب الاهانة والتعنيف بعد غيبـــة الاهمال لهم تهديدا وغضبا ساحقا رهيبا ثم يلاحقهم الأسلوب بعـد دخولهم النار فيواجهون بالنكير ويسمون بالذين ظلموا وتوسم الدار بدار الخلد تيئيسا ويكون العذاب ذوقا مع باقى ألوانه الهائلة ويختم بأسلوب قصر يعلى فيه جانب الحق والعدل والاستحقاق متعانق مـع أسلوب الاستفهام المثير « هل تجزون الا بما كنتم تكسـبون » مـع التهكم فى اطلاق الكسب على العمل الضال (١٣) •

ومن أساليب التهديد بالعذاب مقـدماته أو أنواعه جاءت ثلاث آيات فى معرض الاحتجاج على الكفار الذين يجعلون لله شركاء فى سورة الأنعـــام :

---

(١٣) راجع فى الآية النبأ العظيم ١٤١،١٤٢ والكشاف ٢/٢٤٠ـ٢٤٢ • وتفسير الرازى ١٧/١٠٩ ـ ١١٠ والبحر ٥/١٦٦ ، ١٦٧ وأبا السعود ٤/١٥٢ •

« قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ان كنتم صادقين » (١٤) •

وبعدها بآيات « قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون قل أرأيتكم ان آتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون » (١٥) •

والثلاث الآيات جاءت بتهديدات ثلاثة الأول : عن مقاتل التهديد بالعذاب الذى كان يأتى الأمم الخالية أو خوفه وأماراته وأوائله كما ذكر أبو حيان للتعبير «أتاكم» ولو جعله بمعنى «يأتكم» كما ذكر غيره ويكون من التعبير بالماضى عما هو آت تحقيقا للتهديد وأنه فى علم الله كائن لكان أولى وعن ابن عباس هو الموت ورأى مقاتل ملائم جدا وهو عذاب الاستئصال لشدة الأسلوب وتناهى الزجر والتهديد بالعذاب أو بالقيامة لاجتماع حرفى خطاب التاء والكاف قال الكرمانى وليس لهما ثالث يعنى آيتى الأنعام وليس لهذه الجملة فى العربية نظير والتاء فاعل تبقى مفتوحة للمفرد المذكر لأنه الأصل كما ذكر ابن الشجرى الكاف حرف خطاب يدل على اختلاف المخاطب وأغنى اختلافه عن اختلاف التاء فهو من تأكيد الخطاب فى المقامات البالغة الزجر والتخويف كالتهديد بعذاب الاستئصال أو الساعة فى الآية الأولى أو التهديد بالعذاب يأتى خفية وبغتة أو جهرة ولما كانت البغتة تضمنت معنى الخفية صح مقابلتها للجهرة وبدىء بها لأنها أردع وأهول • والخطاب لكفار قريش والعرب وقد نبه فى الآية الأخيرة على علة الاهلاك وهى الظلم والمعنى هل يهلك الا أنتم لظلمكم بالاستفهام

---

(١٤) الآية ٤٠ (١٥) الآيتان ٤٦ ، ٤٧

المثير المحقق ثم لما كان التهديد فى الآية الثانية أخف من الأولى والثالثة وهو سلب نعم السمع والبصر والختم على القلوب التى يوظفونها فى المعصية والكفران لم تأت الكاف والمهم أن الآية اكتنفتها آيتان من التهديد الرهيب ، سريانا لأثر التهديد فى الأساليب بدءا ، ونهاية • وقول الكرمانى انه لا ثالث لهما يعنى التاء مع ضمير المخاطبين والا فقد جاء ضمير المخاطب المفرد مع التاء فيما قال ابليس بعد عقابه بالطرد والذأم واللعن انفعالا ابليسيا ماردا « أرأيتك هذا •• الذى كرمت على لئن أخرتنى الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا» مما سنعرض له بعد قليل •

ثم ان الآيات اشتمل كل منها على استفهامين يصعد الثانى الانكار مفيدا توحد الله بكشف الضرر ورجع السمع والبصر فى الآيتين الأولى والثالثة فان لم يؤمنوا بعد ذلك وجاء العذاب الأخاذ المحيط فى الآية الثالثة فهى النهاية المحتومة بالهلاك استحقاقا وجزاء وفاق « هل يهلك الا القوم الظالمون » بالالتفات عنهم الغاء واهانة وهو حديث عن هلكى للاعتبار والتخويف فأى أسلوب وأى تنسيق للأحداث والمعانى والانفعالات والأساليب تبارك الله منزل القرآن •

وتأمل أخيرا هذا الأسلوب ينكر استعجالهم العذاب وانكار الانكار أو التعجيب من التعجب بحيث يكون الانكار منكرا والتعجب متعجبا منه بتعرض المعنى لمعنى من جنسه وان كان مغايرا له فاعلا وحقيقة ليمحوه محوا ويذره هباء وقد التقينا بأساليب معجبة مثيرة تنبه اليها فى حينها كقوله وان تعجب فعجب قولهم « أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » تأمل ذلك ما شئت وتعجب ما أردت والأسلوب

---

(١٦) راجع فى الآيات : الكشاف ١٨/٢ والبحر ١٢٤/٤ ــ ١٣٢. والأمالى الشجرية ٢٩٢/١ ، ٣٠٠/١ وأسرار التكرار ٦٩ وأبا السعود ١١٣/٥ •

معنا فى قول الله تعالى فى سورة الصافات « فتـــول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون افبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنـــذرين » (١٧) وفى الشـــعراء كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون» (١٨)

وقال صالح لقومه بعدما شـــاهد منهم من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة أن قالوا له عليه السلام يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » كما سبق فى الأعراف فقال « يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحســـنة لولا تســـتغفرون الله لعلكم ترحمون » (١٩) .

وهى دعوة بالحسنى الى الايمان والتوبة وسؤال منكر عن سبب استعجال العقوبة السيئة اذ كانوا من غوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا فنحن على ما كنا عليه ثم تحضيض على الاســـتغفار فهو سبب الرحمة وهذا انكار يحدوه أمل فى توبتهم ولذا نلحظ بعض اللين فى الأسلوب فقد ناداهم بنداء يومىء الى حب الخير لهم لأنهم قومه «يا قوم» وذكر الصفة «السيئة» دون المواجهة بالموصوف وهـــو العقوبة ثم تطابقا مع الحسنة وأخيرا الرجاء فى الرحمة مع الاســـتغفار أما فى الصافات والشعراء فالأساليب تغلى غضبا ومقتا ووعيـــدا والحديث من جهة الحق عنهم اهمالا وابعادا وحين تكون الأســـاليب غاضبة مبرقة مرعدة تجد الخطم المشع والتصفية الروحية بعديد من المعانى وهذه ظاهرة فى الأسلوب القرآنى فمع أنه كله ايجاز تتفاوت درجات ايجازه فتبلغ حد التركيز العجيب الذى كلما زدته نظرا زادك عطاء فى مقامات الوعيد والانتقام ويمكن بالتأمل التحقق من هذه الظاهرة وانظر فى الآيات التى معنا وآيات الانعام ثم آيات سورة هود وقصة الطوفان.

---

(١٧) الآيات ١٧٥ ــ ١٧٨ .

(١٨) الشعراء ٢٠٠ ــ ٢٠٤ .

(١٩) النمل ٤٦ وراجع أبا السعود ٦/٢٩٠ .

وفى آيات الصافات : وابصرهم فسوف يبصرون • أى ابصر حالهم وعاقبتهم وما يقضى عليهم من الأمر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصرة والتأييد والثواب فى العاقبة ، والمراد كما قال فى الكشاف الدلالة على انها واقعة لا محالة وأن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك ، وفى ذلك تسلية له عليه الصلاة والسلام وتنفيس «وسوف» لتأكيد الوعيد لا للتبعيد ثم ترقى الأسلوب فى التهديد المجلجل « أفبعذابنا يستعجلون » ان قولنا انه انكار شديد للاستعجال معلقا بالعذاب لا يكاد يصف من وقع هذا الأسلوب الجليل المهول شيئا نعم اللغة قاصرة عن وصف ما نحسه مع أن التعبير القرآنى بالألفاظ ذاتها ولكنه الاعجاز •

وتأمل تقديم المتعلق مضافا الى « ناء » العظمة والجلال فهو عذاب خاص وانتقام غريب يناسب غضب الجبار ان الأسلوب يشع الانكار والتبكيت والتحقير والاهانة والاستعلاء والوعيد وما شئت من هذه المفهومات الرامزة التى لا تشفى فى الوصف • ثم أتبع بهذا التمثيل المنتزع مادته من غاراتهم التى هى جزء من حياتهم « فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين » مثل العذاب المفاجىء النازل بهم بعد أن أنذروا به فانكروه بجيش أبلغ به النذير العريان فلم يلتفتوا الى انذاره حتى أناخ بفنائهم بغتة فقطع دابرهم •

وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا فسميت الغارة صباحا كما قال الزمخشرى وان وقعت فى وقت آخر وليست الروعة والبلاغة لما فيها من تمثيل فحسب كما فى الكشاف بل لطريقة النظم فيها من اذا الفجائية ووصف العذاب بالنزول والكناية فى بساحتهم والمراد بهم ووصف الصباح بالسوء وقد أطلق فى الخير فتحول سوءا والمراد انه نزل بهم السوء فى الصباح فزاد الحدث حتى عدا الزمان •

وتأمل حروف الصفير فى الآية وتوالى الحركات مع توزيع حروف

اللين بدقة تصويرا لسرعة النزول والاكتساح والاستئصال ثم بقاؤه ومكثه وقراره .

ثم ان المخصوص بالذم محذوف : أى صباحهم فهو صباح سوء ظاهرا وباطنا وتلحظ أن الأمر بالتولى عنهم والاعراض وتركهم للمنتقم اكتنف أسلوب الاستفهام وكرر فتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون وهو تكرار أشد وقعا وأنكى هولا من كل حديث وفى اطلاق الفعل المكرر : أبصر للتهويل فى المبصر وأنه لا يحيط به الوصف والذكر مما يقع بهم من أهوال وهو مناسب للترقى فى الوعيد والتهديد (٢٠) وتحليل آيات الشعراء التى تتوعدهم على كفرهم بالقرآن الكريم لا يبعد كثيرا عن هذا المرتقى (٢١) .

متفرقات فى الانكار :

من ذلك ما ورد فى خلق آدم عليه السلام وتكبر ابليس عن السجود له مع الملائكة فى الملأ الأعلى ولجاجه وجدله وطرده ليحمل رسالة الشر الى يوم الدين ونقتصر على هذه الآيات من سور ثلاث والقصة وردت فى سبع سور :

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا قال فاذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » (٢١) .

ومن قصة ابليس فى سورة الحجر « قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم ... الآيات (٢٢) .

---

(٢٠) راجع فى الآية الكشاف ٣/٣٥٧ والبحر ٧/٣٨٠ .

(٢١) وراجع فيها الكشاف ٣/١٣٠ .

(٢١) الاسراء ٦١ ـ ٦٤ .

وفى الأعراف « قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » الآيات (٢٢) ٠

وفى آيات الاسراء وهى من أشد الأساليب امتنع ابليس كبرا وحسدا من السجود لآدم معللا بقولين : الأول : اسجد لمن خلقت طينا انكارا واستبعادا وتحقيرا أى : أأسجد وانا مخلوق من العنصر العالى وهو النار كما فى آية الحجر : انا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » لهذا المخلوق من الطين ، ولم يأت بمخلوقيته من نار لتتم المطابقة هنا لأن الاسلوب شديد الايجاز وابليس فيه طامى الحقد والغضب والتكبر فلعله استعظام هنا واستكبار وادعاء لشهرته ، ثم ليكون الأسلوب نقطة سوداء من غضب وانكار وتحقير ولذا عدل عن ذكر آدم عليه الصلاة والسلام الى الموصول وصلته الخاصة وهى الخلق من الطين لهذا الغرض قوله الثانى : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا » وقد جاء الاستفهام داخلا على الفعل وفيه التاء والكاف للمخاطب أرأيتك ٠٠٠ بعد أن عاقبه الله بالطرد واللعن كما تدل عليه الأساليب الأخرى (٢٤) فقالها نفثة حقد وفحيح كبر وحسد وتوهج غضب شيطانى لافح وتأمل هذا التعجب المنكر فى «أرأيتك» وقد ذكر الكرمانى التعجب(٢٥) فى هذا الأسلوب والعلماء على أنه بمعنى أخبرنى والصياغة والنسق يؤيده ولا تعارض بينهما أى أخبرنى عن هذا الذى ٠٠٠ والاشارة والموصول يشيان بعاصف من الاستصغار والاحتقار وفى الأسلوب

---

(٢٢) الآيات ٣٢ ـ ٤٣ ٠
(٢٣) الأعراف ١٢ ـ ١٩ ٠
(٢٤) راجع أبا السعود ١٨٣/٥ ٠
(٢٥) راجع البحر ١٢٤/٤ والرازى ٤/٢١ ٠

استفهام محذوف قدره الرازى أى لم فضلته على وأنا خير منه او أخبرنى أهذا الذى كرمت على ، وحذف حرف الاستفهام فى الوجه الثانى لدلالة « رأيتك » عليه (٢٦) .

ثم هو التوعد لذرية آدم لأحتنكن ذريته الا قليلا ، أى لأستأصلنهم بالاغواء من قولهم احتنك الجراد الأرض ما عليها أكلا وهو من الحنك (٢٧) أو من قولهم حنك الدابة يحنكها اذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ونقل الرازى عن ابن أبى مسلم كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه أى لأقودنهم الى المعاصى كما تقاد الدابة بحبلها (٢٨) ويقصد الغاوين منهم بدلالة الاستثناء والوجه الثانى قريب من آية النساء « ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فلبيتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » (٢٩) فاذا فعل كل ذلك فهو متحكم فيهم يقودهم كيف شاء . والرد العالى من جهة الحق تعالى على ابليس « قال فاذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم ... الآيات .

وآيات الحجر جاءت فى نسق أكثر طولا وأحداثا وكذلك ما فى الأعراف ما منعك ألا تسجد والاستفهام فيهما للتوبيخ ولاظهار معاندته وكفره وكبره كما يقول الزمخشرى (٣٠) وافتخاره بأصله وازراؤه بآدم وانه خالف أمر ربه قياسا فاسدا كما يقول الرازى لما رأى من سجود الفاضل فى اعتقاده للمفضول خارج من الصواب فقد

---

(٢٦) راجع تفسيره ٣/٢١ ، ٤ .
(٢٧) راجع الكشاف ٤٥٦/٢ .
(٢٨) الرازى ٤/٢١ .
(٢٩) الآية ١١٩ .
(٣٠) الكشاف ٦٨/٢ .

عارض النص الذى قاله الله بالقياس فكان رجيما (٣١) ولا نرى رأى الرازى اذ يشتم منه أفضلية ابليس مع أنه لا فضل عنده اذ كان فضل آدم على خلق الله لما ميزه الله به من العلم وسجود الملائكة رمز لسيادته ولما منحه الله من أسرار عالية • ونلحظ أن أسلوب الأعراف جاء فيها قوله : ألا تسجد وفى الحجر تسجد ولا تاكيد للمنع وتحقيق له اقتضاها الأسلوب والقول بأنها صلة كآية الحديد « لئلا يعلم أهل الكتاب » كرأى الزمخشرى مما لا نعتد به بلاغة والقضية متعددة الجوانب والمهم أن المقام القرآنى والسياق اذا اقتضى وجود حرف فما فوقه أدى دورا فى المعنى يضيع بسقوطه ولذا تلحظ أن فى آيات الأعراف جاءت كلمة «مذءوما» من ذأم اذا بلغ نهاية الذم ولم تأت فى غير هذا الموضع دلالة على أن الأسلوب أو الغضب الالهى كما يحس القارىء أشد من آيات الحجر وأشد منهما آية ص « يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين » (٣٢) وتثنية يدى مع أنه من المتشابه ــ كناية عن كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المستدعى لاجلاله فالاستفهام للانكار وهذا انقيد لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ ، والاستفهام الثانى معناه : استكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين والهزة التقرير عند الزمخشرى والتقرير والتوبيخ عند أبى حيان وانكار وتوبيخ عند أبى السعود (٣٣) لأن خلة الكبر عند المخلوق أمر منكر •

وهذه الخطابات كلها من خطابات الاهانة والتحقير وعلل الكرمانى لوجود لا فى الأعراف أنه لما حذف منها ، يا ابليس واقتصر على

---

(٣١) تفسير الرازى ١٨٢/١٩ •

(٣٢) الآية ٧٥ •

(٣٣) راجع الكشاف ٣٨٢/١٣ وقد ترصده ابن المنير فى معتقداته وراجع الانتصاف عليه ثم راجع البحر ٤١٠/٧ وأبا السعود ٢٣٦/٧ •

الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا زيادة فى النفى واعلاما أن المخاطب به ابليس خلافا للسورتين فانه صرح فيهما بسمه (٣٤) وهـو نون لطيف من الاحتهاد لاكتشاف أسرار لمـا قيل بزيادته .

ومن أساليب الانكار :

قول لوط عليه السلام لقومه الفجرة :

« أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكملتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » من سـورة الأعـراف (٣٥) .

ومن سورة النمل « أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ائنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون » (٣٦) .

ومن سورة العنكبوت « انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ائنكم لتأتون الرجال وتقطعون السـبيل وتأتون فى ناديكم المنكر » . (٣٧) .

وقد علل الكرمانى وتبعه الفيروزبادى لوجـود ان واللام فى آية العنكبوت « انكم » دون آيتى الأعراف والنمـل لموافقـة آخـر القصة انا منجوك ــ انا منزلون (٣٨) .

فهو من التلاؤم الأسلوبى لأن آيات العنكبوت أشد ولذا انفرد فيها الجزاء بالتأكيد « انا منجوك واهلك » « انا منزلون على أهل هذه

---

(٣٤) راجع أسرار التكرار ٧٨ .
(٣٥) الآيتان ٨٠ ، ٨١ .
(٣٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .
(٣٧) العنكبوت ٢٨ ، ٢٩ .
(٣٨) راجع أسرار التكرار ٨٥ ــ ٨٦ والبصائر ٢١٤/١ .

القرية رجزا » فاقتضى تكرار التأكيد لمعنى التقريع بالاستفهام الانكاري وان ، والاستفهام في الآيات للانكار التوبيخي وقد صعده الى الذروة والحال « ما سبقكم » « وانتم تبصرون » « من دون النساء » .

كما عطفت آية العنكبوت قطع السبيل واتيان المنكر عيانا في النادي وبناء الفعل حالا تبشيع وتقذير وبيان لمسخ فطرهم المستمرئة للفاحشة اسرافا وجهلا ودائما يقترن الجهل بالاسراف أو يلتقيان .

أما تنوع هذه الأساليب فانها تصور مواقف مختلفة للنبي الداعية في جهاده الطويل ذلك الذي انتهى بلون من الانتقام غريب غرابة جرمهم فجعل عالي قريتهم سافلها وأمطرهم حجارة من سجيل تكون طبقة جديدة ليست من جنس الأرض حكما بأن تكون أجداثهم من جنس جهنم عزلا لهم عن هذا العالم ثم تهديدا لأمثالهم .

الانكار خصائص وملاحظات

سبق أن الانكار أكثر الأغراض شيوعا وهو كراهة الشيء والنفرة من وقوعه في أحد الأزمنة وأنه مما لا ينبغي أو مما لا يكون فكأنه في حكم المجهول ومن هنا فالعلاقة بينه وبين الاستفهام الحقيقي قوية . (٣٩)

وقد قسم الى قسمين :

القسم الأول : انكار التوبيخ ، ويكون عن أمر وقع فعلا ، أو يقع حالا كأن يكون المخاطب بصدد عمله ، ولا يوبخ على أمر سيحدث في المستقبل الا اذا كان المخاطب مصمما عليه بدلالة القرائن وهذا معنى قولهم في معنى الانكار : ما كان ينبغي أن يكون أو لا ينبغي أن يكون .

---

(٣٩) راجع حاشية الأمبابي ١٥٣/٣ .

والقسم الثانى : انكار التكذيب أو الابطال ويقع على جميع الأزمنة والقسمان فى النفى ويختلفان فى أن النفى فى التوبيخ ــ متوجه فى واقع الأمر ــ الى الانبغاء ، ومدخول الهمزة واقع أو كالواقع ، وفى التكذيب يتوجه النفى الى نفس مدخول الهمزة وابطاله يعنى أنه غير واقع (٤٠) كقول موسى عليه السلام للعبد الصالح وقد قتل غلاما صغيرا دون سبب ظاهرى « أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا » فهو ينكر قتل هذه النفس ، ويصعد شعوره ويبرره بوصفين للنفس أنها زكية بريئة وأن القتل فى غير قصاص ودون سبب معلوم ، ولذا جاءت الجملة الخبرية مؤكدة مقررة « لقد جئت شيئا نكرا » ومع الانكار التعجب ومثله فى حادثة السفينة : « أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا امرا » (٤١)

ومن انكار التوبيخ ما تدخل فيه الهمزة على جملة منفية فى الواقع انكارا وأنه ما كان ينبغى أن يترك كقول الله على لسان لوط « أليس منكم رجل رشيد » فهو يوبخهم على مجانبة الرشد ومنه كثيرا ما يقع فى الفواصل مقررا لما قبله مصعدا المعنى .. « أفلا تعقلون ــ أفلا تذكرون ــ ألا تتقون » فترك التعقل والتذكر والتقوى يوبخ عليه المكذبون لأنها فضائل عالية ولذا كان التوبيخ على تركها والبعد عن الاتصاف بها .

والانكار التوبيخى كما قلت قد يتوجه الى حدث حالى أو مستقبل محقق الوقوع قال تعالى « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون » (٤٢) فقد أنكر اشراكهم بأصنام لا تخلق شيئا ، بل هى ذاتها مخلوقة وعبر بالمضارع ليفيد أن اشراكهم ــ وان بدأ فى الماضى ــ

---

(٤٠) المرجع ٣/١٥٦ .

(٤١) الآيتان الكهف ٧١ ، ٧٣ وراجع فيهما الكشاف ٢/٤٩٢ وأبا السعود ٥/٢٣٥ والألوسى ١٤/٣٣٩ . (٤٢) الأعراف ١٩١ .

الا أنه مازال مستمرا وهم موبخون على ذلك ٠

وقال مؤمن آل فرعون « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » (٤٣) فهو ينكر ويوبخ أى ارتكبون الفعلة الشنعاء دون سبب الا قول الحق الواضح من ربكم ، والتوبيخ على تصميمهم على القتل كأنه واقع الظهور اماراته وهو قول فرعون « ذرونى أقتل موسى » ولذا قال العلماء فى التأويل أى « أتقصدون قتله » لتصحيح الانكار ٠ وقال تعالى لليهود والنصارى الذين ادعوا أنهم أحباب لله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » (٤٥) وهو انكار عظيم وتبكيت واستدراج الى الاعتراف بدلائل التوحيد ، وهو ينكر عليهم قولهم ويوبخهم عليه والمنكر والموبخ عليه سابق فى السياق : « نحن أبناء الله وأحباؤه » والدليل على كذبهم والانكار عليهم تعذيبهم فى الدنيا والآخرة وهو واقع حتما (٤٦) ٠

أما الانكار التكذيبى فقد يدخل على أفعال غير واقعة فى الخارج أدعى فعلها ينفيها ويكذبها وينكرها وقد يصحب التكذيب السخرية والتعجب أو التهديد كما فى قوله تعالى : « اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون » (٤٧) « أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد » (٤٨) والآية الثانية تقيم برهانا على البعث بالخلق الأول ٠ وقال تعالى « أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا » فهو تكذيب للاصفاء والاتخاذ جميعا (٤٩) وقال تعالى على لسان

---

(٤٣) غافر ٢٨ (٤٤) راجع البحر ٤٥٨/٧ والألوس ٦٤/٢٤ ٠
(٤٥) المائدة ١٨ ٠
(٤٦) راجع شروح التلخيص ٢٦١/٢ وأبا السعود ٢١/٣ ٠
(٤٧) الصافات ١٥٣ (٤٨) ق ١٥ ٠
(٤٩) الاسراء ٤٠ وراجع فى آيتى الاصفاء : عروس الأفراح ٣٠٤/٢ والبرهان للزركش ٣٢٨/٢ والكشاف ٤٢٤/٣ وأبا السعود ٢٧٤/٧ ٠

نوح عليه السلام « يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » (٥٠)

يعنى : أنكرهكم على قبول الهداية والدين • ونلزمكم تلك الحجة، والحال أنكم كارهون والكلمة ، أنلزمكموها : تصور جو الاكراه كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ثم ان الاستفهام الانكارى يوحى بأن اكراه النفوس وقسرها حتى فى شئون العقيدة ليس وسيلة مرغوبة فللعقل والقلب حرية الاقتناع والتأثر حتى فى أخطر قضايا الوجود أعنى وحدانية الله تعالى (٥١) وليس معنى هذا اقرار الكافر على كفره والتزلف لديه بل معناه ادلال الاسلام بقوته وأخلاقه وأنه لا يجبر أحدا حتى على ما ركبت عليه الفطر واستقر فى الوجدان ونطقت به المخلوقات ترفعا عن وسائل القهر بل دعوة الى طهارة النور والحق الأسمى •

ومن أنكار الحاضر والمستقبل قوله تعالى على لسان صالح لقومه « أتتركون فى ما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ••• الآيات » (٥٢) أى ما يكون ذلك ولا يكون اذا لم يؤمنوا بالله المنعم ، وعيدا ولفتا الى النعم الكبرى أثرا من فضل المنعم الكبير•

المنكر فى أساليب الاستفهام

فيما يتعلق بالهمزة يرى عبد القاهر أن المنكر يلى الهمزة فعلا أو فاعلا أو متعلقا فاذا قلت أفعلت كان ذلك انكارا للفعل وأنه لن يكون ، وليس فيه اشارة الى الفاعل ، وقولك أأنت ضربت زيدا فيه معنى أنك

---

(٥٠) هود ٢٨ •

(٥١) راجع فى الآية : دلائل الاعجاز ٩٠ والكشاف ٢/٢٦٦ والبحر ٥/٢١٦ والتصوير الفنى ٧٨ ودلالات التراكيب ٢٥٧ •

(٥٢) الشعراء ١٤٦ ـ ١٥٠ •

أنت خصوصا بأن يكون منك ذلك لأنك لا تقدر عليه أو لانك لا ترضاه فاذا قلت أأنت تمنعنى ، أأنت تأخذ على يدى ، صرت كأنك قلت : ان غيرك الذى يستطيع منعى والأخذ على يدى ولست بذاك ، هـــذا اذا جعلته لا يكون منه الفعل للعجز ، وقد يكون لأنه لا يختاره ولا يرتضيه ومثاله : أهو يسأل فلانا : هو أرفع من ذلك ، وقد يكون لصغر قـــدره وقصر همته كقولك : أهو يرتاح للجميل ؟ هو أقل رغبة فى الخير ممـــا نظن وجملة الأمر : أن تقديم الاسم يقتضى أنك عمدت بالانكار الى ذات من قبل انه يفعل أو قال هو انى أفعل ، ولا يكون هذا المعنى اذا بدأت بالفعل فقلت أتفعل (٥٣) .

وخلاصة هذا التحليل : أن الفعل يقدم اذا أريد انكاره وأن الاسم يقدم اذا قصد الانكار على الفاعل أى انكار فعله للحـــدث واذا كان الخبر فعليا مع تقديم الاسم بعد همزة الانكار قد يفيد القصر بمعنى نفى الفعل عنه الفاعل واثباته لغيره وقد يكون تقديم الاسم لأغراض أخرى مدحا أو ذما سوى القصر .

وهناك نوع من الانكار يتوصل فيه الى انكار الفعل بانكار متعلقاته التى ليست له معمولات فى الخارج سواها كقوله تعالى « قل أرأيتـــم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون » (٥٤) والانكار يتناول الفعل (أذن) من أســـاسه وبنفيه ويوبخ عليه ، وقدم الاسم لانحصار الفعل فيه ، اذ ليس هناك الا مصدر واحد يملك التحريم والتحليل هو الله تعالى فهو انكار للفعل بطريق برهانى والمتقدم هنا الفاعل ومثله فى تقديم المتعلـــق وان كان مفعولا قوله تعالى « قل آلذكرين حرم أم الانثيين أم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين » بتقديم الاسم استدراجا فى الحجة وأبلغية وتصويرا ولأن التحريم ــ كما يقول السكاكى ــ يستلزم اثبات محله ، لا محالة،

---

(٥٣) الدلائل ٨٩ ــ ٩٠ بتصرف . (٥٤) يونس ٥٩ .

فاذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم ، على وجه برهانى كأنه وضع من سلم أن ذلك قد كان ثم طالبه ببيان محله فهو نفى بطريق الكناية (٥٥) • فكأن الهمزة استعملت استعمال الكنايات — كما يقول المغربى — لأنها موضوعة لانكار ما يليها • (٥٦)

ويرى بعضهم أن قاعدة الامام عبد القاهر غير مسلم بها ، اذ الجملة اذا كانت فعلية دخل عليها الاستفهام توجه الانكار الى الفعل اذا كان متقدما ، أو الى الفعل متعلقا بالفاعل أو المفعول اذا كان احدهما متقدما نحو : « أغير الله أتخذ وليا » « أهم يقسمون رحمة ربك » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » والآية الأخيره على رأى عبد القاهر تفيد ان الفعل ثابت وأن النزاع فى الفاعل فهو انكار للفاعل، وهو غير صواب لأن الفعل وهو اكراه الناس غير واقع من أحد ، والمراد انكار الفعل متعلقا بالفاعل الذى قدم لخصوصيته وأهميته وتوجه العتاب اليه صلى الله عليه وسلم رحمة به (٥٧) •

فاذا كانت الجملة اسمية جامدة توجه الانكار الى النسبة كقوله تعالى « ألكم الذكر وله الأنثى » والنسبة هنا كانت مناط توبيخ كما كانت نسبة الاناث اليه تعالى منبع توبيخ فهو توبيخ مبنى على توبيخ كما ذكر أبو السعود (٥٨) •

وقد ينصب الانكار على مفعول الفعل المقدم تحديدا وتركيزا للانكار كدخول الهمزة على اذا فى آيات انكار البعث السابقة ، وقد يتأدى الانكار بأداة أخرى للتصور غير الهمزة وتكون دلالتها محط الانكار كقوله تعالى : ما تعبدون — ماذا تعبدون — فأين تذهبون — أنى يحيى

---

(٥٥) راجع الدلائل ٨٨ والكشاف ٢/٢٤٢ والمفتاح ١٥٢ والشهاب ٤/١٣١ •

(٥٦) راجع مواهب الفتاح لابن يعقوب وحاشية الدسوقى ٢/٢٩٩ •

(٥٧) راجع حاشية الشهاب ٥/٦٢ •

(٥٨) راجع تفسيره ٨/١٥٨ •

هذه الله بعد موتها ـ أين المفر ـ متى هذا الوعد ـ كيف تكفرون بالله ـ ما لكم كيف تحكمون ـ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »(٥٩) لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ـ من يحيى العظام وهى رميم ـ وفى هذه الاساليب ونظائرها انكار بدليل أو انكار بطريق الكناية فانكار فاعل الفعل أو مفعوله أو زمانه أو مكانه أو حاله أو سببه انكار للفعل من باب أولى ضرورة أن لكل فعل هذه الملابسات ، وقد تقدم أن عبد القاهر نبه الى أن تقديم المفعول أو الفاعل الذى ليس للفعل سواه انحصارا فيه بعد همزة الانكار أدل على الانكار من تقديم الفعل لدعمه بالكناية المصورة الدالة ، ولعل نص الامام على الفاعل أو المفعول انما هو للتمثيل لانحصار الفعل فى أحد متعلقاته التى تتجاوز الفاعلية والمفعولية الى ملابساته المعروفة .

وحتى مع الجدل فى تعميم ما قصد عبد القاهر نقول انه حكم أغلبى وتكثر هذه الاحكام فى الأساليب الأدبية المبنية على قدر من التذوق الذاتى يختلف باختلاف النقاد اذا لم تصادر باستقصاء أسلوبى حاسم .

تبقى نقطة أخيرة نبه اليها الامام أبو حيان عند تأويله قوله تعالى « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » مبينا أن هذا النوع من الاستفهام يتضمن انكار ما استفهم عن علته وأنه ينبغى أن يوجد مقابله فاذا قيل مالك قائما فهو انكار للقيام ويتضمن أن يوجد مقابله ، واذا قيل مالك لا تقوم فهو انكار لترك القيام ويتضمن أن يوجد مقابله (٦٠) وكأنه توبيخ على ترك هذا المقابل كما ننبه الى أن تنوع الادوات واختلاف الصياغات تحكمه المقامات التى تقتضى لونا خاصا من المعانى ودرجه معينة من قوة التعبير والتصوير لا تزيد عن المراد أو تقل وهذا داخل فى التلاؤم بمعناه الوسيع فى الأساليب القرآنية .

---

(٥٩) الآية ٧٨ النساء وقد سبقت الآيات فى التحليلات .

(٦٠) راجع البحر ٣/٣٠٠ .

التقـــرير

ويلى الانكار كثرة • ويقع فى مقابله (١) وله معنيان : التحقيق والتثبيت ، والثانى : حمل المخاطب على الاقرار بما يعرف • والجـاؤه اليه وطلب اعترافه (٢) •

وقد جاء كثيرا فى القرآن الكريم فى أغراض متعـــددة ، وليس التقرير ــ فى الواقع ــ معنى نهائيا كالانكار بل ان التقرير بنوعيه انما يكون لغرض من الأغراض كما قال اليعقوبى (٣) •

ولكنه رحمه الله ــ ذكر أغراضا خفيفة الوزن كالتلذذ ونحوه ، قال عبد القاهر : فى الآية : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » وفى الآية مع التقرير بفعل قد كان ، الانكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه »(٤) ويؤخذ من التقرير ان المتكلم وهو المقرر عالم ويقصد تقرير المخاطب (٥) والتقرير بمعنى التحقيق يئول الى الخبر ففى قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » : قد شرحنا ، وهل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » قد أتى (٦)

---

(١) راجع مقاييس اللغة ٦/٨ ومفردات الراغب ٣٩٨ •
(٢) راجع شروح التلخيص ٢/٣٠٧ وتقرير الامبابى ٣/١٥٤ •
(٣) مواهب الفتاح ٢/٢٩٤ •
(٤) الدلائل ٨٧ •
(٥) حاشية الدسوقى ٢/٢٩٤ •
(٦) راجع عروس الأفراح ٢/٣٠٧ •

أغراض قرآنية فى التقـــرير

وحدانية الذات والصفات

وفى هذا الغرض العالى جاءت اساليب كثيرة جدا تقرر بالواحـد الأحد وصفاته الحسنى وآثار صفاته التى تجلت فيما خلق الله دلائل على وحدانيته وتفرده بكامل الصفات وآثار صفاته التى تجلت فيما خلـق الله دلائل على وحدانيته وتفرده بكامل الصفات ثم توجيها الى هـذا العالم المحيط بنا نستجلى أسراره ، ونتملى بآيات الله فيه اعتبارا ورقيا بالطاقات الانسانية •

قال تعالى « قل من يرزقكم من السـماء والأرض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحـى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » (٧) وقد جاءت بعـد مشهد حسير يوم القيامة بيكت فيه المشركون «مكانكم أنتم وشركاؤكم» لافادة التقرير والاحتجاج على حقيقة التوحيد وبطلان ما هم عليه من الاشراك فى الدنيا وليس هنا فصـل زمنى أو أسـلوبى بين أحـداث الآخرة والأولى فقد توالت أربعة استفهامات مقررة بالفاعل دالة على فساد مذاهبهم موبخة لهم وقد تدرجت من السـؤال عن الرزاق من مصادر أكبر من الانسان مسخرة لقدرة القدير وبالرزق تكون الحيـاة وعن واهب الحس سمعا وبصرا يملكه وان شاء أخـذه ثم تدرج الى ظاهرة الموت والحياة تكون احداهما منبعا للأخرى بقهـر الله ثم الى من يدبر شئون الحياة والأحياء والأكوان انه تقرير وتوبيخ وجبـه لهم بما لا يمكنهم الا الاعتراف به « فسيقولون الله نعم فليس هنـاك سـواه » •

---

(٧) يونس ٣١ •

ثم يأتى الاستفهام الخامس ـ وقد ساقت اليه الاساليب السابقة موبخا على عدم التقوى ايماء بأن النظر فى هذه الأمور يورث فى القلب تقوى وروعة واجلالا .

وتتابع الأسلوب فى جلال خارق « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » كيف يعرضون والى أين يتوجهون، وآيات الله محيطة بهم محاصرة لهم بل هم آية من آياته .. انه تصعيد للمعنى بقصرين متواليين واسمين لله بعد اسم الجلالة واستفهامين أولهما تداخل مع القصر الثانى لتختم الآية باستفهام استبعادى تعجيبى من حالهم الغريبة كناية بليغة عن انكار الحدث ذاته وهو الصرف والكفر من باب أولى . ثم تتوالى الآيات المقررة الملزمة المزلزلة افحاما بعد افحام .

« قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى الى الحق قل الله يهدى للحق ... الآية » .

والآيتان حجاج على حقيقة التوحيد والبعث معا وقد وضعت اعادة الخلق أو البعث موضع المقرر الذى يعد من يدفعه مكابرا لظهور برهانها دقة فى الأداء والالزام ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن ينوب عنهم فى الجواب وهو الحق يعرفونه حتما حتى لا يدعهم لمكابرتهم والأسلوب البرهانى هنا عجيب معجز فقد بدأ معددا ما يعترفون به ولما كان هذا موصلا الى اقرار الوحدانية والبعث حتما ـ وهم فى مكابرة منه ـ لم يطلب منهم اقرارا لفظيا كالأول بل جاء الجواب الحق على لسان النبى مأمورا به ليدع لعقولهم الكليلة فرصة التأمل وصولا الى الهدى ، ولذا جاء الاستفهام « فأنى تؤفكون » وهو أقوى من الصرف الأول لتعدد الأدلة ثم ختمت الآيات باستفهامين عن

شيء واحد هو حالهم الشاذة وحال حكمهم النافر « فمـــا لكم كيف تحكمون » (٨)

ومن الظواهر المثيرة فى الاســـتفهام القـــرآنى انه حين يحمى الأسلوب ويرتعش هولا وجلالا وتتلاحق الاستفهامات أو حين يوجه المقام الى قهر الهى غلاب تأتى اداتا استفهام عن شيء واحد انكارا أو تعجيبا أو تعجيبا وتهديدا كالعبرة « ما لكم كيف تحكمون » (٩) •

وقد جاءت ثلاث مرات فى القرآن فى أساليب شـــديدة التركيز والجلال فى يونس والصافات والقلم والأسلوب « ألم تر كيف » ألم تر الى ربك كيف مد الظل ــ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ــ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » فى خمس آيات (١٠)

وقد جء فى سبأ « قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »(١١) وقد جاءت الآية بعد تحد للمشركين يوم الدين أن يدعوا الذين يزعمون من دون الله «قـــل ادعوا الذين زعمتم من دونه لا يملكون مثقـــال ذرة فى الســـموات والأرض •••• » والاستفهام تقرير بأن الرازق هو الله وتبكيت والجواب الملزم لفظ الجلالة المفرد « الله » سواء جاء على ألسـنتهم أم أمر النبى أن يقوله فلا خلاف عليه رازقا خالقا فلم لا يتخذ الهة وهذا موطن العجب فى حال الكافرين •

---

(٨) راجـع فى آيـات يونس ٣١ ــ ٣٥ الكشـــاف ٢/٢٣٦ والبحر ٥/١٥٥ ــ ١٥٦ وأبا السعود ٤/١٤١ ــ ١٤٣ •

(٩) الآيات ٣٥ يونس ، ١٥٤ الصافات و ٣٦ القلم •

(١٠) راجع المعجم المفهرس ٢٨٢ والآيات الفرقان ٤٥ وابراهيـم ٢٤ ونوح ١٥ والفجر ٦ والفيل ١ •

(١١) الآية ٢٤ •

يقرون مرة ويتلعثمون أخرى عنادا وضرارا وخـــوفا من التزام الحجة وفى الجامهم هنا وهو صورة من صور الاقرار أيضا أمر لرسول الـــكريم أن يبلغ « وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضـــلال مبين » وهو مثل « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » مما يسمى بالكلام المنصف وفيه دلالة واضحة على المهتدى والضال بعد ما تقدم من التقرير البليغ قال فى الكشاف « ولكن التعريض والتورية أفضل بالمجادل الى الغرض وأهجم به على الغلبة مع قله شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا » وهو يعنى بالتورية هذا الابهام الذى يبعث المشركين على الموازنة بين حالهم وما هم فيه من رذائل موبقه اساســـها الاشراك وبين حال النبى عليه السلام والمؤمنين فى اخلاقهم السامية وطهارتهم القلبية التى منبعهـــا التوحيد (١٢) .

وننبه هنـــا الى شىء مهم :

هو أن فى القرآن الكريم آلاف الآيات المباركات معارض لأسماء الله الحسنى وآثار صفاته فيما خلق الله وذرأ مما يعلم الناس ويدركونه ـــ مكانا وزمانا ـــ فى الأحياء والأكوان بل ومما هو سابق على الزمان أو خفى عن الادراك .

وفيما يحسه الناس رسمت الآيات لوحات مثيرة فيها التناســـق التام والايقاع المذهل واستثمار الطاقات البشرية تأثرا وانفعالا ، واقرأ سورة الانعام والرعد ويونس والنمل وسبأ ويس والنحل وغيرها ويمكن مراجعـــة مادة هذه الأفعـــال ، الخلق والجعـــل والابداع والانشـــاء والتصوير والذرء فى المعجم المفهرس لتجد حشدا من الاستعمالات (١٣)

---

(١٢) راجع الكشاف ٣/٢٨٨ ـ ٢٨٩ وأبا السعود ٧/١٣٢ والايضاح للقزوينى ٥٣٢ .

(١٣) راجع المعجم المفهرس على ترتيب الأفعال : الجعل ١٧٠ ـ ٧٥ . الخلق ٢٤١ ـ ٤٥ ، الابداع ١١٥ الانشاء ٧٠٠ التصوير ٤١٦ والذرء ٢٦٩

واذا كانت السياقات الأخبارية وهى الأكثر ترسم صور الجمال والجلال وتثير التأمل والاعتبار والرضا والخشوع فان سياقات التقرير الاستفهامى فيها سطوة القاهر ورحمة القادر ورأفة المغيث وارادة الواحد الأحد واذا فاكثره كالرد على المشركين فى حجج تهز القلوب والعقول وتنتزع الحقائق الغلابة يعترف بها اللسان بعد القلب أحيانا أو يغشيها الكفر بستار من العناد والمكابرة حينا ثم ان المقامات التى اقتضت التقرير — كما سبق — مقامات خاصة فيها قوة الاقرار وفورة الحق ولذا تعانق الايجاز مع هذه الأساليب التى فاضت بمعان ثانوية مديدة أو معان بارقة عتيدة كالانكار والتوبيخ •

قال تعالى من سورة المؤمنون « وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون ، وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ، بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون • لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين ، قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » (١٤)

ونلحظ فى هذا السياق ما يلى :

١ — هناك مستويان من الأساليب فى درجة القوة والاثارة :

الأول : يثبت انشاء السمع والبصر والأفئدة لله تعالى على سبيل القصر وكذلك ذرؤهم وبثهم ونشرهم فى الأرض ثم جمعهم للحشر

---

(١٤) الآيات ٧٨ — ٩٠ •

والحساب اقتدارا فى الفعل وضده وكذلك قصر الاحياء والاماته عليه سبحانه ، والتحكم فى الليل والنهار أثرا لتدبيره فى الأرض والشمس وهذا كله آثار لقدرته تعالى ولما كان خلق الحواس والأفئدة بيد الله : من الأمور الواضحات والنعم السابغات أنكر عليهم عدم الشكر بلازمه الايمان « أفلا تشكرون » ولما كانت ظواهر الحياة والموت فيما يقبلهما من الكائنات واختلاف الليل والنهار مما يحتاج تأملا وتفكرا أنكر عليهم عدم العقل والأسلوب ييسط هذه الدلائل الالهية على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاء به القرآن .

أما الأسلوب الثانى : فقد جاء بعد انكارهم واستبعادهم وجدلهم الأخرق فى البعث وأنه أساطير الأولين « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ... لقد وعدنا .. الأية بأسلوبى استفهام مؤكد للانكار وسبقه تعجيب القرآن من قولهم الغريب كالأمم التى سبقتهم ونلحظ تكرار مادة القول دلالة على أنه مجرد ألفاظ لا حقيقة لها كما أنه زعم لم يمر على قلوبهم « بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا » فهم لون عتدن من القول ولذا كانت الردود بالأمر بقل أمارة الحق لا الباطل وتوهجت الاساليب بالاستفهامات الغاضبة المقررة الملزمة المحاصرة بمظاهر القدرة الدافعة الى اعترافاتهم رغما عنهم وهذا هو المستوى الثانى من الأساليب : ايقاع عنيف ونبرة جهيرة غاضبة ومعان هائلة وسطوة مسيطرة وتحد قاهر .

وايجاز يبقى من العبارة ما يجعله نواه اشعاع : لمن الأرض ومن فيها » بهذا الاستفهام الهائل المدوى المحيط بما يحار العقل فى التعرف من مخلوقات فى هذا الكوكب الطائر فى الفضاء « ان كنتم تعلمون » تجهيل لهم وما اغظع الكافر الألد اللجوج حين يتربع الجهل فى عقله وقلبه . وجواب الشرط محذوف هو مثل الاستفهام المقرر فكأن فى الجملة استفهامين ظاهرا وباطنا ، ويذكر جوابهم « سيقولون لله »

(١٤ ــ الأنشاء)

فيتبعه بفاء الفصيحة واستفهام منكر للبعد عن التذكر بالفعل « قل » وبدأ بالأرض لانها الصق بهم وفيها وبها حياتهم ثم ترقى الى أفق آخر مهول لا تحوم حوله العقول « من رب السموات السبع ورب العرش العظيـــم » .

السموات السبع والعرش العظيم المحيط بالاكوان مخلـــوقات هائلة مربوبة لملك جبار واجابتهم بالسين المؤكدة : لله ويردفه الســؤال المنكر الموبخ « فأنى تتقون » ويأتى الاستفهام المقرر الأخير بماً لله من سلطان واحاطة وتحكم فى كل شىء وعزة وقدرة وقهر واجادة وغيث: « قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجـــار عليـــه ان كنتم تعلمون » وحين يكون الأسلوب بالغ الدقة التى تفوت طاقات الانسان يأتى الاسلوب المتشابه المختص بعالم الألوهية لا يقترب من حقيقتـــه أو حماه عقل أو خيال أو وهم بيد أن القلب يدرك وقعه وهو له وايحاءه وايماءه وهو السيطرة الغالبة والقيومية على ملكوت كل شىء لا يشركه فى ذلك أحد ثم تأمل المعطوف « وهو يجير ولا يجار عليه » انه مثـــل منتزع من عالم الملوك دلالة المنعة والعزة فما بالك بملك الملوك .

ويردفه بالاستفهام المنكر الموبخ « فأنى تسحرون : أى تخدعون والسؤال عن هيئة السحر والخديعة انكار للفعل من أساسه على طريق الكناية والمراد بالسحر لازمه أو هو كناية عن التخليط ووضع الأمر فى غير موضعه والانخداع والرق لأوهام زائفة وتأمل تدرج الفاصلة فى ترقيها مع درجات الشدة والانكار فى الاساليب بدءا بانكار التذكر ثم التقوى وفيها وعيد شديد بمعنى أفلا تخافون فهو تخويف من عـــدم الخوف ثم انكار هذا الخلط والانخداع ، والمتعلق فى الأفعال محذوف لافادة العموم مما يشير اليه التذكر والتقوى والسحر من الأساليب ، واذا كانت مادة القول جاءت بصـــيغة الماضى حكاية عن مشركى العرب ثلاث مرات فقد جـــاءت بالأمر المهيمن النـــافذ ست مرات على لسان

المصطفى الكريم تحديا والزاما وجبها لهم بهذه الأساليب الجليلة الهائلة وتأمل المقطع المغلق « قل » لتحس انه مقطع من زلزلة يوم القيامة ثم ان الاسئلة الثلاثة جاءت أجوبتها المقرر بها نفظه واحدة « لله » فهو الجواب الوحيد باللفظ الفريد وباللام الداخلة عليه بعد حذف المبتدا قصدا الى تفرده بالوجود الحق والملكية الحقة وقرأ عاصم وغيره « الله » بالرفع افرادا له فجلاله يملأ القلوب ويحيط بالعالم ومع أن المعنى متقارب نجد أن التفخيم فى قراءة عاصم بالبدء بالفتح ملائم فى ايقاعه للأساليب .

ومن أساليب التقرير فى سورة الأنعام قوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (١٦)

والذى قال هذه القولة : ما أنزل الله على بشر من شيء : هو الحبر السمين مالك بن الصيف من أحبار اليهود وحينما يكذبهم القرآن يأتى بما يلزمهم يلقمهم الحجر فى شكل من أشكال القياس البرهانى كما نقل أبو حيان فى هذه الآية عن الرازى والغزالى (١٧) وقريب من هذه الآية وان كان الأسلوب أمرا ونهيا « وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وايای فاتقون»(١٨) وأصرح منها « واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون

---

(١٥) راجع الكشاف ٣/٤٠ والبحر ٦/٤١٨ .
(١٦) الآية ٩١ .
(١٧) راجع البحر ٤/١٧٧ .
(١٨) البقرة ٤١ .

أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » (١٩) والبرهان يكمن فى الدعوى أى آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة لأن الله أنزله كما أنزل التوراة. فعدل عن صريح لفظ القرآن الى كتابته اخراجا للدعوى بدليلها (٢٠)

والواضح من سبب نزول الآية أن مالك بن الصيف لم يضبط لسانه ، فى لحظة غضب ، فظهر ما فى باطنه من الكفر وذلك فيما روى ابن عباس أن مالك بن النصيف كان من أحبار اليهود ورؤسائهم وكان رجلا سمينا فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الرسول « أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين وأنت الحبر السمين وقد سمنت من الأشياء التى تطعمك اليهود » فضحك القوم فغضب مالك فقال : « ما أنزل الله على بشر من شىء » فعزلته يهود عن رياستهم (٢١) وقال الرازى ان فى الآية بحثا صعبا لأن اليهود ما كانوا ينكرون نزول التوراة • ورد ردا ضعيفا: بأن القرآن نزل بهذه الآية ردا على مالك بن الصيف الذى قال هذا القول فى وقت خاص دون سائر الأوقات • ويضعفه أن القرآن نسب القول اليهم جميعا « قالوا » وهذا ما جعل الطبرى يرجح أنها فى كفار المشركين اذ لم يسبق لليهود ذكر فى السورة وفضل قراءة « يجعلونه قراطيس » على الغائب ، لكن صحت قراءة تجعلونه بالخطاب •

والرأى : أن القائل هم اليهود كما فى رواية عن ابن عباس ومحمد بن كعب قالوا ذلك عنادا ومبالغة فى انكار الوحى والرسالة المحمدية لا لأن انكار القرآن المنزل يستلزم انكار غيره فالكتب فى النزول سواء بل حملهم اللجاج والمكابرة فى جدلهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم الى انكار الوحى جملة وهذا يفسر نسبة هذا القول « ما أنزل

---

(١٩) البقرة ٩١ •

(٢٠) راجع فى تحليل هذه الآية النبأ العظيم ١٢٠ ـ ١٢٥ •

(٢١) راجع تفسير الرازى ٧٥/١٣ •

الله على بشر من شيء الى غير واحد ولذا كان الافحام والقام الحجـر وانتبكيت والزامهم بما لا يدفع على لسان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بتبليغه « قل من أنزل الكتاب » وقد طال السؤال المقرر عـلاجا للانكار من كل جوانبه ودفعا الى الايمان لو كانوا منصفين : وذلك أن البرهان الدامغ جاء على لسان النبى تصديقا له ثم انه وصف الكتـاب بجملة أوصاف : أنه جاء به موسى وأنه نور وهدى للناس وهذا داع الى تصديق النبى لأن فى التوراة أوصـافه الشريفة وهى تدعـو الى الصدق والحق لا الكذب والباطل والعناد الذى يسرى فى عـروقهم . تبكيتا لهم ثم أدرج فى السؤال زيادة توبيخ لهم وتعيير بموقفهم تجاه التوراة على العموم كلون من ألوان التحريف فهم يفرقونها قراطيس يسهل فيها الاخفاء ان كانت فى غير صالحهم كما كتموا صفة رسول الله وكثيرا من أحكام التوراة مع انها مأخذ علومهم ومعارفهم فالجملـة المعطوفة ترقى بالتشنيع درجات ثم يؤمر النبى الكريم أن يجيب عنهم لتعين الجواب الصادم لهم وايذانا بافحامهم فلا يحـيرون جوابا ثم استعلاء عليهم واعراض عنهم فهم فى صغار دائم « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » والآية تسمهم بميسم أبدى فهم فى باطل وعلى باطل يعيشون (٢٢) .

وحينما يكون السؤال من قبل الحق سبحانه سواء كان مبـاشرا أم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بتبليغه على جهة التقرير والتوبيخ فقد يكون الجواب محكيا عنهم كالآية من لقمان « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ومثلها آيتا العنكبوت ٦١ ، ٦٣ وآية الزمر ٣٨ وآيتا الزخرف ٩ وفيها : « خلقهن العزيز الحكيم » والآية

---

(٢٢) راجع فى الآية : الطبرى ١٧٧/٧ وعليه النيسابورى ١٨٨/٧ والكشاف ٣٥/٢ والرازى ٧٤/١٣ وعنه نقل أبو حيان كثيرا فى البحر ١٧٧/٤ وراجع أبا السعود ١٦١/٣ .

٨٧ « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وقد جاء السؤال خبرا ثم تعيينا بالاستفهام فى مقامات مقررة منكرة موجهة للمشركين • وقد يؤمر النبى عليه السلام بالاجابة حين يشتد الانكار ويقوى الالزام فلا يحيرون جوابا وانما يكون هذا فى مقامات شديدة ينفرد فيه الأسلوب القرآنى بالسطوة والنبرة العالية وتأمل آيات الرعد « قل من رب السموات والأرض قل الله قل فأتخذتم من دونه أولياء لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » (٢٣)

وتأمل نسج الأساليب بدأ باستفهام تقريرى موبخ أعقبه استفهام خلص للانكار والتوبيخ عليهم اتخاذهم للعبادة أولياء عجزة ، تبعه استفهام تقريرى موبخ فى صورة مثل محسوس لنفى المساواة بين المؤمن والكافر الاعمى ومثله بعده من الظلمات والنور المؤمن ، أعقبه استفهام بأم يصعد الانكار وفى قوله خلقوا كخلقه فى سياق الانكار تهكم بهم واهمال لهم لانصراف الخطاب عنهم لأن غير الله لا يخلق شيئا البتة ، لا بطريق المشابهة والمساواة لله تعالى وتقدس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور ، فقد جاء قوله كخلقه ، تهكما يزيد الانكار تأكيدا (٢٤) ثم اننا نحس مع الانكار والتهكم التعظيم للخالق والاشادة بخلقه ، والادلال بآثار القدرة والعلم فيما خلق ولذا أتبع الجواب أعنى أتبع لفظ الجلالة وهو الجواب عادة بأسماء الخالق الواحد القهار على سبيل القصر أى لا سواه • ثم قد يتبع هذا الجواب باستفهام آخر تصدر الآية المتقدمة وكآيات المؤمنون السابقة وآيات يونس أيضا ولا شك أن هذا من سمة القوة فى الاساليب بل هى أقوى

---

(٢٣) الآية ١٦ •

(٢٤) راجع الانتصاف على الكشاف ٢/٣٥٥ •

أساليب التقرير مع الانكار على الاطلاق يليها ما جاء فيه أمر بعد الجواب كآية اليهود فى الانعام وقد يتبعها أسلوب خبرى جزل نافذ تلاؤما مع جو الاستفهام كقوله تعالى « قل أى شىء أكبر شهاده قل الله شهيد بينى وبينكم » (٢٥) وآية الانعام الأخرى « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (٢٦)

والآية تقدم مشهدا من آثار القدرة والرحمة والعام بعد القهر والهيمنه والجبروت فى استفهام تقرير ملزم وانكار أن يوجد من ينجى من شدائد الظلمات المهلكة فى البر والبحر سواه مع توبيخ وتوقيف على سوء معتقدهم . وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمسابقة الى الجواب ليكون أسبق الى الخير والى الاعتراف بالحق ثم لأنه متيقن ولبناء قوله « ثم أنتم تشركون » عليه مع ما فيه من استبعاد لشركهم بعد هذه النعم (٢٧) .

وننبه الى أن السؤال بمن بعده ما هو خاص بالله تعالى جاء فى آيات متكاثرة اكتفينا بتحليل ما قدمنا ويرى الأستاذ عبد العليم فودة أن عديدا من هذه الأساليب يفيد التعظيم مع التقرير والواقع أن هذا التعظيم مفاد أكثر من الاجابة المقرر بها ولذا نال الرسول الكريم شرف النطق بها مأمورا بقولها كما تلحظ فى السياقات المتوترة كآيات الرعد وما اليها أن هناك خطابا للمشركين داخل خطاب الهى للنبى الكريم « قل أفاتخذتم » مثلا وفيه مع تكريم المباغ عن الله تعالى الاهانة لمن أشرك به ، وقد كثر هذا بل قد تبلغ الأهانة حدا يصرف عنهم الخطاب

---

(٢٥) الأنعام ١٢ .

(٢٦) الأنعام ٦٣ ، ٦٤ .

(٢٧) راجع فى الآية الكشاف ٢/٢٥ والبحر ٤/١٥٠ وأبا السعود ٣/١٤٥ .

النبوى كالجزء الأخير من آية الرعد « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه» على أن توجيه الخطاب على لسان النبى اليهم وحصارهم بالأسئلة الملجمة حتى اذا شغلهم بالقضايا الجليلة لقن النبى الاجابة وصرفوا عن طلبها من الناحية النفسية أدعى للاهتمام وتحريك هامد الفكر وجامد القلب وخامد الوجدان •

لون ثان من التقرير

وهذا لون آخر من التقرير الذى يفاد بدءا ليترتب عليه الانكار ، ونجد الأداء القوى والنكير الصارخ ، والوقع النافذ ، حين يعقد القرآن موازنات صورية بين الله تعالى بجلاله وكماله وأسمائه الحسنى وبين المعدوم الجامد الشائه من الآلهة المزعومة ، لا لذات الموازنة بل لتفجير السخرية والتعجيب من قوم همدت فيهم نوازع العقل الى الأسمى ، تحريكا لهذا الفكر الآسن • وقد يأتى ذلك اثر فيض جليل متوال من آثار قدرته وعلمه وصفاته ، أو يأتى معه فى سياق واحد يصعد الانكار مدى بعيدا بعيدا ومن الشواهد الفارعة قول الله تعالى اثر تدمير الله لقوم لوط « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (٢٨) •

---

(٢٨) النمل ٥٩ ــ ٦٥ •

وتلحظ فى هذه الآيات :

أولا : أمر الله سبحانه نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يشكره على ما خصه به وأكرم أمته بسببه فآمنهم من عذاب الاستئصال الذى أتى الأمم السابقة والاستفهام الأول عود على ما ذكرته السياقات السابقة من قدرة الله وتدبيره وقهره أى آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم أصنامهم ، وفيه تبكيت للمشركين ، وتهكم بحالهم وتسفيه لآرائهم ، ذلك أنه ليس فى الأصنام شائبة خير حتى تعقد الموازنة الصورية فأم متصله : أى : أيهما خير ، استدراجا وتعريضا ولذا انتقل الى التصريح عقب ذكر آياته ونعمه مكررا اثر كل آية أآله مع الله ؟ فهو انتقال من نفى الخيرية الى نفى الوجود بالكلية أعنى نفى الألوهية عن أصنامهم على الطريقه الكنائية البرهانية (٢٩) .

وأفعل التفضيل « خير » هنا جاء فى أساليب أخرى عقدت فيه الموازنة صوريا بين الله تعالى ثم الاصنام أو بين المؤمنين والكافرين ولا خير فى الكفر أو حتى بين كفار قريش وكفار الأمم كقوله أهم خير أم قوم تبع ... كما سيأتى ..

وأفعل التفضيل من المحقق أنه لا شركة فيه وانما يذكر استدارجا على سبيل الزام الخصم وتنبيهه على خطأ فادح يرتكبه فهو كما قال أبو حيان : الزام بالاقرار بحصر التفضيل فى جانب واحد وانتفائه عن الآخر (٣٠) وليس كما ذكر الاستاذ فودة من أن هذا مفاضلة بين شيئين لا يخفى أفضلهما (٣١) اذ أصل الوصف وهو الخيرية ليس

---

(٢٩) راجع الكشاف ٣/١٥٤ والرازى ٢٤/٢٠٥ وأبا السعود ٦/٢٩٤

(٣٠) البحر ٧/٨٨ .

(٣١) أساليب الاستفهام ٢٢٨ .

موجودا فى الاصنام حتى يكون هناك تفاضل ، ونضيف أيضا أن هـذا اللون من التعبير الملزم المتهكم ليس محصورا فى الخيرية بل يتجـاوز ذلك الى شر وأعلم ونحوها مما عقدت فيه الموازنة بين من تحقق فيه الوصف وبين فاقده تماما مدح أو قدحا •

ثانيا : تناولت الأيام مجموعة من النعم بدأت بخلق السـموات والأرض وانزل الماء وانبات الحدائق ذات البهجة اعتبارا وحثـا على التأمل والتنعم بالجمال وهذا معنى : « الحدائق ذات البهجـة » فاكهة وغذاء وامتاعا للحواس وتحليقا فى عالم الجمال ولذا تلحظ سر الالتفات : فأنبتنا ، ثم لبيان أن الأسباب القريبة كالانسـان لا تغنى غناء بدون مسبب الأسباب أو خالقها وفاعلها وقد بدأت الآية باستفهام التقرير بالفاعل وفيه توبيخ لهم تدرجا الى الانكار الخالص لأى شريك لله تعالى « أاله مع الله » مع هذا الطباق بين المعدوم والخالق الجليل والمعية والطباق يجعلان من الجملة نقطة احالة وتعجيب وتناقض مثير فى أسلوب تفكيرهم •

وفى الآية التالية ذكر ما يخص الأرض من أن جعلها قرارا وجعـل خلالهما أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا » وهى أربع نعم متوالية صدرت بالفعل « جعل » وهو فعل من أفعال التصوير ليتملى الخيال والعقل هذه النعمة وأثرها ثم ختمها بما يعد اعجازا فى عـالم الخلق ظاهرا وهو هذا الحاجز بين الماء الملح والماء العذب وهو البرزخ فى آية الرحمن لا لأن لكل منه منهما مستوى خاصا فمستوى البحـار لا تتغير عكس الانهار ولا للفصل الحس بينهما من جبال وأراض حتى لا يفسد العذب بالاختلاط كما ذكر كثير من العلماء بل لأن لكل ماء كثافة معينة وحتى لو اندفع ماء النهر فى البحر لكون تيارا واتجاها خاصـا وهذه ظاهرة موجودة فى بعض الأنهار ركز عليها علماء الطبيعة • وقد

حاول الرازى أن يؤولهما أعنى البحرين بالمؤمن والكافر (٣٢) وهو بعيد جدا لمنافاته للسياق •

وفى الآية الثالثة نبه على حاجة الخلق اليه وقت الاضطرار والتجائهم الى رحابه وفك كربهم وكشف السوء عنهم نعمة من القدير الرحيم •

وفى الآية الرابعة ذكر احتياجا خاصا للخلق فى أوقات خاصة وهو هداية المسافرين بما نصب من آيات ولطف فى القضاء وكذلك ارسال الرياح بالخير والغيث رحمة من عنده بمن خلق وما خلق •

وتأمل الآية الخامسة بعد هذه الدلائل والنعم الباهرات والآثار الواضحات المبينات لعلمه وقدرته ذكر ما يعد نتيجة واضحة وهو البعث نعمه يلقى فيها كل انسان جزاءه استقامة للعدل والحق وسائر القيم الجليلة وقد اكتنف البعث آيتان : بدء الخلق وهم به مقرون ورزقه اياهم من السماء والأرض وهم به معترفون دلالة على صدق البعث بدليل الخلق الأول والرزق العام وقد جاءا فى معرض استفهامين للتقرير والانكار والتأنيب ورفض ما سواه نفيا لماهيته ووجوده على طريق الكناية الدالة • وقد رأيت كيف توالت الاستفهامات بايقاع متوازن يبدأ بالتقرير وبالفاعل الحق لبعض الآلاء التى لا تنكر وهى آلاء متوالية يرتفع معها نبض الاسلوب ودرجة القوة واثارة الانفعال ليصل فى تصاعده الى الاستفهام الانكارى أخيرا ومن عجب أن يكون أول أسلوب للانكار فهى دائرة من الانكار تحتوى ألوانا من التقرير والتبكيت مع الدقة فى الفاصلة المتلائمة نسجا ودلالة مع سياقها • وقد جاء أحد عشر أسلوبا جعل الآيات مع ما فيها ذات اشعاع ويمكن أن تلمس التصاعد العام فى كل الآيات فى المعانى ثم فى توتر الاسلوب

---

(٣٢) راجع الرازى ٢٠٨/٢٤ •

حيث استأثرت الآيتان الأخيرتان كل بثلاثة أساليب استفهامية ومن الواضح أن أم الأولى متصلة وأم فى الباقيات منقطعة بمعنى بل والهمزة (٣) دلالة على استئناف كلام جديد فى نوع الدلائل المشيرة الى المنعم الوهاب .

وقال تعالى من دعوة يوسف عليه السلام فى السجن بعد أن بين عقيدته وعقيدة آبائه « ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » يقول « يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ونلحظ هنا :

أولا : الذكاء والتلطف وحسن الاستدلال فى دعوته الى التوحيد واظهار ما عليه قوم صاحبيه من شرك متهافت فناداهما بالصحبة مضافة الى السجن مثوى الابتلاء حيث تقرب المحن بين المصابين فيصفو الود ويخلص النصح .

ثانيا : لم يفاجئهما بالدعوة هجوما على ما يبغى بل ساس النفوس بضرب المثل ونصب الدليل فى معرض استفهام تقريرا واستدراجا حتى لا تنفر القلوب ، حسنا فى التأتى ووصولا الى الاذعان بالحق ، وقد أدى الطباق دورا فى كشف المعنى وتصويره وتصعيده بين جمع متفرق مشتت متهافت بين أرباب مختلقة وبين الله بذلك الاسم الاجل متبوعا باسمين لهما دلالة ومذاق وجلال وصدع فى القلوب « الواحد القهار » محوا كاملا لمعدوم مقابل وهيمنه على الخلق وانتقاما من كل متكبر يتعامى عن الحق ، ثم جاء — عليه السلام — بأربعة أساليب قصرية جحدا حاسما للاوثان وقصرا للوحدانية على الله تعالى (٣٤).

---

(٣٣) راجع الكشاف ٣/١٥٤ .

(٣٤) راجع فى الآية : الرازى ٥/١٢٧ والبحر ٥/٣١٠ وأبا السعود ٤/٢٧٨ والشهاب ٥/١٧٨ .

ألوان أخرى من التقرير :

جاءت أساليب كثيرة تقرر بصفات الله تعالى وآثار صفاته فى عالم الغيب والشهادة يتفرد به سبحانه دون سواه ، وهو فى النهاية تقرير بوحدة الذات والصفات ، سواء كان التقرير فى زمان الدنيا أم قبله أم بعده وقد وظف ذلك وغيره فى خدمة الدعوة الى الواحد الأحد وما يرتبط بهذا من أخلاق وأعمال ثم نبذ الوثنية ورذائلها .

وفى هذه الأساليب دخلت همزة الاستفهام المفيدة للنفى على أداة نفى أخرى مثل لم وليس ولا حسب المقام الذى يعين أداة دون سواها .

قال تعالى : واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى : شهدنا (٣٥) تقريرا فى عالم الذر بالربوبية التى صممت على أساسها الفطر وما يقتضى ذلك من عبودية خالصة (٣٦) دعوة قائمة الى التوحيد أبدا .

وقال تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين » (٣٧) الاستفهام مع كونه مقررا بأن الله أحكم الحاكمين فالجملة مقررة أيضا لما قبلها بمعنى أنه قادر على البعث والجزاء ومن التقرير بخبر ليس أو ما يسمى بالجواب فى اثباته لاسم ليس قوله تعالى :

« أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » (٣٨) .

---

(٣٥) الأعراف ١٧٢ .

(٣٦) راجع أبا السعود ٣/٢٩٠ .

(٣٧) التين ٨ .

(٣٨) يس ٨١

ونلحظ هنا وجود واو العطف بعد ليس دلالة على جملةمحذوفة معطوف عليها ثم كان اسم ليس موصولا له صلة خاصة تقـــوى التقرير بالبعث بل هو دليل عليه وهو خلق الســـكون كله ونحس بطء الايقاع فى الصلة لتعطى العقل فرصة التقرير تحقيقا لمضمون الخبر الذى صدر بالباء التى تؤدى دورا فى تضعيف التأكيد وشدة الايقاع ثم ذكر الجواب صراحة مع دليله «بلى وهو الخلاق العليم»والتذييل هنا بصفتى الخلاق بصيغة المبالغة الدالة على ما لا يحصى ولا يحاط به من مخلوقات تبرز الى عالم الأحياء دوما وقريب منه آيات القيـــامة التى توالت فيها الاستفهامات بادئة بالانكار وليه اســـتفهاما تقرير : أيحسب الانسان أن يترك سدى ... الآيات والتقرير الأخير أليس ذلك بقـــادر على أن يحيى الموتى ، وان كانت آيات يس أقوى انـــكارا لأنها ترد على كافر عات هو أبى بن خلف (٤٠) .

ومن تقرير حفظ الله وكفايته وكلاءته لنبيه ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ جاءت آيات الزمر تسلية له وطمأنة وتسرية عنه حين قالت له قريش لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون قـــال تعالى : أوليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد (٤١) الآيات وفيها أربعة استفهامات متوالية تنكر عدم كفاية الله لنبيه أو تقرر بالكفاية على أبلغ وجه وآكده وهو مآل انكار النفى وقد قال بهما العلماء ولا فارق بينهما عند التحقيق ونلحظ

---

(٣٩) القيامة ٣٦ ــ ٤٠

(٤٠) راجع فى الآيات أبا السعود ١٧/٩ ، ١٨٢/٧ ، ٦٩/٩ ولوضوح التقرير وجليل البيان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا قرأ آية يس سبحانك بلى وكذلك آية القيامة وفى آية التين يقول : بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين . المرجع .

(٤١) الزمر ٣٦ ــ ٣٩ :

هنا سر التعبير بلفظ الجلالة ولفظ الكفاية والتعبير بعبد واضافته اضافة تخصيص وتشريف وذلك يجعل الكفاية لازمة واضحة وهذا ما يعين على التقرير ورأى بعض العلماء بأن الهمزة للانكار لا يعنون انكار عدم الكفاية بل ان فى هذا التقرير قدرا من الانكار على من يظن من المشركين أن الاله لا يكفيه شرهم (٤٢) ٠

فعل العلم ونحوه :

وقد يكون المقرر به فعل العلم سواء كان لاثبات الحدث أعنى صفة العلم لله تعالى على الاطلاق أم العلم مقيدا بشىء خاص تقريرا بمتعلقه وقد جاء التقرير بالعلم على أنحاء أسلوبية :

١ ــ اقل تعالى : « أليس الله أعلم بالشاكرين » وقال تعالى فى بعض المنافقين الذين كانوا يلهثون وراء منافعهم أيا كان مصدرها سواء كان المصدر الكافرين أم المسلمين فجاءت الآية تقرر بعلم الله بالنوايا والطوايا تبكيتا لهم وتهديدا « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصر من ربكم ليقولن انا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » (٤٣) وقد يكون الخطاب للنبى ــ صلى الله ــ عليه وسلم ــ تقريرا بعلمه تعلق الفعل وهذا التقرير بأسلوبه تقرير بما جاء فى السياق كقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » (٤٤) ٠

---

(٤٢) راجع الكشاف ٣٩٨/٣ وشروح التلخيص ٢٩٧/٢ وأبا السعود ٢٥٦/٧ ٠

(٤٣) العنكبوت ١٠ وراجع أبا السعود ٣٢/٧ ٠

(٤٤) البقرة ١٠٦ ــ ١٠٧ ٠

وجاء بعد ذكر مناسك الأمم ووعيد بالانتقام الأخروى ان جادل المشركون النبى الكريم ثم تقرير قدرته على ذلك « وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير » (٤٥) .

وتوالى فعلين ثانيهما فعل العلم ثابت لله تعالى جاء فى مناسبات قوية تقرر بعلم المخاطب أو قوله أو رؤيته بمعنى العلم بأن الله بعلم فهو ترق فى ذكر العلم من علم مقرر به مخصوص محدود للمخاطب بعلم الله شامل محيط بالكون من ذلك قوله تعالى للملائكة بعد أن ظهر علم آدم وفضله عليهم « ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » (٤٦) وان كان تقريرا بقول الله واثباته احاطة علمه وقال تعالى فى آيات النجوى « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا » (٤٧) ... الآية فهو تقرير واستشهاد على شمول شهادته تعالى والرؤية هنا بمعنى العلم اليقينى ومنه « أو لا يعلمون أن الله بعلم ما يسرون وما يعلنون » تهديدا للمنافقين وفضحا لتدنيهم الخلقى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » (٤٨) .

---

(٤٥) الحج ٧٠ وراجع أبا السعود ٦/١١٩ .
(٤٦) البقرة ١٣ .
(٤٧) المجادلة ٧ وراجع أبا السعود ٩/٢١٨ .
(٤٨) البقرة ٧٦ ، ٧٧ .

ونلحظ هنا تهديد المنافقين بأن الله يعلم سرهم وعلانيتهم كفاية عن المجازاة والانتقام بسبب أعمالهم ، وإذا كانت الأساليب تئول الى نحو : قد علمت ، وقد رأيت ، وقد علمتم ونحوه فان الصياغة بالاستفهام تغاير الأسلوب الخبرى الذى جاء كثيرا جدا بأن الأول فى مقامات قوية فيها شبه الجدال أو تصحيح المفاهيم أو تبكيت الكافرين والمنافقين أو التعرض بهم أو تثبت النبى الكريم — صلى الله عليه وسلم — وهى مقامات لا يطيقها الاسلوب الخبرى ومعلوم ان التقرير هنا بما يتعلق به علم المخاطب من اثبات علم الله وهو أعجبها أو قدرته أو أثار قدرته (٤٩) .

وهناك أساليب فى العلم كان فاعل العلم فيها مشرك معين كأبى جهل أو عام ، وأفادت الهمزة الانكار والتهديد كقوله تعالى عن أبى جهل فى سياقات مرعدة فى سورة القلم واستفهامات متلاحقة بدأت : أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى ... الى أن قال « ألم يعلم بأن الله يرى » (٥٠) وقال تعالى : أفلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ان ربهم بهم يومئذ لخبير (٥١) « ألم يعلم أن الله يعلم سرهم ونجواهم » (٥٢) « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم » (٥٣) ومع أن الهمزة أفادت النفى داخلة على نفى فأفادت التقرير نجد أن ما فى الهمزة من شحنة للانكار العنيف دلت عليه الأساليب هو ما أوجد الطريقة الخاصة فى صياغات العلماء من قول بعضهم فى بعض هذه الأساليب ان الهمزة للانكار وقول

---

(٤٩) راجع أبا السعود ١/٤٣ ، ١/٨٦ .
(٥٠) العلق ٩ — ١٤ .
(٥١) العاديات ٩ — ١١ .
(٥٢) التوبة ٧٨ .
(٥٣) التوبة ٦٣ .

بعضهم انها للتقرير ذلك أن الانكار واضح فى دلالة الهمزة فى نسق تهديدى عتيد بينما لا تتغاير أقوالهم حينما يكون التقرير واضحا دون انكار بل المن مثلا والرحمة والتقرير بالعطاء فى قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » (٥٤) .

وقد يتمحض الاستفهام الداخل على فعل منفى للانكار والتوبيخ والتأنيب على ترك الفعل وهو مختلف من التذكر والايمان والشكر والتفكر والعقل ونحوها (٥٥) .

ولا شك أن اختلاف الفاصلة وراءه اختلاف السياق وكونه من متعلق الفاصلة تفكرا أو تذكرا أو شكرا أو تقوى وتأمل قوله تعالى عن منافع الأنعام « ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » (٥٦) توبيخا على ترك الشكر على نعم دافعة الى الشكر للمنعم .

وقوله تعالى «هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون» (٥٧) لما كان الكفر عمى وصاحبه أعمى القلب والايمان مبصر واضح الهدى وصاحبه ممتع بالبصر وكان هذا آية تستحق التفكر فى عواقب الايمان والكفر وأثرهما فى القلب تجليا أو انتاكسا كانت الفاصلة تأنيبا على مجانفة التفكر وقال فرعون « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » (٥٨) .

---

(٥٤) راجع هذا الظاهرة دون تعليلهما فى شروح التلخيص ٢/٢٩٧ وما بعدها .

(٥٥) راجع أساليب الاستفهام ٥٦ .

(٥٦) يس ٧٣ .

(٥٧) الأنعام ٥٠ .

(٥٨) الزخرف ٥١ .

وان كان الانكار الشفيف هنا عانقه التقرير الفاقع بما يبصرون من ملك مديد وكأن هذا دليل على ربوبيته مع أنه ورثه عن فان لكنه استخفف بقومه كما قال القرآن « فاستخف قومه فأطاعوه » وقد اختلف العلماء فى مثل هذه الأساليب هل المفعول محذوف فيها و أن الأفعال منزلة منزلة اللازم قصدا الى الصفة (٥٩) وهذا الراجح لمناسبته للسياقات بلاغة .

ويتعلق بآثار الصفات : التقرير بنعم الله تعالى وآلائه الكبرى وهو توجه دائما الى الرحيم المنعم الوهاب حثا على الشكر والاعتبار والخشوع وقد كثر ذلك فى مادة الخلق والجعل اللتين كثرتا جدا فى القرآن الكريم وقد نبهنا الى أن أساليب الاستفهام لها مقاماتها المتوترة المثيرة التى تباين أساليب الخبر الهادئة التى تثير انفعالات الجمال والتأمل الوئيد قال تعالى فى سورة النبأ فى سياق « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » فهو استئناف سوق لتحقيق النبأ المسئول عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بصدق البعث أو نبوة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال تعالى بعد التهديد « كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون » .

« ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » الآيات (٦٠) .

وفى سورة البلد « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين » (٦١) .

---

(٥٩) أساليب الاستفهام ٥٧ .

(٦٠) النبأ ٦ ــ ٢٠ .

(٦١) البلد ٨ ــ ١١ وراجع أبا السعود ٩/١٦١ .

ولما كان ألم نجعل يئول الى قد جعلنا من دلالة لم عندى نفى الماضى جاءت الأفعال المعطوفة فى سورة النبأ على الماضى داخله فى الاستفهام والتزم فيها الفاعل «نا» الدالة على العظمة والجلال دالة على جلال هذه النعم والآيات وأنه لا يقدر عليها سواه ثم تكرار الفعل «جعلنا» مع الآيات الدالة على التحويل والتصيير فى النعم أربع مرات مع ألم نجعل ثم مع الخلق والبناء وانزال التجاج كل ذلك دافع للعقل والقلب والخيال أن يتأمل ويحس ويحلق فى أسرارها وآثارها على الحياة عموما والحياة البشرية خصوصا ، نعم وآيات يتضاءل أمامها الانسان وبخاصة هذا المنكر الذى لو تأمل لتلاشى حياء وذاب انكاره وتبخر شيطانه .

وفى سورة المرسلات ذات الايقاع الراجف والهول الراصد والوعيد النافذ ، جاء من التقريرات على صحة يوم الفصل « ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون » دليل الخلق الأول بدءا على الخلق فى الاعادة وقد نلمح هنا شيئا من التحقير والاعتبار بالتحول الهائل من ماء مهين الى هذا الانسان الكريم ليطامن من غلوائه وقد غلف التقرير بوشاح من الانكار وجاء فى السياق « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسى شامخات ، وأسقيناكم ماء فراتا » والكفات اسم لما يكفت أى يضم ويجمع كضمام لما يضم والسياق والمقام اقتضينا ألوانا من النعم فيها مع بسط الرحمة قبض العزة وعزة القهر والجلال وتأمل تهيئة هذا الكوكب الأرضى ليكفت الانسان فى اقامته الأولى ويضم رفاته بعد قراره وتأمل هذا وجعل الرواسى الشامخات بهذا الأسلوب الفخم الجزل المهول دلالة ووازن بينه وبين

---

(٦٢) المرسلات ٢٠ ـ ٣٠ .

آيات النبأ لتعام مذاقات الأساليب واختلاف المقاماتوالانكار الرهيف مع التقرير المتمكن فى النبأ والتقرير هنا يحفه التهديد والقهر فى دائرة مهولة غاضبة فهو تقرير بأنواع فخمة من المقدورات والنعم الجليلة (٦٣) وتأمل كيف كان دفن المرء نعمة فى قصة قابيل بعد قتله هابيل لولا أن سخر الله له الغراب معلما ومثله يعلمه غراب أسحم • « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخيفأصبح من النادمين » انكارا ويأسا خانقا وندما ينضح من كلماته •

التقرير والتوبيخ للمكذبين :

وقد كثر فى القرآن الكريم أن يختم ما فصله الله من اهلاك المكذبين ، وانتقام الله المحيط بهم بتقرير قوى مهدد لمن يحذو حذوهم قال تعالى « ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » (٦٤) والياء فى عقاب محذوفة لتصوير سرعة الأخذ والعقاب •

وقال تعالى « فكيف كان عذابى ونذر » (٦٥) فى سورة القمر فى أربعة مواطن اثر ما قصه تعالى من هلاك قوم نوح وبدء قصة عاد ونهايتها تهديدا وتعجيبا من انتقامه واثر قصة ثمود قبيل الانتقام مباشرة تعجيبا من بطشه وتهديدا لأعدائه واعتبارا « فكيف كان عذابى ونذر انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » • أما قوم لوط وقد مسخت فطرهم فقد تغيرت الفاصلة والأسلوب وتكررت مرتين مقولا لقول محذوف دليلا على الغضب واللعنة والاهانة

---

(٦٣) راجع أبا السعود ٩/٨١ •
(٦٤) الرعد ٣٢ •
(٦٥) الآيات ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ •

« فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر » (٦٦) كما تغيرت الفاصلة مع فرعون المدعى الألوهية فكان الخطاب الأعنف والانتقام الأقوى « كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » (٦٧) •

وتأمل التكذيب الكلى منهم مع الأخذ القاهر من الله والوصفين عزيز مقتدر أى جامع بين العزة والاقتدار •

ومن عجب أن نجد تقرير المكذبين يوم القيامة أو تعليقا على بئيس عذابهم وهو تقرير والزام محض من الاعتراف به فى موقف الذل المحيط وفيه الهاب للحواس واثارة للخشية والعبرة تجديدا للتوبة ، ونأيا عن فعال الكافرين قال الله تعالى « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا الحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » (٦٨) ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين (٦٩) وجاء التعبير الأخير فى الدنيا أيضا تهديدا للكافرين مع التقرير « فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين»(٧٠) ولكن فى الأول تقرير وتبكيت و فى الثانى تقرير ووعيد • وقال بعض المؤمنين فى الجنة وقد اطلع فرأى قرينا له أيام الدنيا وهو فى النار كان ينكر البعث والجزاء « فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين الا

---

(٦٦) الآيتان ٣٧ ـ ٣٩ •
(٦٧) الآية ٤٣ •
(٦٨) الأحقاف ٣٤ •
(٦٩) الزمر ٦٠ •
(٧٠) الزمر ٣٢ •

موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين (٧١) تقريرا وتوبيخا ردا على ما كان يردده الكافر فى الدنيا والذى ينكر ويقرر هو المؤمن فاليوم يومه ونه الكلمة العليا وهذا الموقف كان تتمة لموقف دنيوى ينكر فيه الكفار البعث والنشور « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما اثنا لمبعوثون » وقد ظلت الأحداث متوالية أو مترقية حتى أوضحت جزاء المنكر فى الأخرى جمعا بين الزمنية فى أسلوب واحد على نحو معجز ، ويرى الأستاذ فودة أن التقرير هنا بمعنى طلب الاعتراف ، والواقع أن استفهامات المؤمنين فى الجنة ليست على حقيقتها بل تساؤلات ومناقلة للحديث وتذكر لسالف أيام الدنيا كما يفعل الأصفياء فى الحياة ، ولأن المعذب فى شغل عن الرد بعذابه انه فى وسط الجحيم وقودا لها وليس اعترافه ذا قيمة وصمته صمت من اشتملت عليه النار أما قول أبى حيان بان استفهام المؤمن تنكيل وتقريع وتحزين (٧٢) فالواضح أنه تحزين وتنديم وكانه لون من العذاب النفسى أما التنكيل ونحوه من هذه المشاعر السوداء الداكنة الملتهبة فلا يمكن أن تنطوى عليها قلوب أهل الصفاء فى الجنة بعد أن قال الله « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » .

وتأمل قول أصحاب الجنة فى الأعراف : أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » فهو تقرير وتنديم ولا أظن أن هذا الأسلوب ومثله مما حكى القرآن من محاورات بين أهل الجنة وأهل النار يمكن أن يشتم منه الشماته أو غيرها كما رأى الأستاذ فودة متبعا الزمخشرى وأبا حيان وأبا السعود (٧٣) ولذا كان الرازى أدق حينما قال الغرض من هذا السؤال أنه وصل الى السعادات الكاملة

---

(٧١) الصافات ٥٠ ـ ٥٨ وراجع أبا السعود ١٩٢/٧ .

(٧٢) راجع البحر ٣٦٢/٧ .

(٧٣) راجع الكشاف ٨٠/٢ والبحر ٣٠٠/٤ وأبا السعود ٢٢٨/٣ .

وايقاع الحزن فى قلب العدو « (٧٤) ٠

ولذا كانت اللعنة على لسان المؤذن بينهم وهو صاحب الصور من الملائكة عن ابن عباس رضى الله عنهما عفاف عن الخصومة أما ماذكر بشأن قول أهل الأعراف وهم مؤمنون لم يدخلوا الجنة بعد فى مكان بين الجنة والنار فى خطابهم للكافرين « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة » (٧٥) فهو كما ذكر الرازى للدلالة على شماتة أهل الأعراف بوقوع أولئك المخاطبين فى العقاب ثم زيادة هذا التبكيت بالاستفهام وهؤلاء اشارة الى فريق كان مستضعفا يستقله ويهزأ به المستكثرون المتبطرون الكفرة فى الدنيا (٧٦) وقد يشمت أهل الأعراف لأنهم مؤمنون قعدت به أعمالهم عن دخول الجنة مع السابقين حتى أدركتهم رحمة الله بالشفاعة فهم فى موقف يعين على الانفعال أما أهل الجنة الذين دخلوا الى عالم النعيم المقيم حيث لا لغو ولا تأثيم فلا شعور يكدر الصفاء بل روح وريحان وسلام ومن عجب أن رد المؤمنين على طلب الكفار شيئا من المال أو الرزق يبدأ على ألسنة المؤمنين ثم يكمل على ألسنة الملائكة أو من جهة الحق تعالى دون ذكر فاصل أسلوبى من قول أو غيره الا ما كان من تلوين الخطاب من تغير الفاعل من غائب الى نون العظمة « قالوا أن الله حرمهما على الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (٧٧) ٠

---

(٧٤) تفسير الرازى ٨٣/١٤ وما بعدها ٠
(٧٥) الآية ٤٩ ٠
(٧٦) الرازى ٩١/١٤ وراجع الكشاف ٨١/٢ ٠
(٧٧) الآية ٥١ وراجع أبا السعود ٢٣٠/٣ ٠

أنبيـــاء الله تعـــالى :

وقد جاءت أساليب تفيد التقرير بمعنى التحقيق والتثبيت لنعم من الله تعالى على عبده وحبيبه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ تفضلا ومنا وحثا على مزيد من الشكر كما فى سورتى الضحى والشرح « ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى » « ألـــم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنـــا لك ذكرك » وهو تعديد لمـــا أفاض الله عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أول أمره من فنون النعم العظام استشهادا بالمـــاضى والحـــاضر على الموعود المترقب فى قوله « ولسوف يعطيك ربك فترضى » طمـــأنة لقلبه وشرحا لصـــــدره الذى صرح به أول الشرح « ألم نشرح لك صدرك » تقريرا بليغا بحيث لا يجاب الا ببلى (٧٨) وقد حفلت العبارة بفيض من العطاء والمن والقرب ، فبدأ الفعل بنون المتكلم المعظم نفسه دلالة على عظم الفعل ووسط «لك» بين الفعل والمفعـــــول ، تكريما واختصاصا وادخالا للروح والسرور الى قلبه الشريف مع تكرار ضمير النبى وكونه خطابا رفعا لدرجته وتكريما له وتأييـــــدا والمراد بشرح الصدر تأييده بالقوة القدسية وتحليته بالكمالات الانســـــانية وتأمل التفاوت بين سيد الرسل الذى بدأه الله بتحقيق شرح صدره بالطريق التأكد وبين مقام موسى عليه الصلاة والسلام فى تضرعه الذائب « رب اشرح لى صدرى » وتأمل فى سورة الشرح فقد تكرر ضـــمير الوهاب المنعم ثلاثا وتكرر ضمير النبى الموهوب سبعا وهو نهاية العدد الفردى عند العرب كناية عن العطاء المتجدد أبدا .

ومن تقرير الله لخليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام « رب أرنى

---

(٧٨) وراجع أبا السعود ٩/١٧٠ ، ١٧٢ .

كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » (٧٩) سأل ربه عن كيفية الاحياء للموتى ليتأيد ايقانه بالعيان ويزداد اطمئنانا على اطمئنان ومع أن الله يعلم أن عبده ابراهيم عليه السلام أثبت الناس ايمانا وأقواهم يقينا لتكون اجابته لطفا للسامعين نفعا وافادة ودلالة حقة على البعث ومغزى القصة مع ذلك بيان فضل الخليل وحسن الأدب فى السؤال وحب الله لأوليائه ووازن بين يسر الاجابة هنا وتأخرها فى العزير مائة عام حين قال عن القرية الخربة « أنى يحيى هذه الله بعد موتها » استبعادا لعمارتها واستشعارا لليأس عنها فكان هو موضع التجربة والجواب .

ومن تقرير الله لعيسى عليه السلام يوم القيامة على رءوس الأشهاد « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » (٨٠) ولما كان من المعروف أن المقرر به يثنى الهمزة وانه اذا تقدم الفاعل كان الفعل واقعا فقد توقف العلماء عند هذه الآية ، ذلك أن عيسى عليه السلام لم يقل للناس ذلك لأنه أمر بالكفر وهو كفر ولذا قال أبو حيان أن الاستفهام هنا وقع عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادرا عن المخاطب أم ليس بصادر عنه ونقل عن أبى الحسن الأخفش ان قولك أأنت ضربت زيدا كان الضرب قد وقع بزيد لكنك استفهمت عن اسناده للمخاطب وقال أبو السعود ان هذا التعبير خرج عن الاستعمال الفاشى فى قوله « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » وليس القول بمتيقن بل المتيقن هو الاتخاذ ، والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه السلام. ويرى السبكى أن التقرير كالاستفهام مصروف الى

---

(٧٩) البقرة ٢٦٠ وراجع أبا السعود ١/٢٥٦ وما بعدها .
(٨٠) المائدة ١١٦ .

غير المقر فقوله أأنت قلت للناس : طلب أن يقر بذلك فى ذلك المشهد العظيم تكذيبا للنصارى فى ادعائهم وفهمهم ، والمطلوب منه أن يقر بالأمر الواقع منه .

ثم قال : « ان المقرر به هو الفاعل ولا تناقض مع قاعدتهم اذ التقدير أأنت فعلت أم غيرك فهو تقرير بالفاعل منه ومن غيره ، وكلامه غير واضح اذ اقراره عليه السلام بالأمر الواقع منه يعنى أن القول اتخذونى غير واقع من واقع من غيره وقوله : التقدير أأنت فعلت أم غيرك يعين أن الفعل واقع وأن الشك فى الفاعل كما أن التقدير يعنى أن الاستفهام حقيقى لا تقريرى وهو يلتقى بهذا مع أبى السعود وقريب منه رأى ابن الشجرى حين جعل الآية من التوبيخ فى الظاهر لغير المذنب مبالغة فى تعنيف المذنب وفكرة التوبيخ ولو ظاهرا مما ينأى عنه المقام .

ويرى ابن يعقوب أن هذه الآية مما خرج عن القاعدة المشهورة اذ المقرر به نفس المنسبة اذ ليس المراد اظهار أن غير عيسى قال هذا القول دون عيسى بل المتبادر أنه لم يقله تكذيبا للمدعين فالهمزة فيه للتقرير بما يعلمه عن ذلك القول (٨١) ويبدو التفاته الى رأى أبى حيان واضافته اليه وهو الرأى الأقوى وألمح فيه الكناية القوية والدليل الأبلغ على كذب ما يدعيه النصارى ذلك أن عيسى وهو مصدرهم الوحيد المبلغ للشرع اذا نفى قول ذلك نفى مشروعيته وأنه افتراء وبهتان وهذا يزيد معنى الانكار والتوبيخ .

---

(٨١) راجع فى ذلك الدلائل ٨٧ والأمالى الشجرية ٢٦٥/١ والبحر ٥٨/٤ وأبا السعود ١٠٠/٣ وعروس الأفراح ٣٠٦/٢ ومواهب الفتاح ٢٩٨/٢ وأساليب الاستفهام ٢٢٥ وما بعدها وتقرير الامبابى ١٥٤/٣ وما بعدها .

وذكر ذلك تركآنا يتلى انكار أبدى لمن يشرك مع الله تعالى عيسى ابن مريم وأمه الصديقة ولذا فمتابعة الأستاذ فوده للامام عبد القاهر وأن التقرير هنا من المخاطب اعترافا ليوبخ غيره متابعه لم تستوف ما قيل فى الآية ولذا كانت واهنة .

ومثل تقرير عيسى عليه السلام تقرير الملائكة وتبكيت من عبدوهم قال تعالى « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » (٨٢) وقال تعالى « ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا»(٨٣) والجمهور على أن قوله «وما يعبدون» من عبد من دون الله ممن يعقل دون أن يأمر بذلك كعيسى وعزير والملائكة بدليل المحاورة التى لا تتأتى الا من العقلاء وهذه الآية أعم من آية عيسى وآية الملائكة اذ تشمل غيرهما كالعزير الذى جعله اليهود ابن الله « وقالت اليهود عزير بن الله » والاستفهام للتقرير معلوم الجواب يترتب عليه تبكيت عبدتهم، وزيادة حسرتهم وفضيحتهم (٨٤) .

وقولهم «سبحانك» تنزيه لله أن يعبد معه سواه وتعجيب منهم ومن قولهم الآفك فالأنبياء والملائكة هادون لا مضلون كابليس وحزبه وفى قول الملائكة : كانوا يعبدون الجن أى يطيعون الشياطين فى

---

(٨٢) سبأ ٤٠ .

(٨٣) الفرقان ١٨ .

(٨٤) راجع الكشاف ٣/٨٥ ، ٣/٢٩٣ والبحر ٦/٤٨٨ ، ٧/٢٨٧ وأبا السعود ٦/٢٠٨ ، ٧/١٣٧ .

اضلالهم فكأنهم يعبدونهم كقوله « وان يدعون الا شيطانا مريدا ». وتأمل ثانية فى الآيات تجد نفى عيسى « ما يكون » واضراب الملائكة المتأثر « بل كانوا » وفى الآية الثالثة الجامعة بينهم جمعت أيضا بين النفى « ما كان ينبغى » والاستدراك « ولكن » بمعنى بل وهى دقة معجزة وتلاؤم مثير لا يتخلف .

من أسلوب الموازنة فى القرآن :

ومما يلفت الانسان فى بعض ألوان الاستفهام أن يمهد له بمقدمات يقينية رغبا أو رهبا ثم يعقد موازنة صورية تأكيدا مثيرا لما سبق فى المقدمة والتصوير هنا فى التقابل بين الأضداد جزاءات أو أحداثا أو ذوات متقابلة بأوصافها .

وكذلك فى الاستفهام التقريرى هيمنة على مراكز الحس ، وقد سبق من ذلك عقد الموازنات بين الله تعالى بكل كمالاته والآلهة المزعومة .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة الصافات بعد عديد من الأقسام الجليلة على أن الله واحد وأنه رب الكون يقول سبحانه « فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب » (٨٥) ومن خلقنا أى من غرائب المخلوقات وعجائبها من الملائكة والجن والسماء والأرض والنجوم والكواكب وما فى الكون من خلق وأتى بمن تغليبا للعقلاء والاستفتاء نوع من السؤال والاستفهام للتقرير والأسلوب كناية عن البعث وأن من هان عليه خلق هذه الكائنات كانت اعادة البشر عليه هينة .

---

(٨٥) الآيات ١ ـ ١١ .

وهو تقرير لكفار قريش وتوبيخ لهم وإذا صرح بأصلهم وهو الطين اللازب وفى نفس السورة بعد ذكر الجزاء العالى لعباد الله المخلصين يأتى باستفهام تقريرى فيه موازنة بين هذا الجزاء مشارا اليه وبين لون رهيب من جزاء الكافرين « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم » (٨٦) وهى موازنة صورية على سبيل التهكم أولا بجعل هذه الشجرة من النزل الخاص والنزل ما يقدم للضيف تكرمة ولا تكرمة هناك وتأمل فى التعبير تجد أن : خير نزلا جمع بين المفضل والمفضل عليه فى أصل الصفة وهى خيرية النزل وهى فى جانب المؤمنين محققة وفى جانب الكافرين على سبيل التهكم اذ لا خير فيها ولا مثقال ذرة حتى تعقد الموازنة تقريرا وتوقيفا لكفار قريش على سوء اختيارهم الذى أدى بهم الى شجرة الزقوم فهو برهان على نفى الخيرية ثم ان الأسلوب كان جسرا الى تفصيل عذابهم وهو متلائم من حيث الدرجة مع جزاء المؤمنين الخاص • ويشبه ذلك ما جاء فى سورة فصلت •

قوله تعالى « ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير » (٨٧) •

والأسلوب عنيف مشحون بالتهديد تصريحا وكناية توسطه أسلوب الاستفهام كأنه عصب يشد طرفيه وفيه دليل ملزم وتبكيت ملجم وناسب التهديد وتقديم الذين يلحدون ان كان الطرف الأول أو المفضل من يلقى فى النار ، هكذا القاء عنوة وأخذا وتحقيرا مهينا كالشىء الذى لا بال له بل الشىء المستقذر شديد الهوان •

---

(٨٦) الآيات ٤٠ ـ ٦٢ وراجع البحر ٣٥٤/٧ وأبا السعود ١٨٦/٧ •
(٨٧) الآية ٤٠ •

وهذا الباب كما قال أبو حيان يقرر المناظر فيه خصمه على وجهين أحدهما فاسد لو أقر به لبان جهله (٨٨) وإذن لا بد من التقرير بخيرية من يأتى آمنا يوم القيامة فى يوم يعد الأمن فيه مغنما جليلا ومن هنا كثر حذف الأجوبة فى مثل هذه الأساليب لوضوحها . الا اذا ترتب على الاجابة أسلوب جديد تولد عن الأول أو نتيجة مهمة ذكرت الاجابة كما فى آيات النمل وحين تأتى الموازنة وقد سبقتها جزاءات الكافرين فى الآخرة يكون المفضل أو الطرف الأول ما يتعلق بجانب المشركين كما فى سورة الفرقان بعد ذكر جزائهم وحشرهم مقرنين يدعون ثبورا فى النار قال « أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا » .

ومما سلب فيه الخير عن الطرفين جميعا وكان ذكره تهكما ساخرا قوله تعالى عن كفار قريش « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم » (٨٩) وفى سورة القمر بعد ذكر مصارع المكذبين فى الأمم « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر » (٩٠) والخطاب لأهل مكة والخيرية فى القوة والعدة والعدد أو المكانة والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع أنهم أشد قوة وأكثر طاعة والمراد نفى الخير بمعنى أنهم شر منهم توقيفا وتوبيخا ، ويبدو أن التقرير هنا بالنسبة نفيا لها والأساليب التالية تصعد التهكم والنكير عليهم .

وخير فى هذه الأساليب جاءت على النهج العربى فى بيان فضل الشىء وانفراده بالفضل دون مقابلة كقوله تعالى « السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » وقول العرب الشقاء أحب اليك أم السعادة

---

(٨٨) البحر ٧/٥٠٠ .
(٨٩) الدخان ٣٧ .
(٩٠) ٤٣ ـ ٤٥ .

وتقول حسان عشركما لخيركما الفداء ذلك أن المتكلم المقرر له أن يوقف محاوره ــ كما ذكر الزمخشرى وأبو حيان ــ على ما شاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ بل لا ينتظر منه اجابة لأن الصواب واضح لذى عينين ، وليس التوقف خاصا بالاستفهام بل يأتى فى الخبر كآية يوسف قول حسان بشرط أن يكون الحكم واضحا لا يختلج فيه شك ولا يحوم حوله نردد (٩١) .

متقرقات فى التقرير :

وحين يقرر من لا دخل له فى الحدث الظالم كتقرير الأنبياء والملائكة ــ فيما سبق ــ يكون التبكيت أشد نكاية وأبلغ تحسيرا وقريب منه قوله تعالى « واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » (٩٢)

وتوجيه السؤال اليها اثارة للاشفاق والرحمة بهذه المظلومة واظهار كمال الغيظ والسخط لوائدها واسقاطه عن درجة الخطاب مبالغة فى تبكيته وفى قراءة «سألت» أى خاصمت وهذا أدعى للتبكيت ثم ان السؤال عن نوع الذنب أو سببه الذى أوجب القتل يؤجج ذلك المنكر وأكاد ألمح الجمع بين الآيتين « واذا الوحوش حشرت واذا الموؤدة سئلت . اتساقا نفسيا بين ما للوحوش من افتراس ونهم للدماء وبين الوأد وهو من أبشع صور القتل دفنا بالحياة لجسد غض لا تكاد تمر عليه آخر لحظاته الا فى عذاب دونه التمزيق المسعور بالمشاقص (٩٣) .

---

(٩١) راجع الكشاف ٥٢٢/٢ والبحر ٤٨٦/٦ ، ١٨٣/٨ وابا السعود ١٧٤/٨ .

(٩٢) التكوير ٩ .

(٩٣) وراجع فى الآية البحر ٤٣٣/٨ والبقاعى ٢٨٠/٢١ وتفسير أبى السعود ١١٥/٩ .

ومن الاعتراف للتسجيل وترتيب أمر آخر عليه قول السحرة لفرعون وهم في زهو وثقة بالنصر على موسى عليه السلام وقد حسبوه ساحرا « وجاء السحرة فرعون قالوا أان لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم لمن المقربين » (٩٤) وتلمح في صياغة الأسلوب ذكر القول اثر المجيء دون عاطف وهذا لا يدل على مصاحبة القول للمجيء فحسب بل على سيطرة هذه الفكرة أعني حب المال وطلب الأجر على قلوبهم فهو حافز مادي أو تفكير وضعي بعيدا عن عالم القيم .

ومن هنا دخلت همزة التقرير على جملة اسمية مؤكدة بان واللام وتقديم المتعلق استحقاقا وتبريرا وتنكير آجر تفخيما يناسب الغلبة الواعدة التي حققوها حين عبروا بالمضى «كنا» وأتوا بضمير الفصل وتعريف الطرفين والطرفان والضمير لأمر واحد هو نفوسهم انها ذاتية أو بالتعبير المعاصر أنانية وثقة غلابة تتفجر من اعطافهم ودخول «ان» المفيدة للشك مناورة نفسية ادعاء للتواضع الكاذب الزائف حثا لفرعون على الوعد بعد أن أحسوا منه ضعفا تجاه موسى وجواب الشرط محذوف دل عليه ان لنا لأجرا فكأنه ذكر مرتين لهثا وراءه .

ولعل فراغهم النفسي جعلهم يدركون المعجزة المزلزلة فألقوا ساجدين ، والتقرير للتسجيل على فرعون وعده المأمول وقد مناهم بالأجر وبما هو خير منه وهو القرب الممنوح ولم ينس — وهو ذكي — أن يؤكد سبب الأجر والقرب « قال نعم وانكم اذا لمن المقربين » (٩٥)

---

(٩٤) الأعراف ١١٣ — ١١٥ .

(٩٥) الآية ٤٢ الشعراء رد على قولهم « ائن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين آية ٤١ أما رده في الأعراف فجاء بدون اذن آية ١١٤ فاك الكرماني لأن ما في الأعراف من هذه الواقعة بني على الاختصار دون الشعراء وراجع أسرار التكرار ٨٩ .

أى اذا غلبتموه حقا . ومنه قوله تعالى على لسان أتباع يوسف عليه السلام وقد وضعوا الصاع بأمره فى رحل أخيه ثم سألوا اخوته عن جزاء السارق فى شرعتهم ليعترفوا به فلا ينكرون بعد « قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين»(٩٦) وذكر الكذب الهاب لهم واثارة لا نفعا لهم لأنهم أبناء الأنبياء وكأنهم مفاوضون عصريون « قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه » واجابتهم أشبه بتقرير علمى ولذا تكرر الجواب لفا ونشرا غير مرتب بدءا بالجزاء وختما به والأسلوب يكون دائرة بداخلها « من وجد فى رحله » يعنون الرق وسجن الحرية وبناء الاسلوب ملائم لمعناه وانفعالهم أيضا أو قل على سبيل المجاز ان تصميم الأسلوب يدل على فحواه فما أعجب شأن القرآن العزيز .

---

(٩٦) يوسف ٧٤ ، ٧٥ .

التعجب

التعجب : النظر الى شيء غير مألوف ولا معتاد فهى حال تعرض للانسان حين يعظم موقع الشيء عنده ، ويخفى عليه سببه ، والشيء الذى يكون كذلك عجيب وعجيبة ، وهذا الشيء قد يكون خيرا او شرا(١) والعجب حين ينسب الى الانسان فهو أمر عادى ، لكثرة ما يرد عليه من أحداث وظواهر تخفى عليه أسبابها ، لكن حين يسند الى الله تعالى بلفظه أو معناه ، فهنا يتوقف العلماء اذ لا تخفى على الله خافية وهو كبقى الأفعال كالحب والبغض والكره والضحك والعجب والملك وغيرها من المحدثات ومعلوم أن رأى السلف التفويض ، والخلف التأويل وفيما يتعلق بالرجاء والعجب يرى بعض العلماء أن الانسان يتعجب وقد خاطب الله العرب بما يعرفون وبما جرت عليه أساليبهم ليعرفوا موقع هذه الأشياء المتعجب منها عنده فهو تعجب غير مقصود لذاته ، تعجب لغير المتكلم وفى هذا يلتقى ابن الشجرى وصاحب النهاية فى غريب الحديث وغيرهما مع السبكى ففى قوله : « قتل الانسان ما اكفره » أى أنه يستحق أن يقال له ما أكفره ، وهذا ما يسميه الزمخشرى بالتعجيب أحيانا ونقل عن سيبويه فى قوله تعالى : « فقولا له قولا لينا له يتذكر أو يخشى » : اذهبا على رجائكما منه التذكر أو الخشية ، وقاس عليه فى الكشاف ما أفاد الرجاء من هذه الأساليب الخاصة كقوله : لعلكم تعقلون .. أى مرجو منكم التعقل ، وقد رأى بعضهم أنه لا بأس من اسناد العجب الى الله كما نسبه لنفسه على نحو يليق بجلاله والمهم ما يثيره الأسلوب فى نفوس المتلقين ، وقد استقر هذا المصطلح التعجب

---

(١) راجع النهاية لابن الأثير ١٨٤/٣ ومعجم ألفاظ القرآن ١٢/٢ وأسرار التكرار ١٣٤ .

لغير الله والتعجيب لله تبارك وتعالى . (٢) وقد جاء التعجب فى الأساليب الخبرية نحو : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » «بل عجبت ويسخرون» وقرىء بضم التاء وبفتحها ، وفى أساليب التعجب قياسية وسماعية كقوله تعالى « أسمع بهم وأبصر » ومن أندر ما جاء فى هذا الصدد التعجيب من التعجب القائم على غير أساس كقوله تعالى : « أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم ان أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم فقال الكافرون ان هذا الا سحر مبين »(٣) فالهمزة لانكار تعجبهم وتعجيب السامعين منه وذكر كفار مكة باسم الناس لتحقيق البشرية التى يشاركهم فيها النبى بأنه رجل منهم وتعيين مصدر تعجبهم ، ثم تبيين خطئهم وبطلانه بالانكار والتعجيب والأسلوب شديد التداخل فالانذار والتبشير داخل فى الايحاء الى رجل منهم وتعجبهم مثير غريب لأن الكمال هو أصل الاختيار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكملهم وهم غير قادرين على مفاوضة الملائكة حتى يبعث اليهم ملك رسول .

ومن ملاحظاتنا فى الاستفهام التعجبى أنه قد يقع تابعا للانكار أو التنبيه أو التقرير أو الاستبعاد وقد يسيطر على الأسلوب ويستبد به معنى اصليا يومض من خلاله بعض المعانى الثانوية كالانكار أو الاستبعاد كهذه الأساليب التى جاءت نصا فى افادة التعجب كالتعبير « ألم تر » بمعنى أم تعلم . فقد جرى مجرى التعجب فى لسانهم ، ويقال عندما

---

(٢) راجع الأمالى الشجرية ٢/٢٣٧ وفى أساليب التعجب ذكر الزمخشرى فيها التعجب أو الاستعظام أو على التخييل البيانى وقد رفض التخييل كثير من العلماء كابن المنير وأبى حيان وابن تيمية مما ناقشناه فى موطن آخر وراجع الكشاف ٣/٣٣٧ ، ٤/٢١٩ وراجع الكشاف « الآية : فقولا له قولا لينا ٢/٥٣٨ .

(٣) يونس ٢ وراجع أبا السعود ٤/١١٦ .

يراد التعجب من شيء ما : كما جاء فى الحديث حينما رأى مجزز أرجل زيد وابنه اسامه فقال هذه الأقدام بعضها من بعض فدخل النبى صلى الله عليه وسلم قائلا على سبيل التعجب ألم تر الى مجزز ٠٠الحديث(٤)

ومما هو نص فى التعجب أيضا بعض استعمالات كيف بدلالة المقام كما فى قوله تعالى عن الوليد بن المغيرة « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر » فالاستفهام فى « كيف قدر » فى معنى ما أعجب تقديره وما أغربه ــ كما ذكر أبو حيان ــ كقولهم أى رجل زيد ، أى ما أعظمه ، وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ فى افادة التعجيب من الأولى للتراخى الذى بينهما (٥) ٠

وقد يجمع الأسلوب بين ألم تر كيف وجاء فى أساليب قليلة تمثل قمة التعجيب فى مقامات خاصة جدا كقول الله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » وقد مهد الاستفهام التقريرى بمعنى ألم تعلم علما رصينا يساوى المشاهدة والعيان بما تناقلته الأخبار المتواترة ودلت عليه الآثار الظاهرة وتعليق الرؤية بكيفية الفعل دون الفعل ذاته لتهويل الحادثة وأنها وقعت على حال هائلة وهيئة عجيبة مثيرة غير مألوفة دالة على القهر والسلطان والحكمة والعزة (٦) ولا شك أن الاستفهام الأول مهد للثانى بالتنبيه والاثارة والتقرير اظهارا له وقصدا الى أنه عجيبة من العجائب وهذا ينفى رأى الأستاذ فودة من أن التعجب لم يرد الا معنى ثانيا كقوله فى بعض أساليب كيف انها تفيد التعجب

---

(٤) راجع فى ذلك ٢٤٩/٢ ، ٢٩٧/٣ والنهاية ١٧٨/٢ ٠
(٥) راجع البحر ٣٧٤/٨ والكشاف ١٨٣/٤ وأبا السعود ٥٧/٩ ٠
(٦) راجع أبا السعود ٢٠٠/٩ ٠

والتهديد (٧) من نحو قوله تعالى « وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » (٨) « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (٩)

وكثير من المفسرين كالزمخشرى وأبى حيان وأبى السعود على انه للوعيد والتهديد والتحذير من مثل مصائر المكذبين ، والواقع أن التعجب خفى جدا لا يفصح به الأسلوب وقد يجوز ذلك حينما يكون المخاطب النبى صلى الله عليه وسلم كالآية الأولى « فانظر » أما حينما يكون فاعل النظر ضمير المشركين كالآية الثانية فهو قرينة على تعيين التهديد والتحذير .

والملاحظ أخيرا أن التعجب والتعجيب تأدى بالهمزة مفردة او داخلة على نفى نحو : ألم ، وكيف ، وما داخلة على اللام متصلة بضمير المتكلم أو المخاطب عموما : مالى مالك ما لكم أو داخل عليها حرف جر نحو : لم ، وكذلك أنى . ودلالات هذه الأدوات مختلفة تماما ولذا تأتى الأداة منها فى سياق يقتضيها وحدها لأنها تفيد درجة خاصة من التعجب ولونا من ألوانه . كقوله تعالى « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » (١٠) فهو تعجيب منهم ومن حالهم المتناقضة ذلك ألم تر كلمة تقال عند التعجب من الشىء وعند تنبيه المخاطب (١١) أما بقية الأدوات فتدل على تعجب خاص بجهة من جهات الفعل كالسبب فى « لم » والحال والهيئة فى كيف وهكذا كقوله تعالى على لسان ابراهيم « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر

---

(٧) راجع الأساليب ١٥٣ .
(٨) يونس ٧٣ .
(٩) محمد ١٠
(١٠) النساء ٤٤ .
(١١) راجع البحر ٣/٢٩٧ والنهاية ٢/١٧٨ .

ولا يغنى عنك شيئ » (١٢) وقال تعالى « كيف تكفـــرون بالله وكنتم أمواتا فاحياكم » (١٣)

والواقع أن اكتشاف التعجب وبخاصة فى أساليب الانكار يـدن أحيانا ــ لدرجة الخفاء ذلك أن التعجب فى بعض حالاته لون من ألو ن الانكار والقرينة هى التى توضحه وبخاصة اذا جاء فى سياق الاسلوب ما يثير التوتر والتعجب كأفعال المخاطب المتناقضة أو أقـــواله ، أو ما جرى على غير قانون العقل ، أو ما خفى سببه وطغى أثره ، أو ماجاء على السنن الالهية خارقا لا يعرف كنهه ثم تدرك أثاره الجليلة كقوله تعالى « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ٠٠ الآية »(١٤) ومن هنا نجد تفاوتا فى أقوال العلماء رحمهم الله فقوله تعالى ــ مثلا ــ فى سورة ن « ما لكم كيف تحكمون » توالى انكار عند أبى حيان وتعجب واستبعاد عند أبى السعود وهكذا (١٥) وفى قوله تعالى على لســـان المعرض يوم القيامة وقد حشر أعمى « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ٠٠٠ » (١٦) فهو مساءله كما قال الطبرى أو استفهام حقيقى عن السبب أو الجرم الذى استحق به ذلك لأن المجرم ظن أن لا ذنب له وتبعه أبو حيان ويبدو أن الاستاذ فودة رتب على قول الطبرى وأبى حيان بخفاء السبب وفيه معنى التعجب فقال بالتعجب (١٧) والواقـــع أن القضية أكبر من ذلك وهذا ما نقدمه من خـــلال أغـــراض نبـــدأ باستفهامات المعذبين لاقتضاء آية طه ذلك ٠

---

(١٢) مريـم ٤٢ وراجع البحر ٦/٢٧٩ وأبا الســعود ٧/٢٣٣ ٠
(١٣) البقرة ٢٨ ٠
(١٤) الفرقان ٤٥ ٠
(١٥) الآية ٢٦ وراجع البحر ٨/٣١٤ وأبا السعود ٩/١٧ ٠
(١٦) طه ١٢٥ ٠
(١٧) راجع الطبرى ١٦/١٦٦ والبحر ٦/٢٨٧ ٠

أستفهامات المعذبين

والقول بالتعجب فى آية طه معالجة جزئية ، ذلك أن يوم الحشر فى التصور الاسلامى مهول رهيب وللمجرمين الذين ذاقوا فى البرزخ ألوانا من العذاب لهم فى هذا اليوم العسر الذلة والمهانة فهم يحشرون على هيئة مهينة مزعجة « على وجوههم عميا وبكما وصما » (١٢) ليكون كل عذاب لهم فيه الفجأة والبغتة فكل حدث لمن حرم هذه الادراك يمثل مفاجأة حرمانا من حواسهم التى تهديهم فى هذا الزحام الناري والآيات القرآنية توضح كيف يحشرون :

« الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم » (١٩) « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » (٢٠) « ونسوق المجرمين الى جهنم وردا » (٢١) « واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفله من هذا » (٢٢) « ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة » (٢٣) « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » (٢٤) من آيات متكاثرة تبث الهول والفزع فالسؤال فى الآية لم حشرتنى أعمى ليس استفهاما عن السبب الحقيقى لأنه — كما ذكر الطبرى وأبو حيان — ظن أنه لا ذنب له بل هو ضلال من نوع ضلاله فى الدنيا كما قال سيد قطب ، وسؤاله هنا : احتجاج بالباطل ، ومماطلة فى الخطاب (٢٥)

---

(١٨) الاسراء ٩٧ ٠ (١٩) الفرقان ٣٤ ٠

(٢٠) طه ١٠٢ ٠ (٢١) مريم ٨٦ ٠

(٢٢) الأنبياء ٩٧ ٠

(٢٣) النحل ٢٥ (٢٤) آية الاسراء ٩٧

(٢٥) راجع الطبرى ١١٢/١٥ والبحر ٢٨٧/٦ ، والنيسابورى ٩٥/١٥ واليوم الآخر فى ظلال القرآن ٢٦١ ٠

يشى باليأس والتواء النفس وسيطرة الحيرة ثم انه أذل من أن يتعجب وأضأل من أن يسأل فأوزارهم على ظهورهم وعذابهم بدأ منذ أدرجوا فى أجداثهم انه ــ سؤال يعرف جوابه حتى عند قبض روحه ، والنظر فى آيات المعذبين ــ يوم القيامة ــ وأحاديثهم فى الحشر والحساب والنار سواء وجهت للملائكة أم أهل الأعراف أم المؤمنين على الاطلاق أم أحاديثهم بعضهم مع بعض أم مع أنفسهم أم كانت جؤارا ونداء أم أمانى غاربة كل ذلك يصور الضياع والذل والحسرة واليأس والندامة ولم يرد على ألسنتهم من أساليب الاستفهام الا ما يقرب من ثلاثة أما الباقى فجاء على ألوان من أساليب النداء والتمنى والندب والحسرة كما كثرت الاستفهامات التقريرية على ألسنة الملائكة والمؤمنين احقاقا لحق ماطلوا فيه وازهاقا واقعيا الباطل فى يوم يذل فيه البـــاطل وأهله (٢٦) .

مع المؤمنين :

وقد نزلت آيات شريفات تقوم سلوك المؤمنين وتعجب من أفعالهم التى لا ينبغى أن تكون ، لكن علينا أن نبين ــ بتوفيق الله ــ وجـــه الحق فى استفهامات وجهت الى النبى صلى الله عليه وســـلم وتأولها بعض الناس على غير وجهها من ذلك قول الله تعـالى لنبيه صـلى الله عليه وسلم فى شأن صنف من المنافقين استأذنوا فى القعود عن الجهاد واعتذروا بأعذار واهية ومنهم من لم يعتذر فى غزوة تبوك « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (٢٧) جعله أبو السعود انكارا (٢٨) ورأى ابن المنير أن الله تعالى قـد أجل

---

(٢٦) راجع اليوم الآخر فى ظلال القرآن الفصل الرابع ١٦١ـ٢١٣ .
(٢٧) التوبة
(٢٨) أبو السعود ٣/٦٨ .

نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ونقل أن من لطف الله بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ردا على الزمخشرى الذى خانه الأدب مع سيد البشر حين قال فى : عفا الله : كناية عن الجناية لان العفو رادف لها ، وأول الاستفهام بقوله « هلا استأنيت بالاذن » (٢٩)

وقال أبو حيان : كلام الزمخشرى مما يجب اطراحه فضلا عن أن يذكر فيرد عليه وارتأى رحمه الله : رأى أبى عبدالله المنبوذ بنفطويه بأنه قد ذهب ناس الى أن النبى الكريم معاتب بهذه الآية وحاشاه من ذلك بل له أن يفعل، وألا يفعل حتى ينزل عليه الوحى فى كثير من شئونه، وقد اختار أيسر الأمرين حين أذن للمتخلفين تفضلا فأبان الوحى أنه لو لم يأذن لأقاموا على النفاق وعلى ذلك فعفا الله عنك : استفتاح كلام وليس عفوا عن ذنب بل جاء على منهج العربان فى قولهم : أصلح الله الأمير وقوله صلى الله عليه وسلم : عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق فهى صيغة دعاء (٣٠) ويؤكد هذا الرأى اختلاف العلماء فى تقدير متعلق الأذن أهو الخروج أى فى الخروج لما يترتب عليه من مفاسد كقوله « لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا » أم القعود حتى يعرف ذوو الأعذار والظاهر الأول ولقد أومأ أبو السعود الى كلام الكشاف وخفف من حدته وجعله انكارا ونقل عن سفيان بن عيينه ، انظروا الى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو . وكذلك الآية الشريفة « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك » (٣١) جعله الزمخشرى زلة (٣٢) وابن المنير رفقا وشفقة وتنويها بقدره ولمنصبه صلى الله عليه وسلم بأن يراعى مرضات

---

(٢٩) الكشاف والانتصاف ١٩٢/٢ .
(٣٠) البحر ٤٧/٥ .
(٣١) التحريم ١
(٣٢) الكشاف والانتصاف ١٢٥/٤ .

أزواجه بما يشق عليه فالتحريم محمول على هذا الوجه • وذكر أبوحيان أنه سؤال تلطف والنداء يايها النبى نداء اقبال وتشريف وتنبيه بالصفة على عصمته مما يقع فيه من ليس بمعصوم وهو عند الطبرى عتاب ،وعند البقاعى عتاب لأزواج نبيه صلى الله عليه وسلم فى صورة عتابه لأنه أبلغ وفقا به لأنه يكاد من شفقته أن يبخع نفسه الشريفة رحمة بأمته وأحرى الآراء بالقبول رأى أبى حيان وما يقرب منه كابن المنير والبقاعى ، وعلى هذا فقول بعض الباحثين ان الاستفهام فى الأسلوبين تعجيب وعتاب مجازفة (٣٣) •

وفى التعجيب من أمر المؤمنين تقويما وتربية السلوك الخير جاء قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٣٤) والآية فى المؤمنين كما رجح الطبرى فقد قالوا لو عرفنا أحب الأعمال الى الله لعملنا بها ، ثم لما عرفوا قصرت طوائف منهم مع تفخيم النداء ووسمهم بسمة الايمان وهذا يضعف قول الزمخشرى انها فى المنافقين ووصفهم بالايمان تهكم بليغ وبالموازنة مع قوله تعالى فى أحبار اليهود « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » (٣٥) نلحظ :

أن الخطاب مع المؤمنين أعنف ذلك أنه تقويم للسلوك وتربية للقيم وصولا الى الكمال المنشود ومع ذلك لم يصل حد الغضب ثم ان الانكار والتعجيب أنصب على السبب كناية عن انكار الفعل من باب أولى قوة فى الدلالة • وعلاج السبب يحول دون وقوع فعل ما والنداء والتنبيه والخطاب بوصف الايمان يجعل للانكار والتعجيب وقعا

---

(٣٣) راجع فى الآية الطبرى ١٠٢/٢٨ والكشاف والانتصاف ١٢٥/٤ والبحر ٢٨٩/٨ ونظم الدرر ١٧٩/٢٠ ـ ١٨٠ •

(٣٤) الصف ٢ (٣٥) البقرة ٤٤ •

خاصا وكأنه تعريض بهم لأن من شأن المؤمن أن يصدق فعله قوله وقد ترقى الأسلوب من استفهام تعجبى الى تعجيب محض فى قوله « كبر مقتا » وهى صيغة عريقه فى افادة التعجيب البالغ وعبر بالمقت وهو أشد البغض ، وكونه : عند الله ، بلفظ الجلالة يبلغ بالمعنى مداه ، وتكرار الجملة الثانية « أن تقولوا ما لا تفعلون » مع تكرار المواجهة ، وتقديم المقت عند الله على الفاعل « أن تقولوا » لا لتشوف اليه النفس فحسب كما قال البقاعى بل لزلزلة النفوس ونفضها نفضا يغسل أكدارها ويرجع صفاءها .

ونسج الآية كثرت فيه حروف المد والغن بالميم والنون والتنوين ولعله والله أعلم دال على شدة التوبيخ ورفع درجته مع التعجيب على حد فقسا ليزدجروا ...

ولذا فهم منها أبو حيان التلطف فى العتب بل هو عتب صريح سببه الرحمة واللطف أما آية الأحبار فقد دخلت الهمزة على الفعل مفيده انكار التربيخ والتعجيب والتقريع وصعدت الجملتان الأولى بواو المعية كما يرى السبكى والثانية بواو الحال وايقاع « تنسون » على أنفسكم مع التعبير عن الترك بالنسيان تعييرا لهم وبيانا لغفلتهم المفرطة لأن فعل المعصية مع النهى عنها أفحش لأنها تجعل حال الانسان كالمتناقض وهذا التناقض الحاد هو الذى ولد هذا التعجيب الذى لم يذكره السبكى صعدت الجملتان التوبيخ والتقريع والتعجيب اذن من ظلمات نفوسهم وجسارة طباعهم وتعطل ادراكهم ولذا خلص الاستفهام الثانى للانكار والتبكيت انكار لعدم التعقل وترك التدبر ولذا كثرت المقاطع المغلقة ولم تكثر حروف المد كثرتها فى أية المؤمنين (٣٦) .

---

(٣٦) راجع فى الآيتين : الطبرى والنيسابورى ٢٠٤/١ ، ٢٧٤ ، ٥٦/٢٨ ، ٥٩ ، والكشاف ٢٧٧/١ ، ٩٧/٤ والبحر ١٨٧/١ ، ٢٦١/٨ وأبا السعود ٩٧/١ ، ٢٤٢/٩ ونظم الدرر ٢٠/٥ ـ ٧ وعروس الأفراح ٣٠٤/٢ .

وقريب من آية الصف آية النساء ٧٧ وقد نزلت فى شأن طائفة من الصحابة رضوان الله عليهم رغبوا فى أن يأذن لهم فى قتال المشركين. فلم يأذن لهم وهم بمكة ، فلما قام المجتمع الاسلامى فى المدينة وأمروا بالقتال خاف بعضهم لاشكا فى الدين ولا رغبة عن الجهاد بل نفورا من الاخطار جبلة بشرية وربما كان هذا بدء حركة الجهاد الكبرى فهى خشية لم تمنع من القتال المستبسل وبمثل هذه الآيات كان تصحيح العقيدة واستقامة الايمان • قال تعالى « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا » (٣٧) •

والأسلوب « ألم تر الى : نص فى التعجيب وموطنه قوله فلما كتب عليهم القتال •• الآية خشيتهم وكرههم له •

وقد وجه التعجيب الى الجميع مع خشية بعضهم ايذانا بأنه ما كان ينبغى أن يصدر من أحدهم فهم مجتمع متماسك وبنيان مرصوص يضعف بضعف بعضه ، وأنظر الى تصوير التهكم باذا، والتعبير بالخشية من الناس مضارعا وتشبيهه بالخشية من الله أو ترقيا الى ما هو أشد من خشية الله التى هى مثل فى الالتزام وقدر بعضهم فى « كخشية الله » أى مشبهين لأهل خشيه الله وان كان بعيدا عن روح التهكم •

كما نلحظ أنه عبر عن الخوف وهو خاص بالمكروه بالخشية وهى خوف مع تعظيم اذ الاشراك غير أهل للتعظيم ثم حكى قولهم « ام كتبت

---

(٣٧) النساء ٧٧ •

(٣٨) أبو السعود ٢/٢٠٤ •

علينا القتال » لا اعتراضا منهم ولا انكارا لحكمه تعالى بل ولا تعجبا كما يرى الأستاذ خوده بل هو كما قال أبو السعود على طريق تمنى التخفيف والتيسير (٣٨) .

وازن هذه الخشية على طريق التشبيه لا التحقيق بما ورد فى شأن المنافقين « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » عبر بالرهبة المؤكدة فى جانب المنافقين لأن قلوبهم خربة فوقفوا عند الظاهر (٣٩) فهنا انتكاسة نفسية وانخلاع من الرعب وهناك تشبيه متهكم وتحذير خفى من النفاق لأن المسلم من أسلم وجهه وقلبه وفوض وابتغى ما عند الله .

وقريب من آية الأحبار قول الله تعالى فى شأنهم وشأن اليهود « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » (٤٠) وقد جاءوا يحكمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زنا رجل محصن منهم ، وقيل فى قتيل بين بنى قريظة وبنى النضير وفى الآية تعجيب شديد من حسابهم وهو تحكيمهم من لا يؤمنون به ولا بكتابه طمعا فى التيسير والترخص فى حدود الله . جريا وراء الهوى .

والجملة الحالية صعدت الانكار والتعجيب اذ فى التوراة حكم الله والجملة التالية تأكيد للاستبعاد والتعجيب أى بعد معرفة الحكم الالهى الحاسم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم يتولون بعد هذا الحكم الالهى العادل وتأمل : « من بعد ذلك » وجاءت ثم مبينه تفاوت حاليهم من الاقبال على التحكيم ثم الفرار والهرب وهذا مؤدى التراخى الرتبى والزمنى معا ، ولذا جاءت الجملة الثالثة قاطعة مؤكدة نفى ايمانهم واسمة لهم بالعتو والمكابرة محقرة من شأنهم باسم الاشارة

---

(٣٩) راجع أسرار التكرار ٢٠٣ .

(٤٠) المائدة ٤٣ .

للبعيد تمييزا لهم أكمل تمييز كما أنها تومىء الى علة الاعراض والتولى وهو عـــدم الايمان (٤١) .

الاستفهام فى خطابات المخلوقين لله تعالى

وقد مر من ذلك « لم كتبت علينا القتال » وأنه تمن للتيسير ومن ذلك قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفـة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون » (٤٢) فقولهم : أتجعل فيهـا من يفسد فيها » جعله الزمخشرى تعجب وأيده فوده ونقل أبو حيـان مجموعة من الآراء كالتعجب ، والاستعظام والتقرير والاســتفهام المحض وهى بعض ما أورده الرازى فى تفسيره فقد زاد الدعاء أو أن الأية مختصه بملائكة النار أو من هم جند ابليس أو أن الاســتفهام حقيقى وهو مروى عن أبى مسعود وناس من الصحابة واستحسن أبو حيان رأى أحدهم وهوان الاعتراض انما كان من ابليس وهو فى جملة الملائكة وأن التسبيح والتقديس كان من الملائكة بدون ابليس فانقسم الجواب قسمين كانقسام الجنس صنفين ، وهو غريب لا سند له ومن جمع بين الأقوال فى قول واحد أبو السعود فجعله تعجبا واستكشافا لما خفى عنهم واستخبارا يزيح شبههم ويرشدهم كسؤال المتعلم ، وأعجب منه النيسابورى فلخص الرازى جامعا بين ما ذكر من آراء فجعلـه تعجبا واستعظاما وتقريرا وطلبا لوجه الحكمة ولا أدرى كيف تجتمـع هذه المفاهيم فى أسلوب واحد ، والقول بالتعجب رده الطبرى قبــل ذلك بأنه لا دليل عليه وأيد القول بأنه استخبار واستعظام بمـا روى عن جمع من الصحابة كابن عباس وابن مسعود وقتاده : ان الله جــل ثناؤه أخبرهم أنه جاعل فى الأرض خليفة يكون له ذرية يفعلون كذا كذا فقالوا أتجعل .. ويكون استخبارا عن حالهم عند وقوع ذلك ومسألتهم أن يجعلهم الخلفاء حتى لا يعصوه وهو رأى طيب ومثله رأى الزركشى

---

(٤١) راجع البحر ٣/٤٩٠ وأبا السعود ٣/٤٠ .

(٤٢) البقرة ٣٠ .

والسيوطى أنه استرشاد وهو أدق (٤٣) ومن قول موسى عليه السلام فيما حكى القرآن«واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وايای اتهلكنا بما فعل السفهاء منا » (٤٤) فهو دعاء أى لا تهلكنا (٤٥) .

وقد جاء سؤال على لسان ابراهيم عليه السلام « رب أرنى كيف تحيى الموتى » وقد سبق صفوة القول أن أى سؤال من المخلوقين لله تعالى ليس فيه شيء من التعجب بل كان حقيقيا أو استرشادا أو دعاء ولم أعثر على رابع وذلك ما يتناسب ومقام الألوهية الجليل .

الهمزة وفعل الرؤية

وقد سبق دخول الهمزة على الرؤية المتيقنة (ألم تر — ألم تروا — ألم يروا) معداة بالى غالبا وقد كثرت أساليبها فى القرآن ونمكن أن نثبت أهم الأغراض التى جاءت فيها الأساليب :

١ — التنبيه والتعجيب ، واثارة التأمل والتدبر فى مظاهر خلق الله ، وآثار قدرته وآياته المبثوثة فى الكون وأكثرها فى شكل لوحات باهرة وزعت أجزاؤها فى تناسق ودقة معجزة كقوله تعالى « ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد .. الآية (٤٦)

« ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ... » (٤٧)

---

(٤٣) راجع فى الآية الطبرى ١٦٥/١ والنيسابورى عليه ٢١٦/١ والكشاف ٢٧١/١ والرازى ١٥٩/٢ وما بعدهما والبحر ١٤٢/١ وأبا السعود ٨٢/١ والبرهان ٣٣٨/٣ والاتقان ٨٠/٢ .

(٤٤) الأعراف ١٥٥ .

(٤٥) راجع الرازى ١٦٩/٢ والبرهان ٣٤١/٣ والاتقان ٨٠/٢ .

(٤٦) النور ٤٣ (٤٧) لقمان ٢٩ .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ... » الآيتان (٤٨)

« أو لم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن الا الله » (٤٩) .

« أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن » (٥٠) .

٢ ــ جاءت فى التعجيب من قهر الله وانتقامه المحيط ممن جحد وأنكر واستكبر وهذا الانتقام قد يعجب من وقوعه ، ويعدد ألوانه ، ويهدد من يسير على نهجهم .

كقوله تعالى « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » (٥١) « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ... الأيات » (٥٢) « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ... الأيات » (٥٣) « أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن .. الأية » (٥٤)

٣ ــ التعجيب من المكذبين ، وسلوكهم ، ومواقفهم من الدعوة وأصحابها على مدى القرون : كقوله تعالى : « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ... الآية » (٥٥) فى النمرود « أرأيت الذى كفر بأياتنا وقال لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا » (٥٦) نزلت فى الوليد بن المغيرة أو العاصى بن وائل وهو الأشهر (٥٧) « أرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم

---

(٤٨) فاطر ٢٧
(٤٩) النحل ٧٩
(٥٠) الملك ١٩
(٥٥) البقرة ٢٥٨
(٥٦) مريم ٧٧
(٥٧) راجع الكشاف ٢/٥٢٢

على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » (٥٨) « أرأيت الذى ينهى عبـــدا اذا صـــلى أرأيت ان كان على الهـــدى أو أمر بالتقوى » الآيات (٥٩) والآيات تقبيـــح وتشـــنيع وتعجيب من أبى جهـــل وأحـــواله المكفرة ، وايذان بأنهـــا ، من الشـــناعة والغـــرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية فالفاعل عام مبالغة فى تجريم الفاعل وفظاعة الفعل ، ولا يجوز أن يكون الفاعل هو رســـول الله صلى الله عليه وسلم كالآيات التى سبقت الاستفهام اذ العبـــد فى الآية هو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن أبا جهل هدد فى ملأ من قريش أن يطأ عنق محمد ان رآه يصلى • فرأه فجاء ثم نكص حين أبصر أمامه خندقا من نار وهولا (٦٠) •!

٤ ــ التعجيب من أحوال المؤمنين ترقيه وتنقيه وتربية واعدادا وقد مر • (٦١)

موازنات :

جاء التعجب أو التعجيب بالهمزة وكيف وما الاستفهامية مدخوله لحرف جر نحو بم ولم أو داخلة على اللام الجارة لياء المتكلم أو كاف المخاطب مطلقا نحو ما لى وما لكم • وقد سبق استعمال الهمزة ونذكر ما سواها فكيف كقوله تعالى « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » (٦٢) وأنى كقوله تعـــالى « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » (٦٣) ومما كقوله تعالى « فما لكـــم فى

---

(٥٨) الجاثية ٢٣
(٥٩) العلق ٩
(٦٠) أبا السعود ١٧٩/٩ •
(٦١) راجع فى أســاليب الرؤية المعجم المفهرس ٢٨٠ وما بعدهـا •
(٦٢) البقرة ٢٨
(٦٣) الأنعام ٩٥ •
(٦٤) النساء ٨٨

المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا » (٦٤) وقوله تعالى « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء» (٦٥) ولا بأس من تحليل يسير لهذا التنوع الأسلوبى .

والهمزة للتعجب من الفعل ذاته ، وكيف وما بعدها خاص بجهة من جهات الفعل كالحال والسبب والمكان وهو أقوى فى افادة التعجيب وما معه من معنى كالانكار اذ التعجيب أو الانكار من الهيئة التى يكون عليها الفعل أو من سببه أو من مكانه كناية وبرهان على انكار الفعل من باب أولى ابلاغا وتصويرا ولذا يكون فى مقامات قوية مثيرة وان اختلفت الأساليب اختلافا يعين نوع الأداة .

تأمل قوله تعالى « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » قال ابن الشجرى والحال تشبه الظرف لأنها عبارة عن الهيئة التى يقع فيها الفعل فهو أنكار وتعجيب أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها كقولك أتطير بغير جناح ، وقل موجود لا ينفك عن حال وصفة ــ كما ذكر فى الكشاف ــ فهو انكار لوجود الكفر على طريق الكناية والبرهان .

واذا كان الانكار بالهمزة يؤذن باستحالته فى نفسه أو لقوة الصارف عنه فان الانكار بكيف أقوى وأبلغ فى ذات الأسلوب لهذه الكناية الدالة ، والحال : صعدت التعجيب بل أخرجت الكفر فى صورة المستحيل لوجود ما يحتم الايمان لا الكفر وأتى بالفعل مضارعا لان المتعجب منه هو الدوام على ذلك وقد قدر الزمخشرى وتبعه السكاكى وأبو السعود محذوفا هو العلم والحال الحقيقة تعلقت بها الجملة « وكنتم أمواتا فأحياكم » وما عطف عليها لاشتمالها على أفعال بعضها ماض وبعضها مضارع والتقدير « وأنتم عالمون بهذه الدلائل من

---

(٦٥) فصلت ٢١ .

الكفر » وأدرج فيه البعث مع أنهم منكرون له تنزيلا لهم منزلة العالمين لنصب الشواهد عليه لو أعملوا عقولهم ولم يرتض أبو حيـــان ذلك وجعل الحال « وكنت أمواتا فأحياكم » فقط على اضـــمار قد وقوله ثم يميتكم ابتداء اخبار ولذا غاير بحرف العطف ثم وبصيغة الفعـــل . والواقع ان صياغة الحال جاءت على النهج القرآنى من الاســـتدلال بالمشاهد على الغيبى وأعنى الاستدلال بالعدم وآنخلق الأول على البعث والاحياء الثانى أو انبات الأرض بعد موتها على البعث فالخلـق الأول ومقدورات الله فى الوجود من براهين القرآن على البعثوهذا يدعمرأى الزمخشرى (٦٦)

والتعبير « مال » قد يصور مع الأسلوب اثارة التعجيب الى مداه، وبخاصة حين يكون للألفاظ ظلال مديدة أو يتعانق التركيب مع صـــورة بيانية كقوله تعالى عن كفار قريش « فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » (٦٧) « فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين » (٦٨) والآية الأولى أتت بعد تساؤلات أصحاب اليمين للمجرمين : ما سلككم فى سقر ثم اعترافات المجرمين المطولة بأتهامهم وينتقل الأسلوب دون فاصل الى ذات المجـــرمين فى الدنيا فاذا كان حال المجرمين هكذا فما لهم معرضين ، والاستفهام عن السبب انكار وتعجيب من حالهم وهو الاعراض لغير سبب وهو تعجيب بالغ ، وقد جاء معرضين حال بعدها حال منها فهى حال متداخلة أبرزتهم فى تشبيه عجيب أى مشبهين حمرا أى وحشية وهى صورة نافرة سأخرة قافزة فقد صورهم بالحمر الوحشيه وهى أشد حيوان الصحراء نفارا

---

(٦٦) راجع فى الآية الأمالى الشـجرية ٢٦٣/١ والكشـاف ٢٦٩/١ والبحر ١٣٠/١ والمفتاح ٢١٤ وأبا السعود ٧٧/١ وحاشية الشهاب ١١٠/٢

(٦٧) المدثر ٤٩ ، ٥٠ .

(٦٨) المعارج ٣٦ ، ٣٧ .

ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب للابل فى سرعة السير بالحمر فى عدوها اذا وردت ماء فاحست ما يريبها والحمر فى دلالته القـــرآنية خاص بالوحشى منها دون الحمير الخاص بالمستأنس ، ثم ان هذه الحمـــر مستنفرة بذاتها حتى كأنها تطلب النفار من أنفسها لأنه من طبعها فاذا انضم الى هذا النفار الذاتى مثير مرعب خارجى هو القسورة : الأسد شديد القسر عظيم البطش أخرج أقصى نفارها خوف الموت انها تتحول مثلا للنفار الطائر اللاهث وقد سيطرت هذه الصورة على الاسـلوب حتى ما تجد كفارا معرضين بل حمرا نافرة هلعة ذما وتهجينا وتعجيبا(٦٩) والأية الثانية تسمهم بالكفر ذما وتعجب من اعراضهم واهطاعهم وهو «مهطعين» لفظ مصور لاسراعهم مع مد الاعناق وادامة النظر تعجبـا فهو تعجيب من تعجبهم الذى صور على نحو يثير التعجب أيضـــا ثم هو دال على اعراضهم الخاص واندهاشهم فلم يتحروا الميامن التى يحرصون عليها نزولا على أعرافهم بل توزعوا فرقا وشراذم تتجمع عن اليمين وعن الشمال (٧٠) .

وكذلك أنى كما سبق فى قوله تعالى « أنى يحيى هـذه الله بعد موتها » وقد جاء على لسان زكريا ومريم عليهما السلام وما اختلف فى تأويله العلماء من قول زكريا « رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتي عاقر » (٧١) وفى سورة مريم « ربى أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا » (٧٢) ومن قول مريم « رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » (٧٣) وفى هذه الأساليب يرى

---

(٦٩) راجع فى الآية أبا السعود ٦٢/٩ ونظم الدرر ٧٧/٢١ .
(٧٠) راجع فى الآية أبا السـعود ٣٤/٩ ونظم الدرر ٤١٢/٢٠ .
(٧١) آل عمران ٤٠ .
(٧٢) مريم ٨ .
(٧٣) آل عمران ٤٧ والآية مع تغيير فيها فى مريم ٢٠ .

الزمخشرى أن الاستفهام للاستبعاد ورده أبو حيان بشأن زكريا عليه السلام لأنه لو كان استبعادا لما سأله بقوله « هب لى من لدنك وليا» قبل ذلك ونقل عدة آراء يدور أكثرها على الاستفهام الحقيقى ، فهو سؤال عن الكيفية أو أنه استعلام أو استعلام على سبيل الاستعظام لقدرة الله تعالى ، أو استعلام مراد به ادعاء ليقويه على الانجاب ، ولم يذكر فيه تعجبا ويرى أبو السعود أنه استعظام لقدرته تعالى وتعجيب منها واعتداد بنعمته عز وجل لا استبعادا والواضح أنه استفهام على سبيل الاستعظام وجملتا الحال صعدت معنى الاستعظام لأن ذلك بعيد عادة ولذا فما ذكره فودة من أنه تعجب واستبعاد رده العلماء قبل كما أن التعجب لا يصدر من عبد لربه (٧٤) .

بلوغ التعجيب مداه :

وحين يراد البلوغ بالتعجيب والتنبيه الى ذروته تجد أن الأساليب تدل بمعانيها وتراكيبها ونظمها أو كيفية صياغتها مع الجمع بين أداتى استفهام دالتين على التعجيب وذلك فى أساليب معدودة (٧٥) كقوله تعالى موجها الى هذه الآية « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا » (٧٦) وهى آية من آثار سنن الله الكونية وهى دوران الأرض حول نفسها فى مواجهة الشمس ، ولو شاء ربك ما كانت هذه الآية ولا سببها فأمسكها واسكن الظل وهى كناية — بالمفهوم العلمى — عن انتهاء الحياة ، ثم ان امتداد الظل فى بطء وجه النهار وقبضه آخره لايكاد يدرك

---

(٧٤) راجع فى الآيات البحر ٢/٤٥٠ وأبا السعود ٢/٣٣ وأساليب الاستفهام ١٥٧ .

(٧٥) المعجم المفهرس ٢٨٠ .

(٧٦) الفرقان ٤٥ .

الا بامعان وملاحظة خاصة • وهذا توجيه الى بديع صنع الله دلالة على الوحدانية الحقة ، والابداع فى الصنع قابله بلاغات الأسلوب من كثرة المتقابلات من المد والقبض ، والظل والشمس واحركة المفهومة والسكون المنصوص عليه ، والالتفات من غيبة الى حضور مع تكرار فعل «جعل» الدال على التصوير والابداع والآية ضمن آيات ترسم مشاهد عريضة معجبة لآثار قدرة الله فى الكون •

ووازن بين الآية السابقة وآية النحل فى الظل أيضا « أو لم يروا الى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون » (٧٧) ويتفيأ ظلاله : يرجع شيئا فشيئا من جانبى الأشياء مدا وقبضا وأثبت لجانبى الأشياء يمينا وشمائل كما أثبت للظل سجودا وبديع التصوير أن الظل واقع على الأرض التى يكون عليها السجود وهو الخضوع رشحه بقوله وهم داخرون فمنح الظل للأشياء حياة وجسا هو الدخور بمعنى الانقياد والاستسلام ثم ان الآية عالجت الموضوع بايجاز وانضم اليها آية سجود الخلق لله تعالى فى معرض الرد على المشركين فى تعديد الآلهة فكأن الظل هنا استثمر فى غرض آخر ومن هنا لم تأت كيف بل رأى بعض العلماء أنه استفهام انكارى أو توبيخى أو تعجيبى من اتخاذهم شريكا لمبدع هذه الآيات أو للاعتبار (٧٨) ولا مانع أن يكون للتعجيب والتوبيخ والاعتبار وقد يبلغ التعجيب والتهديد مداه فى مثل ذلك من اجتماعى أدائى استفهام تعجيبى كآية الفيل وآية الفجر (٧٩) وهذه النماذج دالة على ما وراءها •

---

(٧٧) الآية ٤٨

(٧٨) راجع البحر ٥/٤٩٦ وأبا السعود ٥/١١٨ •

(٧٩) وراجع فى الآيتين أبا السعود ٩/٢٠٠ ، ٩/١٥٥ •

الاستفهام بمعنى الأمر :

ودلالة الاستفهام على الأمر يعطى لونا من الاثارة والتشويق ، وسياسة النفوس والتأثير فيها • واشراكها فى عملية الاقتناع،فهو يزيد على الأمر الصريح بصيغه المعهودة هذه المعانى الاضافية ، ولذا كانت له مقاماته الخاصة ، من ناحية ومن ناحية أخرى ، يمثل قمة الطلب ، ان صح التعبير ، ومن هنا فغالبا ما يسبقه فى النســـق الأمر الصريح ومن أساليبه :

الدعوة الى الاسلام كقوله تعالى « فان حاجوك فقل أسلمتوجهى لله ومن اتبعن ، وقال الذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فانأسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (٨٠) وذلك بعد شهادة الله بالوحدانية وتقرير أن الدين عند الله الاسلام قال الامام الرازى المقصود منه الأمر قال النحويون : انما جاء بالأمر فى صورة الاستفهام لأنه بمنزلته فى طلب الفعل والاســـتدعاء اليه الا أن التعبير به فائدة زائدة وهى أن المخاطب معاند بعيد عن الانصاف • لأن المنصف اذ ظهرتله الحجة لم يتوقف فى قبولها ومع أن الامام الرازى كأبى حيان وأبى السعود نقل عن الكشاف (٨١) تحليله البلاغى انفرد بفكرة الانصاف والعناد وظهور الحجة وهى أثر من أثار تعمقه العقلى ولذا لم يوف جانب الوجدان حقه كما أن قاعدته ليست مطردة بل ان الأساليب قد تفيد ألوانا من المعانى وظلالها ليس فيها عنـــاد المخاطب وقال تعالى حاكيا عن سحرة فرعون : « فجمع الســـحرة لميقات يوم معلوم ، وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع الســـحرة ان كانوا

---

(٨٠) آل عمران ٢٠ •

(٨١) راجع الكشـــاف ٤١٩/١ والرازى ٢١٣/٦ والبحر ٤١٣/٢ وأبا السعود ١٩/٢ •

هم الغالبين » (٨٢) قال الرازى نفسه : المراد انهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين » والاسلوب عند أبى حيان : استبطاء مقصود منه الاستعجال • ويفهم منه الأمر وعند أبى اسعود : استبطاء وحث جاء الأمر فى صورة الاستفهام ليمثل رغبة جارفة يلعب فيهـــا التعصـــب القومى دورا ولذا صـــيغ الفعل « قيل » كان الحث على الاجتماع انداح فى الوادى على كل لسان (٨٣) •

ومنه قول المؤمن فى الجنة لمن معه عن قرينه الذى كان فى الدنيا ينكر البعث « قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سوة الجحيم » أى تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم ذلك القرين ، وفهم الرازى من صياغة الفعل أنه « تكلف أمرا اطلع معه لأنه لو كان مطلعا بلا تكلف لم يكن الى اطلاعه حلجة فلذلك قال بعضهم أنه ذهب الى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها الى النار» ولذا قدر الكشاف قبله مفعولا أى مطلعون اياى » (٨٥) والحق أن لا تكلف هناك وأن لا حجاب يحجـــز الرؤية والصوت بين الجنة والنار ثم ان القراءات فى مطلعـــون تدل على أن صياغة الخبر ملائم لمعنى الاستفهام وهو اثارة التشويق والأمر بلطف وتودد •

ومنه لآل داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » (٨٦) فهو أمر يتودد وامتنان على المؤمنين وقد بسط هذا المعنى فى سورة سبأ « وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير » الآية ١٠ ، ١١ •

---

(٨٢) الشعراء ٣٩ ، ٤٠ •
(٨٣) راجع الرازى ١٣٣/٢٤ والبحر ١٥/٧ وأبا السعود ٢٤٢/٦ •
(٨٤) الصافات ٥٤/٥٥ •
(٨٥) راجع الرازى ١٣٩/٢٦ والبحر ٣٦١/٧ وأبا السعود ١٩٢/٧ •
(٨٦) الأنبياء ٨٠

ثم لما عدد النعم وأكثرها خاص بآل داود أمرهم صراحة بالشكر « اعملوا آل داود شكرا » (٨٧) ودخول هل على الجملة الاسمية فى هذه الأساليب أدل على طلب الحدث (٨٨) مع وضوح هذا عند البلاغيين ندفع البحث خطوة لنعقد موازنة بين قوله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسم لأهل الكتاب « أأسلمتم » التى سلفت وبين قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بعد آية المعاجزة فى سورة هود « فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون » (٨٩) والضمير لكم ، بالجمع للمؤمنين بقيادة النبى الكريم جبهة واحدة وصفا كالبنيان المرصوص ، ومجىء الاستفهام بعد شهادة التوحيد أمر بالثبات على الاسلام ، والاخلاص فيه وهو من باب التثبيت والترقية الى معارج اليقين كما قال أبو السعود (٩٠) لأنه للمؤمنين المخلصين الذين محصهم البلاء والجهاد الطويل الصابر وهو أقوى من آية أهل الكتاب المدنية « أأسلمتم » وان كان الفعل ماضيا تبليغا وحكمة فى الدعوة وترغيبا فيها ثم اننا نلمح فى هذا الماضى مع ما سبق الماحا من وجه آخر فيه اعجاز وهو أن طبيعة أهل الكتاب من التعالى وبخاصة اليهود من الحقد الأبدى يجعلهم ولا مستقبل لهم فى الاسلام على العموم فأجابتهم غير محققة « فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ » أى لا تبال بهم فالله مجازيهم وقد أديت ما عليك ، ولكل مقام مقال .

---

(٨٧) الآية ١٣.

(٨٨) وراجع فى آية الأنبياء : الطبرى ٤١/١٧ والبحر ٣٣٢/٦ وأبا السعود ٨٠/٦ وفى آية سبأ البحر ٢٢٦/٦ .

(٨٩) الآية ١٤ (٩٠) ارشاد العقل السليم ١٩٢/٦ .

استفهام التمنى :

والتمنى المفاد بالاستفهام يصور أملا قويا ، ورغبة عارمة ، وأمنية قافزة مسيطرة قال تعالى « وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل » (٩١) ووازن بين هذه الآية وبين قوله تعالى « ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » (٩٢) « هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (٩٣)

ومن آيات الشعراء التى فيها « قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين » وفى السياق « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » (٩٤)

ومن تهديد القرآن « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين » (٩٥) وتمنى المعذبين العودة الى الدنيا انما يعكس حسرة وندما وألما نفسيا لا يطاق ، والتمنى يعين الأسلوب كله على تصويره فهم يأتون بالمادتين « رد » و « كر » من الفعل المضعف الدال على الرد بقوة وسرعة ولذا لم يعبروا بالفعل نرجع أو نعود استطالة لزمنه ثم ان للمعذبين مواقف ، ولتمنيهم درجات ذلك أنهم حين يرون العذاب وأهواله قبل معاناة ويلاته تكون الرغبة جارفة قوية والأمل حيا حارا فى الهروب أو العود الى الدنيا كما عبر القرآن : « لما رأوا العذاب » الآمال السارية والأمانى المرتجفة يغذيها التجمع

---

(٩١) الشورى ٤٢
(٩٢) الأنعام ٢٧
(٩٣) الأعراف ٥٣
(٩٤) الآية ١٠٢
(٩٥) الزمر ٥٨ .

وينميها تعدد المؤمنين وبخاصة حين يرون عدوا لا يرحم انه تصوير غريب لقانون نفسى اجتماعى حيثما كان بشر • ولما كانت الفرصة لما تفت بعد فى نظرهم تقفز الى أذهانهم فكرة الشفاعة والشفعاء ، أما التمنى بليت : فحين واجهوا النار ووقفوا عليها بدء دخولهم فيها فهذ يكون التمنى حقيقة لأمر محال أوجد بعيد فهم بعد لم تخمد جذوة الآمال فيهم اما لو وهى اصلا للامتناع فكانها رجع صدى بعيد انهم يقولونها بعد أن مر بهم فنون من العذاب ففى آية الشعراء : فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون ••• » وجملة التمنى احدى جمل نقلها القرآن عنهم من قعر جهنم حيث الابلاس المطبق والعويل والندب والأنين ولذا كثرت حروف اللين والغنة وتمنيهم الكرة بلو أمل غارب وحلم عازب ونفثة مصدور وآخر مقطع فى جؤارهم انارى الرهيب ونعوذ بالله •

أما لو فى آية الزمر وقد جاء على لسان نفس مفردة رأت العذاب فيبدو والله أعلم — أن الانسان القاصى عن جمعه حين يرى الهول الأعظم يفقد عقله ويجثم عليه اليأس ويضخم خياله ما يراه فلو هنا أدل على تصويره من آية أداة أخرى ١٠

ثم ان محاولة الهرب أو البحث الجاد عن مفر جاء فى آيات القيامة « فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقر » والمفر : الفرار يأسا من العثور (٩٦) على طريق للفرار نفيا للفرار من باب أولى وفيه الحسرة واليأس والضياع •

---

(٩٦) راجع الرازى ٣٠/٢٢١ •

اســـتفهام التشـــويق :

وأسلوب التشويق أسلوب بلاغى نفسى راق تادى فى البـــلاغة بوسائل عدة من التقديم والفصل بين الجمل والابهام والتفســـير ، والتوضيح ، والترشيع وغيرها وفى الاستفهام جـاء بهـــل أكثر من غيرهـا .

والملاحظ فى أساليب التشويق :

ان هل تدخل على فعل يدعم التشويق بصيغته كما يصعده بمتعلقه والأفعال التى دخلت عليها هل : أنبىء ــ أدل ــ أتاك ــ والفعـــل الأول جاءت أساليبه مدخولا لهل بعد الفعل قل : خطابا للنبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بالتبليغ تمهيدا لشىء خطير من نحو قوله تعالى : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا » (٩٧) والأسلوب يبين المفـارقة الغريبة بين الاعتقاد الآثم الخاطىء والواقع المر الأليم ، والجناس هنا يومىء الى شىء من التهكم .

وقال تعالى « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » (٩٨) .

والأسلوب غريب الصياغة كثير الظلال فالآية بعد آيات وضحت سخرية أهل الكتاب من الاسلام وشعائره « واذا ناديتم الى الصـــلاة اتخذوها هزوا ولعبا » (٩٩) لاعتقادهم أن الاسلام شر محض لدعوته الى الايمان بالرسل ومنهم عيسى عليهم السلام وانظر الاستدراج :

---

(٩٧) الكهف ١٠٣ .

(٩٨) المائدة ٦٠ (٩٩) المائدة ٥٨ .

« هل أنبئكم بشر من ذلك » مجاراة لهم أى بمن هو شر فى الحقيقة مما تعتقدون شرا وهو خير محض وقال : مثوبة والأصل عقوبة لأن المثوبة فى الخير والعقوبة فى الشر على حد : تحية بينهم ضرب وجيع ، ثم استأنف جوابا عن سؤال مقدر وكأنه ترك منطقة ظل أو سكته تعين على الاستيعاب : والجواب : من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير : بتركيز الغضب والمقت لتكرار لفظ الجلالة وتهويل اللعن والغضب ثم مسخهم فى صورة أخس المخلوقات قردة وخنازير ومن أبخس منهم وهم عبدة الطاغوت وعلى هذا فالجملة الاستفهامية كانت مقدمة تستقطب الأذهان وتستولى على القلوب لصياغتها المثيرة ثم ان التشويق هنا داخل فيما يراد نقيضه تهكما وسخرية كجعل الخير شرا والعقوبة مثوبة ثم انصب عليهم الأسلوب كقطع العذاب اهانة وجزاء وفاقا وتعبيرا لجنسهم فهم فى الاثم سواء ثم تحقيق الشر بالكناية المصورة « أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » .

وهذا مناسب للتعبير بالفعل أنبىء اذ النبأ ما له شأن وخطر (١٠٠)

ونحوه « قل هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كذبون » (١٠١) والآية جاءت فى سياق حاسم يفصل بين القرآن العزيز وبين ما ادعاه الكفار من أنه سحر أو كهانة أو شعر وهى أمور لها أهلها بسماتهم الخاصة ورذائلهم التى يشمخون بها وطبائعهم غير السوية وهم بذلك مؤهلون لتنزل الشياطين نفثا للشر أو تأجيجا له .

والمراد بالشعر ما بعد منه عن آفاق الخير والحق والقيم الجميلة المبثوثة فى الكون وسحر الفن لخدمة الاسفاف ، وفى الآية مع الاثارة

---

(١٠٠) راجع أبا السعود ٣/٥٤ .

(١٠١) الشعراء ٢٢١ ـ ٢٢٤ .

والتشويق الى الخبر بيان للحق الدامغ ثم تبكيت لهم على أخلاقهم التى بدئت بالافك وختمت بالكذب .

وقال تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير » (١٠٢) .

والمنكر فى وجوههم معناه الانكار ، والتجهم الباسر انه يلتقط لهم صورة متحركة فريدة حتى يسمعون القرآن تربد وجوههم وتتلون وقد ركبهم شيطان الغضب «ويكادون يسطون» تصور تتابعا صوريا من غيظ غلاب واستعداد لوثب الجامح والبطش الأعمى والثورة النفسية الخرقاء على من يتلو القرآن عليهم والرد كان على المستوى المثير وأعلى « أفأنبئكم بشر من ذلكم » فى سرعة عتيدة جملة قصيرة بدئت بالهمزة قصيرة الحركة وفعل ينبىء بمآله من دلالة خطيرة لبيان ما هو أفظع وأكثر شرا من ثورتهم والأسلوب فى سرعته وحدته وسخريته يطوى حذفا كثيرا : جملة المعطوف عليه بالفاء ، وحذف الموصوف ابقاء على الصفة « شر » جبها لهم ولطما مع هذا التشويق الساخر لما لا يشوق اليه من شر : ثم يذكرها القرآن لفظة واحدة ، راجفة هائلة واذا كان غضبهم المتلمظ ـ على المؤمن ـ قطعا من نار على المجاز فالجزاء النار كلها حقيقة بشعة حاضرة معدة لهم اننا نحس بالتبكيت واللغضب والسخرية والوعيد رهيبة متداخلة انها سخرية المقتدر من هذه الدمى الفانية .

ولو وازنت هذه الآية بالتى قبلها لوجدت الأسلوب بعد هل أطول نفسا وأمد نسقا وفى مقامات الغضب لا يصل فى هوله وارعاده

---

(١٠٢) الحج ٧٢ وراجع أبا السعود ٦/١٢٠ .

الى أسلوب الهمزة وظاهرة القصر الملحوظ فى أسلوب الهمزة عن اسلوب هل نجده أيضا فى مقامات الرضا والتشويق « قل اؤنبئكم بخير من ذلكم (أى متع الدنيا) « الذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله » (١٠٣) وكذا جاء فعل أدل بعد هل ملحوظ فيه الطول . كقوله تعالى من نصح أخت موسى عليه السلام « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » وقال تعالى « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله .. الآية » (١٠٤) وفى الآية الأولى دل التنوين فى «بيت» على التنويع اى بيت كريم وجملة الحال « يكلفونه لكم » دالة على تجدد ذلك وانقطاعه وفق ارادتكم أما الجملة الثانية « وهم له ناصحون » بالاسمية فهو ثبات النصح أبدا صفة لازمة لهم والتشويق هنا من صيغة الفعل أدل لأن الدلالة هى الهداية مع الثناء على أهل بيت وهى صفات قل أن توجد فى حاضنة ، وكانت الأخت جد صادقة بل مقتصدة فى الوصف لأن الحاضنة هى أم موسى مفزعة الحنين . كما أن الأسلوب يشى بهذه المشاعر الأخوية البيضاء المفعم بها قلب الأخت .

وفى الآية الثانية تشويق مثير بعد هل بالدلالة ثم التركيز على ما يحبون ويتقنون وهو التجارة التى سيطت بدمائهم ثم هى تجارة خاصة لا تتعرض لمطالب الجسد والبطن بل تنجى وتنفذ من عذاب خالد ليصل التشويق مداه ومن منا لا يحرص على ذلك أكثر من حرصه على روحه وفيه حث واغراء واذا لم ينتظر منهم جوابا بل اندفع يطفىء الشوق النفسى بما شوق اليه ولذا لحظ الفراء فيه الامر لان الاغراء كما يقول الرازى أمر (١٠٥) .

---

(١٠٣) آل عمران ١٥ . (١٠٤) الصف ١٠ ، ١١

(١٠٥) راجع التفسير الكبير ٣١٦/٢٩ .

وهو رأى ـ وان كان ليس الاقوى ـ يدل على قوة التشويق والحث .

والتعبير « هل أتى » يمكن ببعض التسامح أن يقال انه يجىء على نحوين فى القرآن الكريم :

١ ـ ما أفاد التشويق والاثارة والتمهيد لغريب الانباء وهو بمثابة اعلان أو عنوان متير جذاب يستولى على الاهتمام اصغاء وافادة وفيه لون من التسريه والتسلية والعبرة للنبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكثيرا ما يدخل بدء قصة جليلة أو افتتاح حلقة مثيرة منها وفيها ما يعين الدعوة ويدفعها فى جهادها العاتى من ذلك قوله تعالى « هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ... » (١٠٦) « هل أتاك حديث موسى » (١٠٧) « وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب .. » (١٠٨) ونلحظ ايثار الفعل أتى على الأفعال القريبة فى الدلالة نحو جاء لان الاتيان هو المجىء بسهولة والمجىء أعم كما تلحظ ايثار لفظ حديث أو نبأ اشعارا بأنه من الأحاديث البديعة التى يتناقلها الرواه ويتنافس فى حفظها الوعاه فى كل مجتمع (١٠٩) ذلك أن لفظ الحديث وان كان عام الدلالة لكنه جاء فيما له خطر وقد أطلق على القرآن « فليأتوا بحديث مثله » وما يتناقله الرواة من العجائب مفرد أحاديث كقوله عن سبأ « وجعلناهم أحاديث » .

٢ ـ انه يأتى مفيدا للتقرير والتحقيق وتوجيه النظر الى ما فى الاسلوب من عبر تثير التأمل كقوله تعالى : هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود » وقريب منه وان لم يكن خطابا مباشرا « هل أتى على

---

(١٠٦) الذاريات ٢٤ .

(١٠٧) طه ٩ والذاريات ١٥ . (١٠٨) ص ٢١

(١٠٩) راجع الرازى ١٨٩/٢٦ ، ٢١٠/٢٨ وأبا السعود ١٤٨/٩ .

الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (١١٠) أما الآية : « هل اتاك حديث الغاشية » (١١١) فقد حكى فيها أبو السعود الرأيين ورجح أنه استفهام تعجيب مما فى خبره وتشويق الى استماعه ، وقال أبو حيان : انه توقيف لتحريك نفس السامع الى تلقى الخبر ، وقيل ان هل بمعنى قد (١١٢) وقوله الأول مضطرب لان التوقيف عنده يماثل التقرير وهو — رحمه الله — قد يطلق التقرير على ما يعد تشويقا كقوله ذلك أعنى التقرير فى الآية « هل أتاك حديث موسى » على أن مفهوم التوقيف عنده غير محدد فهو يتناول التقرير والانكار والتشويق والذم وغيرها مما يتنافى مع دقة المصطلح . وهل التى تفيد التقرير هنا قريبة من الهمزة الداخلة على لم والفعل يأتى فى التعبير « ألم يأتكم » وهو تعبير خاص بالكافرين دنيا وأخرى كقول الملائكة للكافرين الذين سيقوا الى جهنم زمرا : « ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم » (١١٣) وفى سورة الأنعام « ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا » (١١٤) وفيه تقرير وتبكيت .

وفى قوله تعالى « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم » (١١٥) ومثله الآية ٩ من سورة ابراهيم ، وفيه مع التقرير الترهيب من مصارع المكذبين « هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود » (١١٦) وفعل هل فى سورة البروج هى الوحيدة — فى هذه الأساليب — الدالة مع التقرير على الشدة والتعريض بالتهديد لمن

---

(١١٠) الانسان ١ (١١١) الغاشية ١

(١١٢) راجع البحر ٤٦٢/٩ وأبا السعود ١٤٨/٩ والرازى ١٥٠/٣٠

(١١٣) ١ (١١٤) الآية ١٣٠

(١١٥) التغابن ٥ (١١٦) ١٧

سار على درب الطغاه وقال البقاعى ذكره تخويف لقومه وتسليه له عليه الصلاة والسلام والتعريض أولى لأن الخطاب مباشرة مع النبى صلى الله عليه وسلم • (١١٧)

ودلالة هل هنا مناسبة لنسق السورة وايقاعها الغضب الشديد أما الهمزة فيما سبق فقد أفادت الانكار والتبكيت لأنها بعض دلالتها • وواضح منسبة الفعل أتى دون جاء فى هذه الأغراض تلاؤما لما فيه من المجىء بيسر وسهوله •

---

(١١٧) راجع الرازى ٣٠/١٢٤ والبحر ٨/٤٥٢ وأبا السعود ٩/١٣٩

النـــــــداء

وهو طلب اقبال المدعو على الداعى بحرف نائب منـــاب أدعو ، وأدواته الهمزة وأى ويا وأيا وهيا ووا ، فمنها ما ينادى به القـــريب : الهمزة وأى ، وباقى الأدوات لنداء البعيد •

والنداء لون من الخطاب ، ولا يكون الا فى آمر هام وحين يعظم هذا الامر ، يصحب النداء أساليب أخرى لها تأثير قوى كالأمر والنهى والاستفهام • وغالبا ما يتقدم النداء لضمان اهتمام المخاطب واصغائه والتفاته وتتبعه لما يلقى عليه ، قال تعالى « يأيها النـــاس اعبـــدوا ربكم » (١) « يا عباد فاتقون » (٢) « يأيها المزمل قم اللّيـــل الا قليلا » (٣) و « يا قوم استغفروا ربكم » (٤) •

وقد يتأخر النداء نحو : « وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنـــون لعلكم تفلحون » (٥) وكأن فيه اغراء على التوبة بهذا النداء الحبيب بهذا الوصف الشريف ، وقد تأتى بعده جملة خبرية كالاعـــلام بضرب مثل يعقبها جملة الأمر قال تعالى « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » (٦) « ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله »(٧) وقد يقتصر على جملة الخبر نفيا أو اثباتا دون أمر لبالغ أهميتها «ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » (٨) « يأيها الناس أنتـــم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد » (٩) وقد يأتى الاستفهام بعد

---

(١) البقرة ٢١ (٢) الزمر ١٦
(٣) المزمل ١ (٤) هود ٥٢
(٥) النور ٣١ (٦) الحج ٧٣
(٧) هود ٦٤ (٨) الزخرف ٦٨

النداء كقول ابراهيم « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا » (١٠) « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » (١١) .

وقد يكون الأمر جد خطير فتتضافر أدوات التوكيد وتتكاتف فى تركيز نفذ كأن ينعلق الأمر بالتقوى حذرا من زلزلة الساعة الرهيبة « يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم » (١٢) وقد يحدث تغير فى الصياغة للمنادى ليصغى سمعه الى جليل مؤكد يلقى اليه كوصايا لقمان وهى تمثل خلاصة حية لتجارب والد حكيم يسوقها الى ابنه فى حنان حازم كما أنها ترسم منهاجا طيبا لحياة فضلى « يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » (١٣) ومنها « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور ... (١٤) والنداء مرتبط بخطابات مختلفة تستدعى هذا النداء فمنها : خطاب العين : أى الاسم المعين كقوله تعالى : « يا نوح اهبط بسلام » (١٥) « يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا » (١٦) « يا موسى أقبل ولا تخف » (١٧) ولم يقع فى القرآن خطاب مباشر بـ يا محمد بل يأيها الرسول يأيها المزمل قالوا : تعظيما له وتشريفا وتخصيصا بذلك عما سواه ويسمى خطاب الكرامة .

كما أن الخطاب بالنبى فى المقام الخاص به كقوله : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » وقد يعبر بالنبى فى مقام التشريع العام قليلا مع قرينة ارادة العموم كقوله « يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن

---

(٩) فاطر ١٥
(١٠) مريم ٤٢
(١١) التحريم ١
(١٢) الحج ١
(١٣) لقمان ١٣
(١٤) الآيات ١٦ ـ ٢٠
(١٥) هود ٤٨
(١٦) الصافات ١٥
(١٧) القصص ٣١ .

لعدتهن » (١٨) أما الرسول ففى التشريع العام « يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك » (١٩) .

وقد يكون النداء بخطاب المدح : نحو : يأيها الذين آمنوا ، أو بخطاب الذم كقوله تعالى « يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ولتضمن الاهانة لم يقع فى القرآن الا مرتين ثم جاء الاسلوب على الغيبة اعراضا وتحقيرا ومثله : « يا بنى اسرائيل » فلم يذكر نداؤهم الا مرتين ثم انطفأ ما كان لهم من نور ، وأخذ يخبر عن جرائمهم كما ذكر أبو حيان . وهناك خطاب التحنن والاستعطاف ونحس تمهل الايقاع فى ترديد جميل كقوله تعالى « يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا أنه هو الغفور الرحيم » (٢٠) أو خطاب التودد والتحبب أملا فى الاستماع المثمر . كقول ابراهيم « يا أبت لا تعبد الشيطان » (٢١) وقول هارون لموسى « يا أبن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » (٢٢) بعد أن ألفى موسى ثائرا لعبادة قومه عجلا من ذهب . ومن خطاب الجنس : يأيها الناس : ومن أغرب مواقعها أنها تصدرت سورتين : سورة النساء فى النصف الأول وهى مشتملة على شرح المبدأ وسورة الحج فى النصف الثانى من القرآن وهى تشتمل على شرح المعاد قال الزركشى فتأمل هذا الترتيب ما أوقعه فى البلاغة (٢٣) وقد نجد نداء واحدا يتوجه وجهتين كالاعتبار فى نداء صالح لقومه بعد هلاكهم « فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » (٢٤) أما نداء الله تعالى باسمه الرب فقد التزم فيه حذف الأداة كما مر فى الدعاء ولم تذكر الا مرة واحدة حكاية عن النبى صلى الله عليه وسلم « وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون » (٢٥) وقد

---

(١٨) الطلاق ١ (١٩) المائدة ٦٧ (٢٠) الزمر ٥٣
(٢١) مريم ٤٤ (٢٢) طه ٩٤ (٢٣) البرهان ٢/٢٢٦
(٢٤) الأعراف ٧٩ (٢٥) الزخرف ٨٨

بلغ به الحزن مداه فانطلق يشكو فى ضراعة الى الله أعـان عليهـا حرف المد فى يا وآله أعلم ، وفى نداء لفظ الجلالة الأفخم حذفت الأداة وعوض عنها الميم المشـددة زيادة فى التفخيم وقعـا وجرسا مناسبة للسياق نحو « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ... » (٢٦)

وحرف المد فى يا جاء فى القرآن معينا على تجسيد نواح المعذبين فى النار ، انك تكاد تسمع صراخهم الجريح وأصواتهم الهلعة المطوطة ترتجف عذابا وتنز ألما أن الحروف نفسها تنزف حرقه وبكاء « يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضـية » (٢٧) .. « يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » (٢٨) وقد خرج النداء هنـا الى معانى التحسر والندم ، وان أريد النداء فيما دخل على ليت فيكون على حذف المنادى ارادة العموم فهو أشبه بالاسـتغاثة والصرخة وفى الأول يا ويلتا دعاء الهلكة والحسرة وقد تجد من الدعاء ما حذف فيـه الأداة مع تكرير المنادى : ربنا غلبت علينا شـقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عـدنا فانا ظـالمون قال اخسـأوا فيهـا ولا تكلمون » (٢٩) .

وتكرار النـداء « رب » أمنيـة هاربة فى التفلت من العذاب .. ومنه « حتى اذا جاء أحـدهم الموت قال رب ارجعـون » (٣٠) حكى الزركشى أنه المخاطب الواحد المعظم والمراد ارجعنى ، وقيل رب استغاثة ، وارجعون خطاب للملائكة ، وقال السـهيلى هو قول من حضرته الشياطين وزبانية العذاب ، فاختلط ، ولا يدرى ما يقـول من الشطط وقد اعتاد أمرا يقوله فى الحياة من رد الأمر الى المخلوقين وهى لفتة نفسية مصورة . (٣١)

---

(٢٦) آل عمران ٢٦
(٢٧) الحاقة ٢٥ ـ ٢٩
(٢٨) الفرقان ٢٨ .
(٢٩) المؤمنون ١٠٦ ـ ١٠٩ .
(٣٠) المؤمنون ٩٩ .
(٣١) البرهان ٢٤٧/٢ .

ومن معانى الأمر المجازية : التنبيه : كقول الهدهد فى حكمة قريبة من حكمة رائده سليمان عليه السلام « الا يا اسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض » (٣٢) مثنيا على الله تعالى بما يصنعه له على مستواه • من اخراج الخبء كالحب والهوام ويا للاسلوب العجز •

ومنه التحسر : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون » (٣٣) بثا لهذا الشعور فى نفس العبد حتى يتحسر على خسرة الظالمين •

ويا ينادى بها البعيد حقيقة أو حكما وقد ينادى بها القريب تعظيما لشأنه أو استقصار الداعى نفسه كقوله يا رب وهو هنا كما قال سيد شريف لا يقصد بندائه طلب اقباله عليه بل يقصد توجه قلبه اليه لينال بذلك مناه ، وعلى كل فهو من هضم النفس والاقرار بالتفريط فى جانب الله مع أمل فى اجابة الدعاء وقد قال الله « انى قريب » (٣٤) •

وقد ذكر الزمخشرى تحليلا للنداء « يأيها » ولكثرة النداء به فى القرآن : لأن فيه أوجها من التأكيد : التأكيد والتنبيه فى « يا » والتنبيه فى « ها » والتدرج من الابهام الى التوضيح فى « أى » والاسم المعرف بعدها ، وتكرار المذكر واختيار لفظ البعيد وتأكيد معناه تناسبا مع المقامات فى افادة المبالغة والتوكيد لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه ، وعظاته وزواجره ووعده ووعيده وقصص الماضين وغير ذلك وما أنطق الله به كتابه أمور عظام — وخطوب جسام ، ومعان واجب عليهم أن يتيقظوا لها فاقتضى الحال أن ينادوا بالأوكد الأبلغ (٣٥)

---

(٣٢) النمل ٢٥ (٣٣) يس ٣٠

(٣٤، ٣٥) راجع الكشاف وحاشية السيد على الكشاف ١/٢٢٥ والشهاب ٢/٣ والاتقان ٣/٢١٢ •

ويلاحظ فى النداء الالهى فى القرآن أنه شمل الانسان كمفهوم لعام الناس ، وأفرادهم ، وأقواما بأعيانهم كالذين آمنوا ، والذين كفروا ، وبنى اسرائيل • كما تناول بعض عناصر الطبيعة فى مواقف القهـر فهى تنادى لتؤمر ويكفى مجرد الأمر ليجاب تلقائيا ولذا لم يذكر مرة واحدة جواب الأمر أو تنفيذه • قال تعالى : « وقيـــل يا أرض أبلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى » (٣٦)

بل قد يحذف النداء ليوجه الأمر القاهر : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين»ومن تصوير القرآن لعالم غريب له لغاته ونظامه « قالت نملة يأيها النمـــل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » (٣٧) وهو نداء وقول وأمر وتنبيه ونهى سببى واعتذار عن سليمان فى ايجاز حكيم وهو حقيقة ولذا تبسم سليمان ضاحكا ثم انخرط فى دعاء متبتل ذائب للقادر الجليل الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى •

---

(٣٦) هود ٤٤ (٣٧) النمل ١٨ •

وهو طلب الشيء المحبوب الذى لا يرجى ، ولا يتوقع حصوله ، ولا يشترط امكان المتمنى . بل المهم هـــذه الرغبة النفسية الحبيسة الحبيبة الكامنة فى القلب تنطلق فى صورة التمنى والتمنى بليت وقـــع أكثره فى الآخرة زمنا ، فهذا مؤمن يس يصوره القرآن قوة خير خالدة ونبع ايمان لا يغيض « ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعـــون أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون » انه يتحدث عن نفسه وهو يقصدهم ويظل صوته منطلقا بالدعوة ، حيا لا يقطعه السياق حتى مع تبدل الأحداث انه قتل شهيدا ويدخل الجنة ومع ذلك مازال لسانه فى السياق لم يتوقف انه يكمـل خطبته الرائعة فى الجنة « يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » (١) ان الله يبلغ عنه وانه لبلاغ باق خالد ان الأمنية المرحة الراضية أن يعلم قومه فى طيبة قلب وبساطة نفس مؤمنة قد تحققت كما تحققت نظيرتها حين رغب شهداء أحد الأبرار أن يعلم أخوانهم ما أعد الله لهم كما جاء فى الحديث فنزل القرآن بآيات آل عمران « فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... » (٢) الآيات وفى المقابل تجد أمنيات الكافرين حارة حارقة وهم فى النار أملا فى الفرار أو الرد الدنيا « ولو ترى اذا وقفوا على النار » وقد صورهم يبحثون ويتمنون شفيعا ينقذهم

---

(١) يس ٢٠ ــ ٢٧ .
(٢) آل عمران ١٦٩ .
(٣) الأنعام ٣٧ .

كعهدهم فى الدنيا « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » (٤) فهم يقيسون احداث الآخرة على الدنيا ولذا أظهروا أملهم المحال فى ثوب الممكن وهو الاستفهام تصويرا لسيطرة هذا الأمل على قلوبهم • (٥) وهل فى التمنى لها دلالة خاصة تختلف عن لو للتمنى التى تصور الأمل مخنوقا يقذفه اللسان فى حال يأس جاثم ثم ينحدر الى قرار فى سراديب أعماق محلولكة القنوط فلو تلتقى مع ليت ــ كما يقول الشهاب فى معنى التقدير ، ولذا أقيمت مقامها وهو يعنى مطلق التمنى والا فان لو لها مقامات المتمنى فيها أبعد احالة وامتناعا وهو قريب من دلالتها شرطا قال تعالى « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » (٦) قالوا وقد يتمنى بلعل فى البعيد فتعطى حكم ليت كقول فرعون : « ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا» (٧) وهذا الأسلوب دال على فورة من فورات النفس الطاغية المتكبرة فى لحظة انفعال متجبر يخيل له الوهم أن المستحيل فى متناول يده •

وقد سبقت بعض الموازنات فى التمنى فى نهاية الاستفهام ، ويمكن أن نرتب دلالات التمنى هكذا :

ليت للبعيد أو المستحيل مع أمل فى تحققه ، ولو للمحال الذى لا أمل فيه وهل تصور المحال فى صورة الممكن رغبة نفسية و « لعل »

---

(٤) الأعراف ٥٣ •
(٥) راجع البحر ١١٣/٣ والشهاب ٤٥/٣ •
(٦) الشعراء ١٠٢ •
(٧) غافر ٣٦ ، ٣٧ وراجع الشهاب ٢١/٧ وبغية الايضاح ٣٢/٢ والاتقان ٢٧٩/٣ •

أقرب الى الامكان النفسى من هل ويؤيده قراءة « فاطلع » بالرفع على أن لعل على بابها من الرجاء .

أما التمنى فى عالم البشر فان المرء يهرب اليه حين تفوق طموحاته واقعة المحدود ولذا يلجأ الى أحلامه الحبيسه يصوغها أمنيات هفهافة وورودا رفافة وعبقا من عالم النفس المزدحم بالرؤى الهامسة ولهذا موطن آخر . (٨) .

والحمد لله اولا واخرا ...

(٨) راجع العمدة ٢/١٤٨ والأمالى الشجرية ١/٢٧٦ .

« مراجع البحث »

١ ــ الابهاج فى شرح المنهاج للامام على بن عبد الكافى السبكى وولده
٢ ــ الاتقــان : السيوطى
٣ ــ أثر النحاة فى البحث البلاغى : د٠ عبد القادر حسين
٤ ــ الاستغناء فى أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافى
٥ ــ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى
٦ ــ أسرار ترتيب القرآن :
٧ ــ أسرار التكرار : الكرمانى
٨ ــ أساس البلاغة : الزمخشرى
٩ ــ الاسس الجمالية د٠ عز الدين اسماعيل
١٠ ــ أسس النقد الأدبى د٠ أحمد بدوى
١١ ــ الأسلوب : الشايب
١٢ ــ الأطوال : العصام
١٣ ــ الاعجاز البلاغى : د٠ محمد أبو موسى
١٤ ــ الاعجاز البيانى د٠ بنت الشاطىء
١٥ ــ الاعجاز القرآنى للباقلانى
١٧ ــ اعجاز القرآن : الرافعى
١٨ ــ الأقصى القريب : التنوخى
١٩ ــ الأمالى الشجرية : ابن الشجرى
٢٠ ــ أمالى المرتضى
٢١ ــ أمين الخولى فى مناهج تجديده : د٠ كامل سعفان
٢٢ ــ أنوار الربيع : ابن معصوم المدنى
٢٣ ــ الايضاح / القزوينى

٢٤ ــ الايمان / ابن تيمية
٢٥ ــ البحر المحيط / ابو حيان
٢٦ ــ بدائع الفوائد / ابن قيم الجوزية
٢٧ ــ البديع / ابن المعتز
٢٨ ــ بديع القرآن ابن ابى الاصبع
٢٩ ــ البرهان : الزركشى
٣٠ ــ بصائر ذوى التمييز / الفيروزبادى
٣١ ــ البلاغة تطور وتاريخ د٠ شوقى ضيف
٣٢ ــ بلاغة العطف فى القرآن د٠ عفت الشرقاوى
٣٣ ــ البلاغة القرآنية د٠ محمد أبو موسى ٠
٣٤ ــ البيان العربى : د٠ بدوى طبانة
٣٥ ــ البيان والتبيين : الجاحظ
٣٦ ــ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة
٣٧ ــ تحت راية القرآن : الرافعى
٣٨ ــ تحفة الأريب : أبو حيان
٣٩ ــ ترجيح أساليب القرآن محمد بن المرتضى اليمانى
٤٠ ــ التصوير الفنى ــ سيد قطب ٠
٤١ ــ تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم ٠
٤٢ ــ تفسير الألوسى : روح المعانى ٠
٤٣ ــ تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ٠
٤٤ ــ تفسير الرازى : التفسير الكبير ٠
٤٥ ــ تفسير سورة النور : ابن تيمية ٠
٤٦ ــ تفسير سورة الفاتحة : محمد عبده ٠
٤٧ ــ تفسير الطبرى جامع البيان ٠
٤٨ ــ تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة ٠
٤٩ ــ التفسير القيم لابن القيم جمع محمد أنيس الندوى ٠

٥٠ ــ التفسير الكشاف : الزمخشرى بحاشية السيد •
٥١ ــ تفسير نيسابورى : غرائب القرآن •
٥٢ ــ تقرير الانبابى •
٥٣ ــ جواهر البلاغة الهشمى •
٥٤ ــ جواهر الكنز لنجم الدين أحمد بن الأثير •
٥٥ ــ حاشية الدسوقى •
٥٦ ــ حاشية السيد على الكشاف •
٥٧ ــ حاشية السيد على شرح الكافية •
٥٨ ــ حاشية الشهاب على البيضاوى •
٥٩ ــ حاشية عبد الحكيم •
٦٠ ــ الحيوان للجاحظ •
٦١ ــ درة التنزيل : الاسكافى •
٦٢ ــ درة الغواص : الحريرى •
٦٣ ــ دفاع عن البلاغة : الزيات •
٦٤ ــ دقائق التفسير لابن تيمية جمع د/ محمد السيد •
٦٥ ــ دلائل الاعجاز عبد القاهر •
٦٦ ــ دلالات الألفاظ د• ابراهيم أنيس •
٦٧ ــ دلالات التراكيب د• محمد أبو موسى •
٦٨ ــ الرمز والرمزية د• محمد فتوح •
٦٩ ــ الرمزية فى الأدب : درويش الجندى •
٧٠ ــ الروض الأنف : أبو القاسم السهيلى •
٧١ ــ سر الفصاحة • ابن سنان الخفاجى •
٧٢ ــ شرح المفصل لابن يعيش •
٧٣ ــ شرح الكافية للرضى •
٧٤ ــ الصناعتين للعسكرى •
٧٥ ــ الصورة الفنية د• جابر عصفور •

٧٦ ــ ضياء الدين بن الأثير د. زغلول سلام .
٧٧ ــ الطراز للعلوى .
٧٨ ــ الظاهرة القرآنية : مالك بن نبى .
٧٩ ــ عبد القاهر الجرجانى : د. أحمد بدوى .
٨٠ ــ عباس العقاد ناقدا د. عبد الحى دياب .
٨١ ــ علوم البلاغة : المراغى .
٨٢ ــ العمدة : ابن رشيق .
٨٣ ــ عيار الشعر ابن طباطبا .
٨٤ ــ غريب القرآن : السجستانى .
٨٥ ــ الفن القصصى فى القرآن د. محمد خلف الله .
٨٦ ــ فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف .
٨٧ ــ فوائد فى مشكل القرآن : عز الدين بن عبد السلام .
٨٨ ــ قضية الاعجاز القرآنى د. عبد العزيز عرفة .
٨٩ ــ قضايا النقد د. العشماوى .
٩٠ ــ القاموس المحيط .
٩١ ــ الكتاب سيبويه .
٩٢ ــ لسان العرب ابن منظور .
٩٣ ــ اللغة الشاعرة : العقاد .
٩٤ ــ المثل السائر لابن الأثير .
٩٥ ــ المحصول للرازى .
٩٦ ــ مدخل الى علم الأسلوب : د. شكرى عياد .
٩٧ ــ مدخل الى القرآن د. محمد عبد الله دراز .
٩٨ ــ مشاهد القيامة سيد قطب .
٩٩ ــ المطول سعد الدين التفتازانى .
١٠٠ ــ معترك الأقران : السيوطى .
١٠١ ــ معجم ألفاظ القرآن : مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

١٠٢ ــ معجم المصطلحات البلاغية ط د أحمد مطلوب •
١٠٣ ــ المعجم المفهرس أحمد عبد الباقى •
١٠٤ ــ معجم مقاييس اللغة ابن فارس •
١٠٥ ــ معنى لا اله الا الله رسالة للزركشى •
١٠٦ ــ معانى الحروف للرمانى •
١٠٧ ــ مغنى اللبيب لابن هشام •
١٠٨ ــ مفتاح العلوم : السكاكى •
١٠٩ ــ مفردات الراغب •
١١٠ ــ من أسرار اللغة د• ابراهيم أنيس •
١١١ ــ من الاعجاز البلاغى د• صبحى دراز •
١١٢ ــ من بلاغة القرآن د• أحمد بدوى •
١١٣ ــ منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن د الجوينى •
١١٤ ــ من الوجهة النفسية د• محمد خلف الله •
١١٥ ــ النبأ العظيم د• محمد عبد الله دراز •
١١٦ ــ نظم الدرر البقاعى •
١١٧ ــ نظرية اللغة فى النقد العربى د• عبد الحكيم راضى •
١١٨ ــ نقد النثر قدامة بن جعفر •

محتويات الكتاب

	صفحة
تقديم	٣
الانشاء	٧
أسلوب الأمر	١٥
المعانى البلاغية لصيغة الأمر	١٦
١ — اثارة التأمل والاعتبار	١٧
الفعل « نظر » دلالة وموازنة	١٧
قضية التأمل والاعتبار فى القرآن	٣٢
التكذيب	٤٣
الاهانة	٤٦
التسخير والنكال	٤٨
التكوين	٤٨
التسوية	٥٤
التهديد	٥٥
التعجب	٥٦
التمنى	٥٧
الدوام	٥٧
الدعاء والتضرع	٦٢
النهى	٦٨
عود على الصفة فى النفى والنهى	٨٣
بين النهى عن القرب والاعتداء	٨٩
النهى عن كون على صفة	٩٠

صفحة

ضرب آخر من النفى	٩٤
نفى الشىء لنفى ثمرته	٩٨
تبادل الأساليب	١٠٢
بين النفى والنهى	١٠٤
الاستفهام القرآنى	١٠٧
مناهج البحث فى الاستفهام القرآنى	١٠٧
أصوله البلاغية ودلالة أدواته	١١٠
أدوات الاستفهام ودلالاتها الحقيقية	١١٢
استعمال الهمزة	١١٢
هل	١١٥
الاستفهام الحقيقى فى القرآن	١٢١
المعانى البلاغية للاستفهام القرآنى	١٢٥
الانكار	١٢٩
قضايا قرآنية فى الانكار	١٣١
الانكار الأخروى	١٥٧
القرآن وصدق الرسل	١٥٩
قضية البعث	١٦٢
الانكار بغير الهمزة	١٧٠
من ردود القرآن	١٧٧
متفرقات فى الانكار	١٩١
الانكار : خصائص وملاحظات	١٩٦
المنكر فى أساليب الاستفهام	١٩٩
التقرير	٢٠٣
وحدانية الذات والصفات	٢٠٤

صفحة

ألوان أخرى من التقرير	٢٢١
فعل العلم ونحوه	٢٢٣
التقرير والتوبيخ للمكذبين	٢٢٩
أنبياء الله تعالى	٢٣٣
من أسلوب الموازنة فى القرآن	٢٣٧
التعجب	٢٤٣
استفهامات المعذبين	٢٤٨
مع المؤمنين	٢٤٩
الهمزة وفعل الرؤية	٢٥٦
بلوغ التعجيب مداه	٢٦٢
الاستفهام بمعنى الأمر	٢٦٤
استفهام التمنى	٢٦٧
استفهام التشويق	٢٦٩
النداء	٢٧٦
التمنى	٢٨٢
مراجع البحث	٢٨٥
محتويات الكتاب	٢٩١

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٩٨٦/٤٢١٧